الفريـــج

الفريج - رواية
تأليف: إسماعيل تامر
الطبعة الثانية، ٢٠١٢م

الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر
إدارة البحوث والدراسات الثقافية
هاتف: ٩٧٤+ ٤٤٠٢٢٨٨٥
فاكس: ٩٧٤+ ٤٤٠٢٢٢٣١
ص.ب: ٣٣٣٢
الدوحة: قطر

رقم الإيداع:
الترقيم الدولي (ردمك):

المراجعة والمتابعة: عبدالله الزوايدة
لوحة الغلاف: سلمان المالك
لوحة الغلاف الأخير: إسماعيل عزام

جميع الحقوق محفوظة
(لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر).

الفريج

رواية

إسماعيل تامر

ᠨᠣᠭᠠᠨ

تقديم

تتناول رواية «الفريج» للكاتب والشاعر العربي السوري الراحل إسماعيل تامر، التي نصدر طبعتها الثانية، مراحل مهمة مر بها المجتمع القطري، بدءاً بمرحلة الغوص، مروراً بكساد اللؤلؤ وسنوات العسرة، تلك التي خبر فيها الإنسان الخليجي شظف العيش وقلة الرزق، وصولاً إلى الطفرة الاقتصادية التي بدأت في الخمسينيات والستينيات.

جاء الحوار في الرواية باللهجة العامية، وذلك لجعلها أقرب إلى أحداث الرواية وشخوصها، وكان ذلك هدفاً من أهداف الكاتب كونه يعمل في التأليف الإذاعي والمسرحي، بالإضافة إلى عمله الأساسي في الإخراج الإذاعي، وقد أوجد فيها ذلك من المتعة والجذب لمتابعة القراءة الشيء الكثير، كما أنها تشتمل على الكثير من الكلمات والمصطلحات التي كانت تستخدم قديماً في زمن الغوص على اللؤلؤ، وفي ذلك إحياء لهذه المفردات وتعريف للنشء بها.

لقيت الطبعة الأولى من الرواية، التي صدرت عام ٢٠٠١ ونفدت نسخها، إقبالاً كبيراً عليها، خاصة من قبل طلاب المدارس، وهذا ما تهدف إليه إدارة البحوث والدراسات الثقافية بوزارة الثقافة والفنون والتراث، أن تجد كتبها القبول والاستمتاع بقراءتها لدى المتلقي، آملةً أن يتلقاها الجيل الجديد ويطّلع عليها ليعرف ما كان يعيشه آباؤه وأجداده وما عانوه من شظف العيش، ويترحّم عليهم لما قدّموه، شاكراً اللّه سبحانه على ما أنعم به عليه.

لقد حرصت إدارة البحوث والدراسات الثقافية على تجاوز الأخطاء التي وردت في الطبعة الأولى، فحظيت الرواية بمراجعة مستفيضة، آملة أن تجد الإدارة صدى لجهدها لدى القارئ، وأن تستعيد بهذه الرواية جهداً مخلصاً لكاتب عربي عاش بيننا وأخلص لمسيرة الثقافة العربية.

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

الرواية

الانتظـــار

كان الوقت صباحاً، ثمة ريح خفيفة تلعب بأوراق السدرة الكبيرة التي تنتصب في ساحة الفريج، كعادته راح أبو حسين صاحب الدكان القريب من السدرة يوصي أحد الصبية الذين يلعبون قريباً منها أن يرش الماء حولها حتى لا يصّاعد الغبار ويزعج الجالسين، فربما كان الماء مرشوشاً على الأرض يوحي ببعض «البراد» في تلك الأيام من أواخر صيف الخليج.

كان الوقت صباحاً في زمن يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي، و«الفريج» يتهيأ لاستقبال أولاده العائدين من الغوص بعد أن شارف الموسم على نهايته، على يمين السدرة غير بعيد عنها يقع بيت «الطواش»[1] أبي خالد الذي سافر قبل يومين على محمله ليموّن المراكب في «الهيرات»[2] التي يلف عليها في مثل هذه الأيام القريبة من نهاية موسم الغوص، من جهة أخرى يشتري اللآلئ من «النواخذة»[3] الذين يرتبط معهم عادة، ومنهم أخوه أبو محمد النوخذة.

أبو خالد عرف في الديرة بوداعته وتعقله، يحب السفر، يكره المغامرة إذا لم تكن هناك ضرورة تحتمها، في الأربعين من عمره، رزقه الله بولده خالد قبل عشر سنوات، ذلك الشقي الذي كان موعوداً بالسفر مع أبيه إلى الهيرات، لكن أمه أم خالد منعته في آخر لحظة، فهي تريده لخدمتها أثناء غياب أبيه، وربما كان هناك سبب أعمق من ذلك، وهو تعلقها الضمني بولدها الذي لم تنجب غيره من الصبيان، إلى جانب بنتين إحداهما (حصة) والأخرى (هنود).

يلتفت أبو خالد وهو في عرض البحر إلى خميس الذي يرافقه دائماً في أسفاره لخدمته، المعروف بسذاجته، لم يكن أهبل، بل رجلاً بسيطاً موهوباً بمهنة «القلافة»[4]

(١) الطواش: تاجر اللؤلؤ.

(٢) الهيرات: أماكن الغوص.

(٣) النوخذة: ربان السفينة.

(٤) القلافة: نجارة السفينة.

وإصلاح السفن، يخدم الجميع دون تمييز، لكن أبا خالد الرأس بالنسبة إليه، فهو لا ينسى معروفه وفضله عليه وأنه ولي نعمته، كذلك لا ينسى بشكل خاص أنه وعده مرة بتزويجه من الصبية فاطمة، تلك اليتيمة العرجاء التي تعيش في بيت المطوع(١)، كان عرجها بسبب كسر جُبر بشكل عشوائي في طفولتها، ولم يهتم أحد لمشيتها العرجاء في تلك السنوات التي شكّلت طفولتها، لكنها عندما أصبحت صبية أحست بنقص فادح عن بنات جنسها، وصارت تتحاشى النظرات التي تتطفل أحياناً بسخرية وأخرى بعطف إلى ذلك العرج الذي لا ذنب لها فيه، مما كان يسبب لها مرارة وألماً لا تستطيع أن تختزنه في أعماقها، لكن خميساً هو الوحيد الذي لم يأبه لمشيتها التي تثير ضحك الأطفال، بل بما يحسه من تعلق عفوي بريء نحوها، لم يكن يكتم تعلقه بها بين أهل الديرة كلهم، ولكن من يهتم به حقاً؟، من يهتم برجل ساذج يعيش على الإحسان، يكد طوال السنة في أعمال مرهقة دون أن يحصل شيئاً ذا فائدة، لأنه لم يتعود في حياته كلها أن يرفض طلباً، كانت كلمة «إن شاء الله» العفوية على طرف لسانه جاهزة دائماً، أما فاطمة فهي تقدر خميساً، لكن أمرها لم يكن بيدها، بل بيد المطوع الذي تعده بمثابة أبيها، فهو الذي تعهد أن يضمن لها حياتها بتزويجها بمن يرى أنه أهل لها، ويكفل ما يراه مناسباً لحياتها، أما خميس فلم يكن يخطر في بال المطوع على الإطلاق.

أبو خالد كان يضحك لشتائم خميس العفوية على العنزة المذعورة من اضطراب البحر، فقد تعود أبو خالد أن ينقل في محمله بعض الخرفان لتوزيعها على النواخذة قبل القفال(٢) وعنزة حلوباً من أجل حليبها الذي يقدم له مع الخبز في الصباح، وكان على خميس أن يرعاها، لكنها هذه المرة كان ذعرها واضحاً لدرجة أنه كان يخشى أن تفلت من عقالها في إحدى قفزاتها إلى البحر، وليس من عادة أبي خالد أن يعاتب

(١) المطوع: رجل الدين في الحي.

(٢) القفال: نهاية الموسم.

خميساً على شيء من كلماته العفوية التي لا تحسب حساباً لأحد، لأنه (مسكين) حسب رأيه، وكان هذا كافياً كي يحتمل منه كل شيء.

يتجه خميس إلى أبي خالد بعد أن أحكم ربط العنز، وبلهجة بريئة:

– عاد يا عمي وهقتنا في هالعنز، جنّه لابسها عفريت، ما تهدا موليه، ول يا كافي الشر.

– تخاف من البحر يا خميس، المهم لا تنسى تحط لها أكل زين علشان الحليب يكون وافر.

– قربنا نوصل الهير، عند أخوي بو محمد، ماهب باجي غير القليل.

ولا ينسى خميس تخوفه من تغير الجو، فيشير لعمه أبي خالد باتجاه الأفق الداكن:

– ما تشوف يا عمي شلون السما متغير لونها..؟

ويهز أبو خالد برأسه مصدقاً، لكنه يبقى محتفظاً بهدوء وسكينة من تعود على البحر:

– الله يعين على هاليومين الباجين.

لكن خميساً لا يريد لهذه الفرصة من الحوار مع عمه أبي خالد أن تنقطع عند هذا الحد، فهناك أمر في داخله يلح عليه دائماً ولا ينساه:

– الحمد لله، السنة الموسم زين..

وعلى الفور يدرك أبو خالد المغزى الذي يجعل خميساً يكرر أمامه أن «الموسم زين»، فيضحك أبو خالد لخميس الذي يترقبه:

– ايه.. يطري علي، ليش تييب سيرة الموسم، لأني وعدتك أزوجك في هالموسم إذا كان أزين من العام؟، خلاص يا خميس أنا وعدتك أزوجك هالسنة يعني بازوجك.

لكن خميساً لا يكتفي بذلك، بل يستدرجه أكثر:

- اي.. وبعد يا عمي..

ويسايره أبو خالد ضاحكاً:

- من فاطمة اللي في بيت المطوع، ها.. استانست الحين..؟

ويذهب خميس راقصاً من الفرح، لا يصدق ما يسمع، بينما يضحك أبو خالد وهو ينظر إليه نظرة عطف تترجم كلمته التي يقولها في إثره: مسكين.

الحقيقة لم يكن ذلك الجو الذي تخوف منه خميس يشغل باله فقط، كان يشاركه في تخوفه أيضاً المطوع على البر، وذلك بعد أن استيقظ ذلك الصباح ولاحظ تغير الهواء والغبار الذي يثيره في «براحة[1] الفريج» على غير العادة في مثل تلك الأيام من أواخر الصيف، والذي أخافه أكثر أن الهواء لا يسلك جهة معينة، بل يلتف على كل الجهات، بعد «الريوق» توجه ليجالس أبا حسين أمام دكانته، بعد أن منعه الغبار من الجلوس تحت السدرة حيث يفضل ذلك.

الجميع يشعر بالوحشة في الفريج لغياب الرجال عنه، ويتشوق إلى تلك الأيام التي ينتهي فيها الموسم على خير كي تطيب الجلسات والسمرات ويعود الفريج إلى حياته.

أبو حسين، ذو الخامسة والثلاثين من العمر، الساخر دائماً، الذي لا يهتم لأمر لا يجد فيه منفعته، يحاول أن يزيل مخاوف المطوع بكلمات معتادة دون أن يقطع تثاؤبه:

- كلها يومين ويرجعون لنا بالسلامة يا مطوع.

- صج اشتقنا نيلس[2] مع الربع، الفريج بلياهم ما ينفع.

---

(١) براحة: ساحة.

(٢) نيلس: نجلس.

- اي صحيح..

يرجع أبو حسين لتثاؤبه ولفرك عيونه المحمرة، بينما يبتسم المطوع في سره، وقد أدرك ضمناً ما يعني ذلك لرجل تزوج حديثاً، شغوف بالنساء، لا يشبع منهن في ليله ونهاره مثل أبي حسين، الذي ينتبه للمطوع فيستفزه ذلك، لكنه يحاول أن يتعلل أمامه بأمر لإبعاد ذهنه:

- البارحة ما رقدت.

ويسايره المطوع:

- شدعوه يا بو حسين..

ويجيب أبو حسين بنرفزة مفتعلة:

- وقظتني زوجتي تقول إنها سمعت صوت في البيت، وقمت نص الليل ادور فوق السطح وفي حوطة الدبش[1]، لكني ما حصلت حاجة، والظاهر إنها خوافة، أنت تدري توها وغريبة عن البيت..

ويوافقه المطوع دون نقاش، بعد أن وجد الفرصة سانحة ليسأله عن أولاده من زوجته الأولى:

- إلا أقول يا بو حسين.. الله الله في عيالك، صلاح ومحمد وسلمى، ترى يقولون لي إنك جاسي عليهم..

ينتفض أبو حسين كالذئب:

- الناس تبي تتكلم وبس، وتحط نفسها في اللي ما يخصها..

ثم كمن يحاول تغطية الأمر بالمبالغة في تصوير عواطفه نحوهم:

- أنا عيوني لهم، لكن هم روسهم يابسة يا مطوع.

---

(١) الدبش: البقر والغنم.

- ما عليه، وسع صدرك وكل شيّ يهون..

كعادته، يرى أبو حسين نفسه كأن الجميع يحسده:

- أهل الفريج يبغون علي سالفة، عاد محد سواها غيري وتزوج مرة ثانية.

حديثهم الصباحي هذا يقطعه حفيف ثوب مقترب، يلتفتان إلى مصدره فيجدان أمامهما أم خالد خارجة من البيت، يبادرها أبو حسين بترحيب مبالغ:

- الله يصبحج بالخير يا أم خالد..

يلحقه المطوع:

- هلا يا أم خالد، ها خير؟

رغم قسوة الملامح والشخصية الطاغية، إلا أن ذلك لا يخفي جمال أم خالد، التي كانت في أواخر العشرينيات من العمر، تسألهم بحيرة واضحة:

- أدور ولدي خالد ما ادري عنه وين..؟

يشير لها أبو حسين إلى السكة البعيدة:

- شفته يلعب مع اليهال[1] في البراحة.

وقبل أن تنصرف يستوقفها المطوع:

- باخبرج يا أم خالد، ترى ولدج ما هب حافظ دروسه.

تهز رأسها وهي تكتم نرفزة وصبراً:

- خلني أجوفه ويستوي خير، من رخصتكم..

لا يخلو أبو حسين من نظرة تأملية عندما ينبه المطوع:

- الفرق كبير بين أبو خالد وأخوه النوخذة بو محمد، يا مطوع كل له طبع يختلف عن الثاني...

يوافقه المطوع:

---

(١) اليهال: الأطفال.

بو محمد ريال وجسور، لكنه الله يخليه عصبي وايد[1].

- أنا أشهد أن كلامك صحيح.

يتذكر المطوع أمراً نسي أن يخبر به أبا حسين:

- تدري إن ولدي جاسم أمس ياي من البحرين، ويقول إن الجابان تصنع القماش (اللؤلؤ) وتبيعه بثمن رخيص بعد.

يلتفت أبو حسين مستغرباً كيف يصدق المطوع مثل هذه الأخبار:

- خل عنك هالسوالف، عاد أنت تصدق هالخرابيط يا مطوع..

- شدراني، ولدي حلف لي انه سمع هالكلام في البحرين..

- لا لا مهب معقول، ما أصدق..

- على كيفك..

ويتململ المطوع متهيأ ليذهب..

- شفيك..

- أبي أروح البيت..

وقبل أن يذهب يتذكر المطوع أمراً آخر:

- صحيح، برز لي الدوا اللي وصيتك عليه، علشان أم جاسم عيونها تويعها[12] وايد يا بو حسين.

- العصر تلقاه بارز بإذن الله... إن شاء الله.

- على خير، عيل أنا باطرش لك فاطمة وعطها إياه.

- انزين..

---

(١١) وايد: كثير.

(٢) تويعها: توجعها، تؤلمها.

ولا ينسى أبو حسين أن يسأل المطوع قبل ذهابه:

- إلا أقول صج تبي تزوج فاطمة حق خميس؟.

يضحك المطوع لأبي حسين الذي لا يستطيع تغيير طبعه:

- عاد أنت اميوّد[1] علينا سالفة الزواج، الله يهداك بس، زين، مع السلامة..

- مع السلامة..

يذهب المطوع، بينما ينصرف أبو حسين لترتيب أغراض الدكان، يغطي قلة التمر قبل أن يهجم عليها الذباب، الدكان يعبر تماماً عن شخصيته، فرغم الفوضى التي تنتشر فيه إلا أنه لا ينسى حاجة أبداً، حتى لو كان قد وضعها منذ سنين، كذلك لا ينسى أن يسجل حساباته على الآخرين في دفاتره، كل الفريج مدين له بصورة أو بأخرى، فهو لا ينسى ديناً على أحد، فالمال عزيز عليه، وربما كان هذا سبب شقاء أولاده من زوجته الأولى، لعدم اهتمامه بحاجاتهم المالية، لقد صاروا شباباً، فلماذا يحتاجون إليه، يستطيعون تدبير عمل مثل باقي الناس، فلماذا يطلبون مساعدته..؟!

بدأ الغبار يزداد بفعل الريح، وصار يدخل الدكان، لقد استحم هذا الصباح ولا يستطيع أن يعيد الكرة، فالماء في البيت لا يكفي لذلك، صار الجلوس في الدكان أمراً صعباً وخانقاً، الزبائن نادرون هذه الأيام، لماذا يبقى هنا، يستطيعون أن يطرقوا باب بيته عند الحاجة، لملم نفسه وأغلق الدكان، ثم التفت حوله هنا وهناك قبل أن يذهب للبيت:

- الله يعينهم في الهيرات، أكيد الجو انقلب عليهم...

هناك في المغاص، حيث يقبع مركب النوخذة بو محمد، جلس ثلاثة من الغاصة في فترة راحتهم حول السريدان[2] يرتعشون من البرد بسبب التيار البارد، واضطجع

---

(١) اميود: مجوّد، ماسك.

(٢) السريدان: موقد النار.

بعض البحارة على المحار وراح في إغفاءة، بينما راح آخرون ينصتون لصوت «النهام»[١] الجريح الذي يستحث مشاعرهم، ليتوافقوا معه في نغمة تعبر الآفاق لتصل إلى البر الذي اشتاقوا إليه. النوخذة أبو محمد كان يجلس مع «المجدمي» وأمامه القدو[٢]، وقد فرش على البساط قماشة خاصة عليها اللآلئ التي جُنيت في الموسم، تتراوح بين حبات صغيرة لا قيمة لها وأخرى كان يفرزها ويصنفها ويعدّها للبيع، فهي الرزق والمحصول، كان داكن الوجه، في نحو الخامسة والعشرين، له شارب ثقيل يزيد في تقدير عمره، وعينان لا تثقان بأحد، ثقيلتا الحركة، لكنهما حادتا النظرات، لا تحيدان عن هدفهما، كلماته حاسمة، ترافقها نبرة توحي بالغرور والكبرياء، ليس من عادته أن يضاحك بحارته، لكنه لم يأكل حق أحد منهم، وهذه سجية فيه مميزة.

عندما خبت النار في السريدان، أسرع أحد البحارة الثلاثة بوضع الحطب لتبقى مشتعلة، وبجانب الرعشة التي سببتها لهم التيارات الباردة في القاع، كان هناك قلق واضح على وجوههم، أحدهم هو الشاب «حمد»، في السابعة عشرة من العمر، حملته الصدفة ليكون «غيصاً».. فقد كان وما زال يفضل حياة البر على البحر، إلا أن أباه الذي كان مرتبطاً مع أبي محمد مرض فجأة وعجز عن الوفاء بالتزامه، مما دعا ولده الشاب حمد ليخاطر بنفسه التي لا تعرف الخوف من أجل سداد ديون أبيه التي سبق أن استلفها من أبي محمد، كان حمد يحب نظم الشعر الساخر، وسخريته تخفي طموحاً لا حدود له، انتبه حمد لزميله حسين يعطيه إحدى حبات التمر، بينما يتقرب أكثر إلى النار فاركاً يديه اليابستين:

- ما ينغاص اليوم، البحر دافي والقوع بارد.

وبتصبر، يهز رأسه حمد وهو ينظر إلى الأفق البعيد:

---

(١) النهام: مطرب السفينة.

(٢) القدو: النارجيلة الشعبية.

- باجي يومين على القفال.

لكن حمد يتذكر أمراً أقلقه:

- القوع مدلخ[١] وايد، ما ينشاف شي، محد يقدر يعرف المحارة من لخربه.

لكن رفيقهما جاسم لا يهتم للأمر كله، بل بما أصابه من برد، فيشير إلى حسين (مرتجفاً):

- واللي يخليك يا حسين زيد الحطب في السريدان، الهوا بارد...

وبحماس يندفع حمد:

- أنا لازم أروح أعلم النوخذة بو محمد..

لكن حسيناً يستوقفه كرجل خبير بطباع النوخذة:

- حمد...! اسمع نصيحتي ولا تروح حق النوخذة.

لكن حمد لا يبالي بالأمر كعادته، ففي أعماقه نزعة إلى المسؤولية، إنه لا يستطيع أن يسكت عن هذا الأمر، وتشيعه نظرات حسين وجاسم بينما يذهب إلى النوخذة أبي محمد الذي كان قلقاً على تأخر أخيه أبي خالد، فقد بدأت المؤونة التي لديه بالنفاد، وحتى ماء الفنطاس[٢] لم يعد يكفي أكثر من يوم آخر.

عندما يقترب حمد منه محيياً يجيبه بتثاقل، ولا يصدق النوخذة أذنيه عندما يسمع كلمات حمد، إذ كيف يحق لهذا الطفل المغرور الذي لا خبرة له في البحر أن يحشر أنفه فيما لا يخصه ويشير عليه بأحوال البحر والهواء كأن النوخذة لا يدري بها، ولا يتمالك غضبه فيصرخ في وجه حمد آمراً إياه بالانصراف وألا يعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية حتى لا يقطع لسانه، يتحامل حمد على نفسه راجعاً من حيث جاء،

---

(١) مدلخ: متعكر.

(٢) الفنطاس: خزان الماء.

كان يعتقد أنه سيلاقي تقديراً من النوخذة لحسن ملاحظته، لا أن يتهمه بأنه يريد أن «يفتك» من الشغل ويحرض البحارة على ذلك حتى يرجعوا مبكرين إلى البر الذي اشتاقوا إليه.

كان يمكن لحمد أن يعشق البحر، لكن الظروف جعلته ينقم عليه، فهو يحب الأسفار حيث تتجدد الأماكن والرزق، لا أن يبقى في مكان واحد لمدة أشهر، إن شعوره بأنه جاء رغماً عنه بفعل الواجب إلى البحر هو الذي جعله متحسراً على أحلامه، مع أنه كان وما زال يعتقد أنه رجل محظوظ، ألم تكن أمه تقول ذلك دائماً أمامه، كل هذه الخطرات كانت تتضارب في وجهه المحتقن وهو يرجع خائباً إلى زميليه حسين وجاسم اللذين راحا يشنعان عليه خيبته، وهو يتحمل ذلك مفتعلاً ابتسامة ساخرة تكاد تنطق بالبكاء، ولا مبالاة تحاول أن تقطع الطريق على غضبه المكبوت، ثم كمن لا يستطيع السكوت أكثر من ذلك يبلغ زميليه الضاحكين بقراره الأخير:

- يا إخوان، لين الله كتب لي أعود البر.. عمري مهب «داش»[1] البحر مرة ثانية.

وينفجر زميلاه بالضحك، بينما يعلو صوت النوخذة منادياً بصب القهوة للبحارة، وهذا يعني تقديم التمر قبل القهوة، إنها فرصة للراحة ولسد الرمق ينتظرها البحارة بفارغ الصبر...

حاول حمد أن «يحرد» عن القهوة ليسجل موقفاً، لكن الجوع الذي يحسه لا يترك له مجالاً لإبداء ذلك الموقف، لأن أحداً لن يهتم به ساعتها، طوى حمد كبرياءه المجروح ومشى إلى حيث يجلس الجميع متحلقين حول صحن التمر، ومد يده على اسم الله.

بعد ظهر ذلك اليوم رجع الغواصون إلى البحر الداكن الذي بدأ موجه يضرب حواف السفينة بقوة أكثر، ورغم الأصوات التي تستثير الهمم هنا وهناك، إلا أن المحار

---

(١) داش: داخل.

كان قليلاً، فهناك شكل من الحياة لا يتوقف على سطح السفينة، فالغاصة يغطسون إلى القاع يكافحون التيارات الباردة وانعدام الرؤية، رغم أنهم في النهاية لا يملأون شيئاً في سلة المحار التي ترافقهم، و«السيوب»[1] يقلبون سلة المحار بما فيها على «السطحة» بحركة إيقاعية يصاحبها الدعاء الجماعي بالرزق، والنهام لا يكف عن تمزيق الأنغام في جراحات صوته، والنوخذة لا يريد أن يتوقف شيء من هذه الحياة حتى في أقسى الظروف، فربما جاء الرزق من حيث لا يحتسب، وربما جاء اليومان الباقيان في الموسم بما لم تأتِ به الشهور الماضية.

أخيراً تهلل وجه النوخذة أبي محمد عندما سمع صوت سالم يبشره بأن مركب أخيه أبي خالد قد ظهر أمامهم، وقد أنعش ذلك سائر البحارة، الذين هللوا جميعاً لمركب أبي خالد وهو يقترب من سفينتهم، فله مكانة خاصة لدى البحارة جميعاً، عدا عن أنه يجلب إليهم الطعام الوافر الجديد والماء النقي، وأهم من ذلك كله أخبار البر الذي يشتاقون إليه ويمضهم الحنين إليه..

أشار النوخذة أبو محمد لبعض البحارة الأقوياء بربط حبال مركب أبي خالد بمركبهم، وأوصاهم بالحذر وهم ينقلون المؤن من أن يسقطوها في البحر بفعل الهواء الذي يلعب بالأمواج، تعانق أبو خالد مع أخيه النوخذة عناقاً طويلاً، وسلم على البحارة جميعاً وهو يقول لهم: أبشروا بالزاد الطيب، الأهل كلهم بخير، ومن هذه الكلمات التي تبعث الأمل، بينما راح النوخذة يشرف على نقل الزاد والماء إلى سفينته، منتبهاً إلى خميس الذي يرافق أبا خالد يتنحى جانباً كمن لا يريد السلام عليه، ومن عادة خميس أن «يزعل» ويأخذ على خاطره، لكن عندما يقترب منه الآخرون ويبدأونه حتى ولو بطريقة مفتعلة ينسى كل شيء ويرجع إلى سذاجته، وبافتعال واضح سأله أبو محمد النوخذة عن زعله وعدم سلامه عليه، وكأن خميساً كان يرجو أن يسأله

---

(١) السيب: مساعد الغواص.

النوخذة، لأنه لا يطيق الزعل في داخله، وبلهجة وديعة معاتبة يجيبه:

- علشان أنت «سطرتني»[١] قبل الدشة، ما اتّذكر؟

- زين زين... لك الحق... وما لك إلا طيبة الخاطر.

ويسمع أبو خالد وهو يقترب من أخيه هذا الحوار، فيتدخل ضاحكاً:

- ما تقدر ترضيه يا بو محمد، إلا ان جان تسعى معانا في زواجه.

ويضحك أبو محمد مربتاً بيده على كتف خميس الذي تغمره السعادة والفرح عندما يعده أبو محمد أيضاً بمساعدته في الزواج، لكنه يقطع عليه كل ذلك عندما يأمره بلهجة جادة لمساعدة سالم في نقل الزاد، مع التحذير بـ «أن يتحمل أن يطيح شيء في البحر»، ولا يفوت النوخذة أن يسأل أخاه عن سبب التأخير في وصوله، فيجيبه بأن الهواء كان السبب، ويسأل أبو خالد أخاه عن الموسم، فيهز أبو محمد رأسه:

- الحمد لله.. زين..

هذه الكلمة تعني كثيراً من الاحتمالات، فربما كان الموسم عادياً أو مربحاً، وهذا كله يتحقق عند جرد الحساب في جلسة توضع فيها المكاييل وتفرز اللالىء وتصنف، كان أبو محمد شخصية نموذجية، فهو يحترم بقناعة أخاه الكبير، ولا يفكر أبداً في معارضته، كما هو شأنه مع كل من هو أكبر منه، ويتباسط فقط مع من هم في مرتبته، لكن من هم دونه في المرتبة، فهو سيد بلا منازع، لا يقبل معارضة، فهو يعتقد أنه حقق مرتبته تلك بالصبر والجلد وبتركيز جهده فيما يخصه، وعلى الآخرين أن يكونوا كذلك إذا هم أرادوا أن تعلو مراتبهم، لذلك كان ضمناً يستغرب طبع أخيه الذي يتباسط مع البحارة دون حاجز رسمي، وقد كان وجود أبي خالد بين البحارة عامل راحة لهم في وقت شغل ورزق يجب أن لا ينقطع لأي سبب، لكن أبا محمد كان

(١) سطرتني:ضربتني.

معتاداً على أن لا يخالف كلمة لأخيه الكبير، عدا عن أنه هو الذي علمه ودربه على صنعة البحر..

ينتبه أبو محمد إلى البحارة وهم ينفجرون بالضحك، ويرى حمد بينهم، فيدرك أنه لا بد قد علق على أمر ما، إنه لا يطيق حمد هذا، ذلك الشاب المغرور، ولولا أنه يسدد عن أبيه ديونه لما ارتبط معه، إن همته في الشكوى أكثر من العمل.

في هذه الأثناء يعلو الموج، وبفعل الهواء تضرب موجة جانب السفينة، فينتشر رذاذها على سطح السفينة، فيشير أبو خالد لأخيه النوخذة بقلق:

- أقول بو محمد، ما تشوف شلون الجو تغير، طالع الغيم هناك..

- أنا من مدة، وقلبي ينقزني، والبحارة يقولون إن القوع مدلخ، لكني قلت باجي يومين يصبرنا الله عليهم.

- لا يا خوي.. أنا من رأيي تسارعون بالقفال قبل لا يصير شي ولّا شي الله لا يقوله، بعدين ما يفيد الندم.

وكأن هذا التحذير المتكرر على مسامع أبي محمد لا يزيده إلا عناداً على عناد، كأنما يستعذب في داخله خوف الآخرين، بينما هو يتصنع الشجاعة:

- عاد أنت يا خوي صار قلبك ضعيف من يوم صرت طواش.

ويبتسم أبو خالد:

- «اتهقا»(١) أنا جذيه، يعني هذا جزانا يوم علمناك على البحر.

ثم كمن يريد تغيير الموضوع، يسأل أبو محمد أخاه عن المغاصات الأخرى التي مر بها، فيطمئنه أن الموسم جيد، وقد حصل على أحسن «القماش» من بين سائر التجار، فقد كان أبو خالد معروفاً لدى جميع النواخذة الذين يتسابقون لبيعه محصولهم، لأنه

---

(١) اتهقا: أتظن.

يدفع أسعاراً جيدة، والجميع يثق به.

يحاول الغاصة العودة إلى الغوص، لكن اهتزاز السفينة وارتفاع الموج يمنعهم، عدا عن أن القاع أصبح معتماً تماماً، ولا يستطيع المجدمي أن يسكت أكثر من ذلك، فيأتي إلى النوخذة لإخباره بواقع الحال وإنذاره من هذا الجو، ويستحث أبو خالد أخاه، لأن الجو ينذر بعاقبة مخيفة، والذي أزعج النوخذة أكثر عندما سمع المجدمي يحذره من «الدالوب»[1]، وقد أكد أبو خالد ذلك التحذير، وما هي إلا لحظات حتى تأكد كلام المجدمي، فقد ارتفع الموج وصار أكثر عنفاً، والهواء يملأ الشراع يحاول تمزيقه، أما السفينة فقد اضطربت وساد الهرج على ظهرها والدعاء المتصاعد من هنا وهناك..

سارع أبو محمد وهو يحاول أن يتماسك أمام بحارته ليأمرهم بأن يرفعوا «السن»[2]، فالسفينة قد تنقلب إذا بقيت مربوطة إلى القاع والموج يضربها من كل جانب، وراح أبو خالد يشجع البحارة ويساعدهم بحكم خبرته الماضية، لكن أحد البحارة يصرخ من مكانه وهو يحاول رفع السن:

- السن شاير[3].. السن شاير.

هذا يعني أن المرساة عالقة في القاع ولا يمكن رفعها، وعلى الفور بادره النوخذة آمراً:

- قص «الخراب»[4] يا جاسم، قص الخراب.

ويقص البحار الحبل حتى يتخلصوا من المرساة العالقة، وبدأت السفينة لا تطفو

(١) الدالوب: الإعصار.

(٢) السن: المرساة.

(٣) شاير: عالق.

(٤) الخراب: الحبل.

كما ينبغي، وراحت تميل على أحد جوانبها بفعل تيار الأمواج، فيصرخ أبو محمد بخميس وسالم أن يمسكوا بـ«السكان»[١] جيداً، ويشير عليه أبو خالد بتخفيف الحمولة قدر الإمكان.

لم يعد باستطاعة النوخذة أن يتمسك بعناده أكثر، فاستسلم لخبرة المجدمي وأخيه وصار متعاوناً أكثر من الأول، وفعلاً خفف البحارة الحمولة الزائدة، لكن الأمواج سدت عليهم رؤية الآفاق، فمرة تصبح السفينة فوق الأمواج وأخرى تهبط بهم، وأخذت الرياح تضرب الشراع بقوة حتى تمزق طرف منه، وفجأة تضرب موجة عالية ظهر السفينة فتجرف بقوتها المسكين سالماً، ويستطيع خميس أن يتمسك بكل قوته بالسكان كي لا ينجرف معه، ويسمع الجميع صراخه وهو يخبرهم بسقوط سالم في البحر، لكن من يستطيع إنقاذه في تلك اللحظة، لقد ابتلعه الموج، بعض البحارة المساكين نزلوا إلى الخن في باطن السفينة ليحتموا من عنف الموج، كان حمد متمسكاً بقوة بالقرب من «الدقل»[٢] كي لا يجرفه الموج الذي صار يضرب سطحها، ولم ينتبه أحد إلى القرقعة التي تصدر عن الدقل بفعل الموج والريح، وما هي إلا لحظات حتى انكسر، ورأى أبو محمد بأم عينيه أخاه أبا خالد وهو ينهرس بضربة الدقل المكسور، لكنه لم يعد يعي شيئاً بعد أن أصابته عارضة خشبية على أم رأسه ففلقت جبينه وسقط لا يدري بشيء، وأصاب الدقل حمد في فخذه فكسرها، ولكن أحداً لم يستطع سماع صراخه، وما هي إلا لحظة حتى جرفه الموج ليسقط في البحر، وراح يحاول التعلق بأي شيء يطفو وهو يصارع الموج، صارت السفينة كقشة وسط الأمواج، واستطاع من بقي حياً على ظهرها أن يهبط إلى قاعها محتمياً من الأمواج العالية، أما خميس فقد بقي مع المجدمي متشبثاً بالسكان وهو لا يصدق لوعته، لقد مات أبو خالد، لكن المجدمي نهره، فلم يكن الوقت مناسباً للأحزان، بل للصراع من أجل البقاء في وسط الريح

(١) السكان: موجه السفينة.

(٢) الدقل: الصاري.

والأمواج العاتية.

في الليل هدأت العاصفة واستطاعت السفينة أن تصمد، ونزح البحارة الماء من قاعها وألقوا من كان على ظهرها ميتاً في البحر بعد الصلاة المختصرة عليه، ورغم التعب والإرهاق إلا أن المجدمي ظل متماسكاً ليحاول أن يصل بالسفينة إلى البر، بينما كان خميس منزوياً يبكي بحرقة.

وفي باطن الليل، راحت السفينة المثخنة بالجراح بفعل العاصفة تتهادى إلى البر، بينما راح البحارة الباقون على قيد الحياة يتناوبون التجديف في تلك الليلة الثقيلة.

في البر كان الشاطئ يحمل كثيراً من الأخبار المتفرقة على رمله، التي تعبر بصمت عن هول الكارثة، فقد حمل الموج قطع الخشب المكسورة من المحامل و«الدرامات»[١] الفارغة والأكياس، واستطاعت بعض السفن أن تنجو من الضربة بعد أن التجأت مبكراً إلى الشطآن، ووردت الأخبار البائسة من بعض البحارة الذين وصلوا إلى البر عن النكبة التي لحقت بالمغاصات، فقد كانت الضربة عامة شملت أمواج الخليج وغرق كثير من السفن في قاع البحر.

كانت النساء يجلسن أمام الشاطئ يستشرفن الأفق البعيد بنظرات ملؤها اليأس والحزن، بينما راح بعض الرجال ومعهم الأطفال يلاحقون ما تقذفه الأمواج من آثار النكبة، وانتشر الدعاء إلى جانب الولاويل المفجعة.

أم خالد جلست على ربوة صغيرة تحتضن ولدها بقوة منذ الصباح الباكر وتحاول ما استطاعت إبعاد الدموع عن عينيها المحمرتين، كان قلبها يلهج بالدعاء، لم تكن تريد أن تفقد الأمل بعودة أبي خالد، فكثيراً ما صادف الأهوال في البحر خلال السنوات التي عاشتها معه، لكنه كان يعود في النهاية، غير أنها هذه المرة تحس شيئاً مخيفاً في أعماقها لا تجرؤ شفتاها المرتجفتان أن تنطقا به.

(١) الدرامات: البراميل.

هناك على «الدكة»[1] الملاصقة لبيت النوخذة القريبة من البحر، جلس المطوع وأبو حسين يترقبان الأفق، وبين لحظة وأخرى يضرب أبو حسين كفاً بكف، بينما لا يلتفت له المطوع، جاء صالح ومحمد أولاد أبي حسين من جولتهم على الشاطئ، وأخبرا المطوع أن إحدى السفن قد عادت مكسرة تكسيراً، أوصاهما المطوع ألا يتكلما بهذه الأخبار أمام الحريم حتى لا يلوعا أكبادهن، يحاول أبو حسين تصبير المطوع فيقول له إن النوخذة أبا محمد لديه أحسن البحارة في الديرة، ومحمله قوي، وهو شاطر ولديه خبرة بالبحر، لا بد أنه نجا والتجأ إلى أحد الشطآن، لكن المطوع يهز رأسه متضايقاً من كلامه ويتهمه بالتخريف، فالبحر مليء بالأهوال ولا أحد يملك الشطارة عليه مهما تعمقت خبرته، فرب العالمين هو الذي يحفظ لا شطارة النوخذة، ويستسلم أبو حسين لهذا الكلام وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

صرخ أحد الصبية عندما شاهد مركباً يلوح في الأفق، اندفع الناس الذين كانوا ينتظرون على أحر من الجمر، بعضهم خاض في الماء مع الدعاء وذكر الله، وشيئاً فشيئاً كان يقترب المركب، وبدأت علامات النكبة تظهر عليه، فلا شراع، والبحارة لا صوت لهم ولا حركة على ظهره، لقد كان مركب النوخذة أبي محمد لا غيره، واندفع الناس لمساعدة بحارته الباقين على ظهره، وأمسكوا بالحبال ليجروه إلى الشاطئ، وكان صوت خميس الباكي يصل إلى مسامع الناس، وانفجرت النساء بالبكاء والعويل بعد أن وضحت المأساة على المركب، وصار الناس يتناقلون الخبر، مات أبو خالد، طاح عليه الدقل، سالم راح البحر مع حسين وجاسم، وحمد فقد بين الأمواج، لم يبق غير المجدمي وخميس وبعض البحارة، أبو محمد أنزلوه من المحمل فاقد الوعي مشدوخاً في رأسه بجرح غائر، وسرعان ما أوصلوه إلى البيت، وقد ذهب معه أبو حسين لعلاجه، واجتمعت بعض النسوة حول أم خالد التي راحت تبكي بحرقة وهي

(١) الدكة: المصطبة.

تحضن ولدها وجلست على الأرض كأنما كسر ظهرها من هول المصيبة، بينما تجمع آخرون حول خميس الذي راح يصف ما حدث وهو يبكي بحرقة حتى نهره المطوع وأبعد الآخرين عنه وهو يقول لهم إن البكاء حرام والرحمة واجبة الآن، لم يستطع إكمال كلامه فأشاح بوجهه وابتعد عن المكان.

تلك الليلة أطبقت بعتمتها على سكان الديرة، لم يسمع صوت السامر كما في الليالي الخوالي عقب عودة البحارة من موسمهم، بل كان الأنين الخافت هو الذي تحمله النسائم، يا ليت لو أن الأمواج اكتفت بضياع الموسم والرزق، يا ليت الريح كسرت المحامل والأشرعة، ويا ليتهم عادوا ولو قطعة لحم حية، لكن الأمنيات تزيد في الأوجاع بعد أن حدث وانتهى كل شيء، وأغفت الديرة مقهورة محروقة الأنفاس في عتمة تلك الليلة.

صباح جديد

ما أسرع ما تعود الحياة إلى طبيعتها في أرض الخليج، فثمة فلسفة بسيطة مترسخة بعمق في وجدان الناس، الموت والحياة من قضاء الله وقدره، والرزق مقسوم، هذه القناعة ولَّدَت رضى وتسليماً عجيبين، فمهما كبرت المصيبة فما لها في النهاية غير كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون، لا طقوس ولا خرافات ولا احتفالية، وليس هناك من شخص كائناً من كان بعزيز على الله عز وجل.

في ذلك الصباح لم يتخلف الأطفال عن موعدهم للتجمع في براحة الفريج واللعب تحت السدرة، تشاركهم العصافير في ذلك، ورغم الحزن الذي حل بأم خالد على فقد الغالي، إلا أنها لم تستطع أن تمنع ولدها خالداً من الانضمام لمجموعة الأطفال ليلعب معهم، ورغم حزنه الطفولي وبكائه في تلك الليلة إلى جانب أمه إلا أنه سرعان ما نسي ذلك تماماً في الصباح، فالأطفال لا يحتملون الكآبة ولا الحزن، لأن الطفولة بحر غزير المشاعر، لكنه بلا قاع عميق.

خرج خالد من البيت يحمل «الفلاتية»[1]، بينما راح آخر من الأطفال بالفخ يغطيه بالتراب ويضع فيه دودة حية لإغراء العصافير، ورغم هذه العدائية السافرة تجاهها، إلا أن العصافير كانت وما زالت تحب الأطفال ولا تهرب من أمامهم.

أما أبو حسين فقد عرف كيف يستغل الأطفال تماماً، فهم يرشون الماء أمام الدكان، ويفرشون البساط تحت السدرة، ويرتبون أغراض الدكان ويساعدونه في نقلها، كل ذلك من أجل حلاوة موعودة يقدمها لهم بعد جهد جهيد، وفي النهاية تكون يابسة عفى عليها الزمن وهي مطوية في دكانه، لكن أسنان الأطفال لا تعرف اليابس ولا المكروه، وكثيراً ما ندد المطوع ببخل أبي حسين تجاه الأطفال، غير أن لرأيه دائماً تعليل، لذلك يقوله بحماسة لتغطية هذه التهمة، وهو أن الأطفال عليهم ألا يتعودوا أن

(١) الفلاتية: أداة لصيد العصافير.

يأخذوا شيئاً دون مقابل، ثم إن عين الطفل فارغة ولا تشبع، يضحك المطوع وهو يدرك أن لا شيء يمكن أن يغير الطبع الذي جبل عليه أبو حسين.

لقد نسي أهل الفريج في ذلك الصباح الميت من أجل الحي الجريح، فالحي أفضل من الميت، والحق يقال، فقد سهر أبو حسين إلى جانب أبي محمد الذي كان لا يدري بحاله من الهلوسة التي كان عليها بسبب ذلك الجرح الغائر في رأسه، توقف النزيف عندما وضع أبو حسين كمادات من الماء والملح جعلت أبا محمد يقفز دون وعي من أثر الملح الكاوي لجرحه، وأحس أبو حسين أن الجميع برهن إشارته في ذلك الموقف، فهو صاحب الكلمة النافذة، ودواؤه هو الرجاء بعد إرادة الله، ورغم الحزن الذي ألم بأم خالد، إلا أنها رأت أن من واجبها الاطمئنان على صحة أبي محمد، وبعثت لها أم جاسم امرأة المطوع فاطمة كي تساعدها في الطبخ وتنظيف الحوش والغسيل وما إلى ذلك، الجميع يرتاح لفاطمة، فهي طيبة وقليلة الكلام، تخدم بإخلاص، خصوصاً عندما تكون عند أم خالد.

فاطمة أصبحت مسنداً لهموم أم خالد بعد أن أصبحت جوانب البيت لا تشيع إلا الذكرى في نفسها، كل شيء أصبح موحشاً ومقلقاً، خاصة عندما يقترب العتم، لقد تغير الحال، أصبح العتم كابوساً لا حياة فيه إلا لصوت الكلاب البعيدة والصراصير.

غابت ضحكات الرجال، أصواتهم التي كانت تملأ المجلس، ذهبت بهجة الليل في أعماق البحر، لقد عزاها الناس، لكنهم كانوا مشغولين أيضاً ببيوت كثيرة لتعزيتها في الديرة، فالمصيبة لم تكن على رأسها وحدها، وإن شغلت عن مصائب الآخرين بداهيتها، لم تكن ديرتها وحدها تعيش هذه المصيبة، بل بلدان أخرى على شط الخليج، لوعتها ضربة الهواء، لقد مضى الناس أخيراً كي يلملموا جراحاتهم، أما هي فيلزمها أن تفتش كل يوم عن عزاء كي لا يقتلها ذلك الجرح.

ذهبت فاطمة إلى «الجليب»[1] القريب من السدرة، كي تجلب الماء لبيت أم

(١) الجليب: البئر.

خالد، أنزلت الدلو إلى الماء، المكان هادئ لا شيء يعكره إلا صرير الحبل على البكرة الحديدية التي تساعد في سحب الدلو من الجليب، في هذه الأثناء انتبهت فاطمة إلى حركة شخص من خلفها، عندما استدارت وجدت خميساً يبتسم لها، كان هذا أول لقاء لها به بعد الحادث:

- خميس، هذا أنت..؟

ثم تشعر كأنما ينتظر منها كلمة أخرى، فتبتسم له:

- الحمد لله على سلامتك.

يقترب خميس منها:

- شلونج يا فاطمة.

- بخير، وأنت شلونك الحين؟!

- الحمد لله، أشوى..!

ينتبه لها وهي تحاول سحب الدلو من الجليب فيمسك عنها الحبل:

- شتسوين، هات عنج..!

- تسلم يا خميس، من وين ياي؟

- كنت في بيت النوخذة بو محمد.

- اشلونه الحين..؟

- أشوى، دوا بو حسين ما في مثله.

يصب الماء في الوعاء الذي جلبته فاطمة معها ثم يقف يهز رأسه متنهداً..

- شفيك يا خميس..؟

- يا حسافة على بو خالد.

- اللّه يرحمه..!

- راح وراح وياه اللي وعدني به.

- شلي راح وياه يا خميس..؟

يشعر خميس أن فاطمة فهمت عليه من ضحكتها التي تخفيها في وجهها، وبطريقة أقرب للسذاجة يكرر جملته الأخيرة:

- اللي وعدني به.

تمشي فاطمة، بينما يحمل خميس الوعاء المملوء صوب بيت أبي خالد، وتأخذه منه عند الباب وتدلف إلى الداخل بعد أن أغلقت الباب.

للمرة الأولى يشعر خميس أن لرجوعه سالماً معنى عند فاطمة، فالفريج لم يشعر بعودته بين زحام العائدين، لم يسأل عنه أحد غير فاطمة، ترى هل يجود الزمان عليه بمن يقنع المطوع بتزويجه إياها، إنه لا يملك شيئاً غير قلبه البريء، لكن من يهمه ذلك حقاً في الفريج بعد أبي خالد..؟

في عصر ذلك اليوم، عاد جاسم ابن المطوع إلى البيت من سفرته إلى البحرين، دخل البيت دون أن تشعر به أمه، رمى أغراضه بلا مبالاة في ركن الحجرة وجلس متعباً مكدوداً، كان في العشرين، عيناه توحيان بالغموض، عصبي المزاج، تدخل أمه الحجرة فتتفاجأ به، لا ينهض لها، لكنها اعتادت عليه، فهي تعرف طباعه جيداً وتشفق عليه، محاولةً دائماً مساعدته في مواجهة أبيه الذي يشكو منه دائماً، تجلس إلى جانبه، تنظر إليه بإمعان كمن تتفحصه، يسألها مستغرباً:

- شفيج يما..؟

- غير ثيابك يا ولدي لأنهم وسخين وايد، عندنا ماي، قوم تسبح وانا باحط لك لقمة تاكلها.

لكنها تلحظ عليه الانزعاج والملل عندما ينفخ الهواء، فتسأله بقلق:

- شفيك يا ولدي..؟ عسى ما شر..؟

فيجيبها باقتضاب:

- ما فيني شي..!

لكنها من خبرتها به تدرك أن هناك أمراً يخفيه في داخله:

- شلون كانت سفرتك..؟

وباقتضاب كعادته:

- زوينه..!

- يبت الأغراض اللي وصاك عليها بو حسين للدكان..؟

- إيه يبتها..!

تبقى الأم مركزة عينيها عليه، بينما هو يحاول أن يتحاشاهما، ثم كمن لا يجد مهرباً:

- يما أنا مليت من هالشغلة وأبي أفتك منها..!

تصدم الأم بهذه الكلمات، فهي تدرك وقعها على أبيه الذي صار له مدة يجاريه ويؤمن له العمل بعد التسلف والتوسط لدى الآخرين، ثم يأتي جاسم ليخرب كل شيء، كم مرة تقلب في الأشغال..! لكنه لم يستقر في واحدة منها، تحاول الأم مداراة الأمر حتى لا يسمع المطوع، لكن جاسم كان مصمماً ويقول كلماته بثقة دون خوف من العاقبة، تعاود الأم الرجاء:

- واللي يخليك لا تييب طاري هالسالفة جدام أبوك..!

- شيسوي أبوي يعني..؟ زهقت يعني زهقت، إذا كان خايف على البانوش[1]

(١) البانوش: من أنواع السفن.

عيال بوحسين صلاح ومحمد يتمنونه، أما أنا من اليوم وساير أبغي أدور لي على شغلة ثانية اهنيه في البر.

تصفق أم جاسم كفاً بكف وهي لا تجد حيلة غير «لا حول ولا قوة إلا بالله»، بينما ينهض جاسم، يبدأ في خلع ملابسه المتسخة دون مبالاة ويذهب للاغتسال، في الوقت الذي تقوم الأم بصبر واضح بجمع ملابسه المتناثرة كأنما تؤكد لنفسها أن ولدها لن يتعلم أبداً.

جلست أم خالد أمام وعاء الغسيل في الحوش لتغسل ثياب ولدها خالد، بينما راحت فاطمة تشعل النار في الحطب لتطبخ، وبين لحظة وأخرى كانت أم خالد تسرق نظرة متمعنة نحو خالد الذي يلعب في الحوش، لم يكن يشبه أباه في شكله، لكن ضحكته فيها الكثير من ضحكة أبيه، كان رقيق الجسم، لكن أعصابه قوية، دائماً يحاول أن يقوم بشيء أكبر من احتماله، كأنما يريد أن يثبت لها رجولته وبأنها تستطيع الاعتماد عليه، كانت متعلقة بولدها خالد في حياة أبيه، فكيف يكون تعلقها به بعد وفاته؟!، أما ابنتاها فرغم أنها تحبهما ولا تبخل عليهما بشيء من عاطفتها، إلا أنها لا تتعلق بهما تعلقها بخالد، فهي تحسب كل لحظة في غياب ولدها عنها، ورغم أن ابنتها حصة التي تكبر خالد بسنتين تحاول دائماً إثارة انتباه أمها وافتعال المشاكل مع أخيها لغيرتها منه ضمناً، إلا أن أم خالد لا تستطيع إلا أن تتحيز لولدها خالد في النهاية.

أما هنود، وهي أصغر من أخيها، فهي رقيقة جداً، بالكاد يسمع صوتها في البيت، تفضل دائماً الاعتزال في الحجرة مع ألعابها الطفولية، وبينما تأخذها الأفكار تنتبه لولدها خالد وقد اقترب من الحطب المشتعل والدخان، فتصرخ عليه لكي يبتعد، فيقترب منها ويجلس بجوارها، بينما هي تحاول إكمال الغسيل، إلا أنها تحس بألم في رأسها يعاودها كالبارحة، فتأخذ رباطاً من القماش تعصب به رأسها، وترى حصة ابنتها أن خالداً يجلس بجوار أمه فتقترب هي أيضاً لتجلس إلى جانبه، وتدرك الأم أن مجيئها ستكون خاتمته مشكلة بينهما، فتشغلها بترتيب الحجرة، وعندما ترد عليها

بأنّ الحجرة مرتبة تأمرها بالابتعاد والجلوس مع أختها هنود، تذهب حصة منطوية على نفسها وتهز الأم رأسها كمن أحس بالندم، لكنها لا تستطيع شيئاً الآن، ويقطع عليها صوت خالد ما هي فيه:

- يُمه، صج أبوي سافر وايد في البحر..؟

رغم حساسيتها عندما يذكر اسم زوجها أبي خالد أمامها، لكنها لا تستطيع إلا أن تكتم حرقتها أمام خالد، فتتوقف عن الغسيل وقد احمرت عيناها:

- إيه يمك..

وقبل أن يبادر خالد بالسؤال الثاني كعادته تقطع عليه استرساله:

- مرة ثانية لين جبت طاري اسم أبوك قول الله يرحمه، شتقول؟

يكرر خالد أمامها بإذعان ما تنتظره منه أمه:

- الله يرحمه..!

تعتدل الأم في جلستها وهي تسرح بعيداً:

- أبوك الله يرحمه سافر وايد، ما خلا مكان.

وبمبالغة وتهويل عن البعد تكمل الأم:

- يقولون وصل زنجبار والهند.

وباستغراب يعاود السؤال وقد حركت شوقه:

- زنجبار والهند، وين ذي البلاد؟!

- ما ادري عنها يمك، بكره لين عمك تعافى اسأله عنها وهو يعلمك.

ويصل خالد إلى السؤال الأهم الذي ما زال غامضاً بالنسبة إليه:

- صج يمه، منهو كان أشطر في البحر عمي ولا أبوي الله يرحمه..؟

تنهره أمه حتى تبعده عن هذه المقارنة، فليس هذا السؤال من شأنه:

- اشتبي بهالسالفة؟ تحمّل تطريها مرة ثانية! وغير جذي ما أبيك تييب طاري البحر جدامي مرة ثانية، فاهم..!

لا يجرؤ خالد على معارضتها، بل يستسلم لما تأمره به حتى لا تغضب، وينسحب من عندها ليعاود اللعب في الحوش، بينما هي ترجع لإكمال الغسيل الباقي، يتطاير بعض الرذاذ فتمسحه عن جبينها بذراعها، هل كانت تعني ما قالته لولدها عن البحر حقاً؟! أم أنه كان مجرد انفعال عابر؟! ذلك ما كانت أم خالد تعرف جوابه حقاً في داخلها الذي بات يحقد على البحر، لذلك ستمنع ولدها خالداً من التعلق به ما دام يتعلق بها، إن ذلك هو انتقامها الوحيد من البحر الذي سرق منها زوجها للأبد، ولكن هل تستطيع ذلك؟! تتوقف للحظة عن الغسيل، ثم كمن قررت أمراً ترجع ثانية للغسيل، تفركه بقوة!.

تأتي فاطمة وقد بدا عليها التعب، تجلس إلى جانبها، تحاول مساعدتها في الغسيل:

- ما عليه يا فاطمة، أكاني خلصت الغسيل، ما باقي غير هالثوب.

وتنظر أم خالد إلى وجه فاطمة وقد أثر فيه الدخان من الحطب الرطب، فتمسح على شعرها بإشفاق صادق:

- اللّه يقدرني يا فاطمة واعوضج تعبج معاي.

ويبدو على فاطمة الإنكار لما تسمع:

- لا تقولين جذيه يا أم خالد، أنا عيوني لج.

- أقول يا فاطمة، يمكن أم جاسم محتاجه لج في شيّ ولا شيّ، اهيه بعد بروحها، يمكن مستحية تقول لج.

– أنا بامر عليها لين طبخت الغدا.

– ما عليه يا فاطمة، أنا عنج اهنيه، وانتي روحي عندها الحين وارجعي «زتات»[١].

– زين يا عمتي.

– قولي لها إني شرهانة[٢] عليها وايد.

– إن شاء الله..

– أقول فاطمة، شعندنا من الخرفان؟

– ست خرفان يا عمتي، وأمس يابوا لنا خروفين.

– من طرشهم؟

– ما ادري، صبي كان يقودهم ودخلهم البيت، ويابوا لنا بعد كيسين عيش وكيس حب ودهن، الميره خير وايد يا عمتي.

– الله يرحمك يا بو خالد، صارت الناس تطرش حق بيتك الميره من كل مكان.

– يا عمتي أبو خالد الله يرحمه راعي معروف، والناس تقوم بالواجب، وهذي عادة الأجداد.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

تترك فاطمة أم خالد لتذهب إلى بيت المطوع، يلحقها خالد، فتعده بأنها راجعة على الغداء لتجلس معه وتحكي له القصص له ولأختيه، وتوصيه بألا يزعج أمه بشيطنته وإلا زعل منه المرحوم أبو خالد، يتركها وقد أثرت فيه، كانت فاطمة قريبة من قلب الصبي خالد ولا يخالف لها كلمة.

---

(١) زتات: بسرعة.

(٢) شرهانة: عاتبة.

أما أم خالد فقد سرحت بعيداً، إلى تلك الأيام الخوالي التي كان فيها زوجها يبعث بالسر الأموال والحلال للناس الذين ألّمت بهم المصائب، وها هي الآن وقد دار الزمان دورته يرسل لها الناس الذين يعرفون أبا خالد بالمؤونة التي زادت عن حاجتها، ورغم أنها تعرف أن ذلك واجباً متبعاً في الديرة، ويبدو على كل الناس، إلا أنها كانت تشعر بجرح عميق يستفز كبرياءها الذي قُدر أن يطويه الحزن ويلفه السواد.

لم يصدق المطوع ما سمع عن أن ولده جاسم يريد أن يترك البحر، فقد أعجزه هذا الولد، لأنه لا يستقر في مهنة حتى يتركها لأخرى، أحرجه وسوّد وجهه مرات كثيرة أمام الناس، من أين يسدد الآن سلفة البانوش؟ ورأسمال البضاعة التي كان يريد المتاجرة بها إذا لم يعمل جاسم، حاولت امرأته تهدئته دون جدوى، أما جاسم الذي كان يتوقع غضب والده الشديد فخرج من البيت قبل وصول أبيه حتى لا يضطر إلى مواجهته، بل كالعادة، أمه هي التي تتلقى الصدمة بدلاً عنه.

كان المطوع غاضباً وحزيناً في الوقت نفسه لأنه صدم بهذا الولد الكسول الذي لا يقدر مسؤولية ولا يتحملها، كيف سيعيش من بعده إذا كان على هذه الحال، كيف سينظر الناس إليه، هل سيصدقون أنه ولد المطوع، ذلك الرجل الذي يحتاج الناس جميعاً إلى نصيحته ويقدرونها، غير أن ابنه يتهرب منها، يا سبحان الله كيف تكون المفارقات، أولاد أبي حسين صلاح ومحمد يوسطون الناس كي يقنعوا أباهم الذي يبخل عليهم برأسمال بسيط يستطيعون أن يبدأوا حياتهم به ويستقلون عن الحاجة، والحقيقة لم يصدق صلاح ومحمد نفسيهما عندما سمعا أن جاسم سيترك العمل على البانوش، وخافا على هذه الفرصة أن تضيع من بين أيديهما إذا تهرب والدهم أبو حسين من مساعدتهما في ذلك، لكن أبا حسين لم يكن متحمساً أبداً لمشروعهما، خصوصاً عندما علم أن ذلك سيكلفه أن يعطيهم بعض المال لمساعدتهما، فتهرب من الأمر تماماً، مدعياً كعادته أنه لا يملك مالاً وعليهما أن يدبرا نفسيهما، أما الصغير محمد فقد انطوى على نفسه دون أن يعارض أباه، لكن صلاحاً كعادته لا يكتم مشاعره

داخل قلبه لعصبيته، ولم يكن أبو حسين محتاجاً إلى أكثر من ذلك حتى ينفجر غاضباً بوجه ولده صلاح الذي لا يطيقه وينعته دائماً بأنه «طالع لأمه»، والواقع أن أبا حسين كان مشحوناً بطبيعته على صلاح من قبل زوجته، لأنه لا يحترمها ويحرض إخوته عليها، وعندما حاول صلاح أن يدافع عن نفسه أمام أبيه بمنطق الحجة، عد ذلك أبو حسين وقاحة ومحاولة منه لمحاسبته، فزاد غضبه واشتعل أكثر ولم يدر عن نفسه إلا وقد خلع عقاله وأخذ يضرب صلاحاً ومحمداً، وعندما اندفعت سلمى باكيةً لتقف مع أخويها، لم يتركها أبو حسين وضربها.

في هذه الأثناء كانت فاطمة تعبر أمام بيت أبي حسين، فسمعت الصراخ ينبعث من البيت، وعرفت أن أبا حسين كعادته يضرب أولاده، ورأت خميساً عاجزاً لا يستطيع أن يتدخل خوفاً من غضب أبي حسين، وأشار لها أن تسرع لإخبار المطوع، لأنه ما من أحد غيره يجرؤ على التدخل وإيقاف أبي حسين عند حدّه، لم يتمهل المطوع عندما سمع الخبر من فاطمة، بل خرج مسرعاً يقصد بيت أبي حسين، فهو يعرف أنه لا تأخذه شفقةً في ضرب أولاده عندما يكون في سورة غضبه، وعندما وصل المطوع وجد خميساً ينتظره ليدخل معه.

كان أبو حسين ينهال بالضرب على صلاح بعقاله، بينما محمد الصغير يقف في ركن الحجرة يبكي بحرقة وعلامات العقال واضحة على جسمه، ولم يستطع أبو حسين الاستمرار في ضربهما بعد دخول المطوع، فقد أمسكه من ذراعه بقوة وهو يقول له:

- حرام عليك ذبحت العيال، ما فيك رحمة، صلي على النبي واذكر اللّه..!

ويمسك خميس محمداً، يمسح على رأسه مهدئاً، بينما صلاح لا ينبس ببنت شفه، لكن وجهه يكاد ينفجر من الألم.

يقف أبو حسين متعباً، تاركاً العقال يسقط إلى الأرض، يبعده المطوع عن الحجرة

ليخرجا إلى الحوش، ويلتفت له المطوع بأسف:

- وش علشانه؟! ما تشوفهم صاروا شباب، أنت مواعدني أكثر من مرة ما تضربهم يا بو حسين.

- يبون يحاسبوني، ويناحسون[1] خالتهم، أنا صبرت عليهم، لكن خلاص ما بقي عندي صبر.

- صل على النبي واذكر الله، صل على النبي.

- اللهم صلي على محمد وآل محمد، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم كمن يحاول تبرير الموقف، رغم أنه يعرف ضمناً أنه لن يقنع أحداً، فهذه ليست المرة الأولى التي يسوق فيها مثل هذه التبريرات:

- يبون يشتغلون أنا ما عندي مانع، لكن ما عندي فلوس أساعدهم، من وين لي الفلوس يا مطوع..؟

يحاول المطوع تهدئته، إلا أن أبا حسين يزفر الهواء بضيق:

- كله من الخبيث صلاح، اهوه السبب، امنغّص علي عيشتي..!

ويهز المطوع رأسه أسفاً:

- عاد تضربهم هالضرب يا بو حسين، ذولا ما لك غنى عنهم.

- ما لهم عندي شي.

- شهالكلام، انت ريال عاقل، أولادك لهم حق عليك ما دام أنت قادر تساعدهم.

- من وين يا مطوع من وين!!؟

---

(١) يناحسون: يعاندون.

كان المطوع يعلم طبع أبي حسين الذي يبدأ بالإنكار التام وافتعال الغضب، لكنه لا يلبث أن يتراخى ويستسلم عندما يشتد الضغط عليه، ويسأله المطوع:

- شنهو الشغل اللي يبونك تساعدهم عليه..؟

- يقولون إن ولدك جاسم هوّن عن الشغل على البانوش، ويبون يشتغلون عليه.

وتلتمع عينا المطوع، فقد جاءه من ينقذه من ورطة البانوش:

- يا ليت يا بو حسين.

ويستدرك أبو حسين ليقطع على المطوع الطريق:

- أنا من الحين باقول لك يا مطوع، أنا ما عندي شيء أعطيهم.

لكن المطوع يحسم الأمر:

- تعطيهم وغصب عليك بعد، وأنا ضامن لهم، كلها سفرة والا سفرتين وبيردون لك فلوسك.

ويبدو على أبي حسين الاستسلام للأمر الواقع، فينادي المطوع صلاحاً ومحمداً ويخبرهما أن البانوش تحت تصرفهما ليعملا عليه، وقد جاءت هذه الكلمات بلسماً يشفي جراحهما، ويذهب خميس معهما ليتفقدوا المركب ويساعدهما في إصلاحه وتجهيزه بعد أن اتفق معهما المطوع على أن يكون المربح مناصفة بينه وبينهم، ويهز رأسه المطوع وهو يرى فرحتهما:

- يا سبحان الله، ناس تدور الشغل لو بالضرب والمهانة، وناس يتوفر لها الشغل وتشرد عنه.

جلس أبو حسين ينفخ الهواء، لقد كان راضياً عن مشروع المطوع، لكنه كالعادة لا يقدم على أمر جديد إلا بعد أن يحاصر تماماً ولا يبقى له منفذ للتمسك بحرصه، إنه ليس بخيلاً عندما يثق تماماً أن هناك فائدة تلوح لعينيه بشكل واضح، لكن قسوته

مع أولاده ولا مبالاته بمشاعرهم كانت طابعاً مميزاً في شخصيته، ويلحظ المطوع، بعد فترة هدأ فيها أبو حسين، أنه يعاني شيئاً لا يستطيع البوح به، شيئاً مؤلماً، وعندما حاول المطوع الاستفسار غمغم بطريقة غامضة، ثم نهض متحججاً بالذهاب إلى الدكان، فتركه المطوع لحاله.

كان أبو حسين يعاني الندم لأنه قسا بالضرب على ولده محمد رغم أنه يحبه، إنه ينسى نفسه حين يبدأ بالضرب ولا يستطيع التمييز، لقد فعلها أكثر من مرة، وكان ولده محمد هو الضحية التي ينصب عليها غضب أبيه، إنه يرى فيه صورة أخرى منه، هل ينتقم من نفسه دون أن يدري؟، قطعاً سيحاول استرضاءه بعد فترة، كما يفعل عادة، لكن هل سيفهم ولده معنى ذلك؟، إنه يجد صعوبة كبيرة، بل استحالة، في الإفضاء لولده بمكنون مشاعره، لا، هذا لا يجوز، أين أنا؟!، لم يستطع أن يبقى في الدكان فدخل البيت وافتعل مشكلة مع زوجته الجديدة وضربها، وأحس بعدها بارتياح أكثر، فقد أطفأ بعضاً من «حرته»[1].

بدأ أبو محمد يتعافى من جرحه بعد أن ألزمه الفراش خمسة عشر يوماً، أصبح قادراً على الكلام، لكن ارتعاشاً خفيفاً يفاجئ شفتيه في بعض المرات يضطره إلى السكوت حتى لا يؤخذ عنه أنه صاحب عاهة، لقد وصله العزاء متأخراً بأخيه الكبير أبي خالد وبحارته وخسارته المادية، كل شيء تبخّر بسرعة، لكن الخسارة المادية يمكن تعويضها، فالعادة أن يساعد التجار والنواخذة بعضهم بعضاً، وأبو محمد متعود على قساوة العيش وترفه، لا يهمه أن يبدأ من الصفر، لم يكن هذا ما يهمه عندما خلا بنفسه وراح يبكي بحرقة تعبيراً عن ندم عميق في وجدانه لا يستطيع أن يكاشف به أحداً حتى لا يلومه الناس، عندما حاولت زوجته أن تداريه طردها من حجرته، فهو لم يكن في يوم من الأيام يطيق أن تشاركه زوجته في شيء.

---

(١) حرته: غضبه.

كان لديه إحساس عميق بمسؤوليته عن الكارثة التي حلّت بسفينته، ألم يتمسك بمكابرته وعناده أمام تحذير البحارة؟، كانت لديه فرصة كافية للجوء إلى بر قريب لو أنه لم يرفض ذلك التحذير، لقد طر حمد ووبخه لأنه حاول أن يلفت نظره إلى الجو المتغير، لماذا لم يسمع ذلك التحذير؟!، هل كان رجلاً طماعاً جشعاً يريد استنزاف المغاص إلى آخر يوم في الموسم، لا، فكل الناس تعلم أن أبا محمد ليس من طبعه الطمع، هل كان يريد أن يثبت للآخرين أنه رجل جسور لا يخاف البحر؟، ربما كان ذلك من طبعه، ربما كان اعتقاده بأن النوخذة يجب أن لا يختلط بالبحارة وأن لا يشاورهم فيما يتخذ من قرارات حتى تجيء القرارات حاسمة، وقد كان في شخصية أبي محمد ما يساعد على ذلك تماماً.

أرسل أبو محمد في طلب ابن أخيه خالد ليراه ويكون بجانبه، وعندما وصل خالد المتهيب من عمه ضمه أبو محمد إليه بقوة وأبقاه إلى جانبه، بين الحين والآخر يلتفت إليه ويربت على كتفه، بينما خالد الطفل يتمنى في داخله لحظة الخلاص من هذا الموقف، فأبو محمد يخشاه الأطفال في الفريج ولا يجرؤون على التجمع حوله لأنه ضجر وعصبي ويصرخ كثيراً، رغم أنه في الواقع يحن في داخله إلى طفل يحمل اسمه، فزوجته لا تنجب غير البنات، وهذا ما جعله لا يطيق زوجته ويعتقد أنها بلهاء ساذجة، وهو في الواقع منذ زمن طويل يقدر شخصية أم خالد، فقد كان يراها نموذجاً للمرأة التي يتمنى أن تشاركه حياته، لكنه من ناحية أخرى لا يطيق الصبر على زوجة قوية الشخصية ذات كبرياء، لأنه سيصطدم معها حتى وإن كان يحبها.

ذهب خالد ليلعب مع الأطفال تحت السدرة بعد أن وعد عمه أن يأتي كل يوم لزيارته والجلوس بجانبه رغم استغرابه ذلك، وبعقلية طفل بريء راح يخبر أصدقاءه الأطفال أن عمه تغيّر كثيراً من صوبه بعد أن جرح في رأسه، كان في الماضي يؤنبه دائماً إذا رآه يلعب، ويطرده من السكة ويقطع عليه صحبته للأطفال الآخرين، ومرة حاول خالد أن يعاند عمه، فكان أن فرك أذنه وضربه على قفاه، وعندما حاول أن

يشتكي لأبيه، غضب ونهره لأنه تجرأ على معاندة عمه، غير أن أمه يومها احتضنته وظلت مقهورة طوال ذلك النهار.

كان يحلو لخالد كثيراً أن يرافق خميساً إلى السيف كي يراه يعمل في نجارة السفن وإصلاحها، كان يحب خميساً لأنه لا يبخل عليه أبداً بالجواب عن أسئلته التي لا تنتهي عن البحر وأقسام السفينة، كان الشوق يبلغ مداه لدى خالد عندما يروي له خميس عن أسفار والده أبي خالد الذي كان خميس يرافقه دائماً.

تغير الناس كثيراً بعد وفاة أبي، هذا ما كان يردده في نفسه، لاحظ أن المطوع لا يشتكي لأمه عند تقصيره بالدروس كعادته، وأبو حسين يعطيه حلاوة من الدكان دون صحبته من الأطفال، وهذا عمه أبو محمد يضمه إلى صدره ويحس بأنفاسه المحترقة عند عنقه ويؤكد عليه أن يراه كل يوم، عندما ذهب إلى أمه ليسألها عن ذلك كله، احترقت عيناها بالدموع، ضمته إلى صدرها وهي تبكي كما لم تبكِ من قبل.

• • •

هذا الصباح سافر صلاح ومحمد أولاد أبي حسين على المركب الذي أعطاهما إياه المطوع، بعد تجهيزه أعطاهما أبو حسين مرغماً الفلوس التي وعدهما بها أمام المطوع، لم ينسَ أن يوصيهما بجلب الأغراض التي يحتاج إليها للدكان من عيش وسكر ودهن وما إلى ذلك، خصوصاً التمر الحساوي المشهور في الديرة، ودعهما المطوع عند السيف، بينما تهرب أبو حسين، أما سلمى فقد كانت تبكي لأنها ستبقى وحدها في البيت أمام خالتها.

جاء المسافرون إلى الشواطئ القريبة بأغراضهم ودوابهم ليحملوها على المركب، بعضهم أوصى صلاحاً بجلب ما يحتاج إليه من أغراض، كان صلاح لا تنقصه الخبرة في البحر، عمل عدة سنوات على المراكب بمهن مختلفة، وخبر جميع الأماكن في الخليج وكيف يهتدي إلى وجهته، أما أخوه محمد فلم يكن بهذا المستوى، لأنه لم يسافر كثيراً،

لكنه يستطيع مساعدة أخيه دون كلل لما في طبيعته من صبر وجلد وعدم يأس، ولمزيد من الثقة أخذ صلاح معه أحد البحارة القدماء ليهتدي برأيه في تجربته الأولى كقائد مركب، عموماً كانت الأخطار محدودة بالنسبة إلى هذه المراكب، لأنها كانت تسافر دوماً قريباً من الشطآن ولا تبقى كثيراً في المياه العميقة.

عاتب المطوع أبا حسين لأنه لم يخرج لوداع ابنيه، فقد كانا بأمس الحاجة لكي يقف معهما ويبارك رحلتهما، لكن أبا حسين لم يكن من ذلك النوع الذي يظهر عاطفته أمام أولاده، بل كانت اللامبالاة التي يعيشها تخفي كثيراً من العواطف المكبوتة التي لم يتعود إظهارها، غمغم أبو حسين متضايقاً من العتاب، فهز رأسه المطوع ومشى عنه كمن يقول: لا فائدة.

• • •

منذ فترة لاحظت فاطمة أمراً غريباً على جاسم، مما جعلها تتوجس خيفة منه، بالأمس بينما كانت تكنس الحوش انتبهت لجاسم يتابعها بنظرات شرهة وهو يزدرد لقيمات الريوق التي بدت كأنها تقف في حلقه، واليوم حاول أن يمس يدها بطريقة مفتعلة كأنما يستغفلها أو يعدها ساذجة، لكن لماذا يفعل ذلك..؟ لم تكن هذه عادته، كان دائماً منطوياً على نفسه، مشغولاً مع أصحابه، لا يرجع إلى البيت حتى ينام الجميع، لم تعد فاطمة مطمئنة إليه، أمر ما في عينيه الشبقتين يفزعها، هل يظن أنها قصيرة ضلع ليس لها ظهر يحميها فسولت له نفسه أن يتطاول عليها؟.

كانت تحدث نفسها بحزن، إنها تخشى أن تكلم أم جاسم في الأمر، لعلها لا تصدقها، فهو ابنها على كل حال، وهي تداريه وتدلله دائماً، لكنها والحق يقال لا يهون عليها أبداً أن يحدث لها مكروه، ربما يراجع جاسم نفسه وينتهي الموضوع بطبيعته، لا داعي لإثارة المشاكل، لم تدر بأم جاسم وهي تقترب منها، جفلت فاطمة لمجرد شعورها أن شخصاً يقترب منها:

- شفيج يا فاطمة، اسم الله عليج..

- لا بس تخرعت[1]، تبغين شيء عمتي؟.

- بغيتج تروحين حوطة الدبش وتحلبين البقرة، من يومين ما حلبناها وأخاف تمرض إذا تأخرنا عليها.

- إن شاء الله عمتي.

تأخذ فاطمة ماعون الحليب، تذهب إلى الخرابة، بينما يشيعها جاسم دون أن تدري بنظرة ذات مغزى، يحاول أن يخفي اضطرابه قبل أن تلحظه أمه التي ذهبت وهي تفرك عينيها لإشعال الحطب في الموقد لتحضير الغداء.

الخرابة عبارة عن حوش تهدم بعض أطراف سوره الترابي لقلة العناية، وحجرة سقفها ينقصه بعض الأخشاب، كان خميس يأتي إليها في الليل لينام فيها، هناك في طرف الحوش على يمين الحجرة عريش من سعف النخيل وزريبة للبقر، بينما يمرح في الحوش زوج من الماعز وبعض الخراف، لم تلحظ أم جاسم ولدها وهو ينسل خارجاً من البيت، إن الخرابة هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه مراودة فاطمة عن نفسها دون أن يدري أحد، إن لها جسماً جميلاً لولا عرجها، لا أحد يهتم بها في الديرة، لا بد أنها تطمع بمن يهتم بها، سأعطيها فلوساً، لكن ماذا لو فضحتني..؟ لا، إنها لن تفعل ذلك، لقد سكتت عندما لامستها، لا بد أنها راضية، لماذا أبحث في البعيد وعندي هنا هذا الصيد الثمين؟، لن أخبر «الربع» عنها، بدأت تلك الأفكار المضطربة تراود جاسم في طريقه للخرابة، فجأة انتبه إلى اقتراب خميس منه بابتسامته الساذجة، من أين طلع هذا الجني الآن..؟ كان جاسم يمقت خميساً ويراه ثقيلاً عليه، كثيراً ما حاول ضربه بالرغم من تحذير أبيه، ببساطة يسأله خميس وهو يقترب منه:

- وين رايح.

---

(١) تخرعت: من الخوف والرعب.

- وأنت شيخصك؟، مالت عليك وعلى أهلك.

- ليش معصب عليّ؟.

- أقول لك انجلع ولّا باسطرك.

يتحاشاه خميس الطيب الوديع وهو لا يعرف سر هذه العصبية في جاسم، بينما يبتعد جاسم عن ناحية الخرابة حتى لا يثير انتباهه إلى مقصده، حين ابتعد خميس ناحية الجليب راح جاسم يلف حول المكان لفترة قبل أن يدلف إلى الخرابة.

لم يكفِ الماء للطبخ، فأخذت أم جاسم الماعون وخرجت من البيت لعلها تجد خميساً عند الجليب كعادته كي يجلب لها دلوين من الماء، حين رآها راح يغمغم متشكياً كعادته، فهزت رأسها مبتسمة، بينما خميس يرفع إليها عينين يائستين:

- خميس، هات لنا دلوين ماي.

وينهض خميس ليواجه أم جاسم، وبسخرية يعلن مشكلته:

- خميس هات ماي، خميس ودي ماي، ذي شاطرين فيها.

تضحك أم جاسم:

- أوه أوه خميس، مستحمق اليوم.

- ايه مستحمق.

وكمن تعامل طفلاً:

- شتبغينا نسوي علشان نرضيك؟.

وعندما يسمع هذه الكلمات ينقلب حاله إلى رجاء وتوسل:

- واللي يخلِّيج يا أم جاسم، ما في غير شغله وحدة ترضيني وأنتي اللي تقدرين تساعديني فيها.

تنفخ الهواء من صدرها كمن سمعت هذا الرجاء أكثر من مرة:

– أنا سبق وقلت لك يا خميس إن الشغلة كلها في يد عمك المطوع.

يضرب يديه على جنبيه من الضجر، بينما تضحك أم جاسم:

– انتي تقولين لي عند المطوع، والمطوع يقول عندج، وفاطمة تقول عندكم، أنا أبي أقط روحي في هالجليب وأفتك منكم كلكم.

تضحك له بإشفاق:

– زين زين، هات لنا دلوين ماي وعقب يستوي خير.

ثم كمن تذكر أمراً آخر، يترك الحبل ويلتفت لأم جاسم:

– أقول أم جاسم، خلج تدرين، ترى ولدج جاسم عصب علي وبغى يطقني.

– جاسم ما له حق، متى هالكلام؟!

– قبل شوي، جفته يم الخرابة، ولين بغيت أكلمه اغتاظ علي.

وقد فوجئت:

– تقول عند الخرابة؟.

– شفته محتاس[١]، قلت أكلّمه يمكن يبي شيّ ولا شي.

عندما سمعت أم جاسم أن ولدها عند الخرابة أحست بشيء أفزعها، فاطمة هناك لوحدها، فما الذي يفعله جاسم في تلك الناحية؟، إنه لا يذهب هناك عادة، وقبل أن تتصل هواجسها صرفت خميساً وأوصته بأن يوصل الماء إلى البيت بعد أن وعدته بأنها ستسترد حقه من جاسم، أخذ خميس دلوي الماء إلى بيت المطوع، بينما اتجهت أم جاسم دون أن يدري بها أحد إلى الخرابة.

---

(١) محتاس: محتار.

هناك كانت فاطمة تجلس على حجر بجانب البقرة بعد أن وضعت الماعون تحت أثدائها، راحت تحلبها، بينما استسلمت البقرة لأكفها كأنها ترتاح من كابوس ثقيل، لم تشعر فاطمة بجاسم وهو يتسلل إلى الخرابة، فقد كانت تدير ظهرها لجهة المدخل، غير أنها انتبهت مذعورة لشخص يحاول تطويقها بذراعيه من الخلف، بينما جفلت البقرة قالبة الماعون، عندما استطاعت التخلص من أنفاسه المحمومة استندت إلى حائط قريب وهي تضع يدها جهة قلبها من أثر المفاجأة، بينما وقف جاسم لهنيهة يستجمع أنفاسه هو الآخر وينتظر رد فعلها، وبصوت باكٍ محروق لا يخلو من عتاب عميق تصرخ في وجهه فاطمة:

- جاسم، ليش سويت جذيه، أنا حسبة أختك، ليش سويت جذيه؟.

لكن جاسم كان في وادٍ آخر، فاقترب منها ثانية:

- أرجوج يا فاطمة، أنا باعطيج فلوس..!

ومدّ يده إلى جيبه ليعطيها النقود، لكن فاطمة صرخت به:

- انجلع ياللي ما تستحي، يلله ولّ انت وفلوسك معاك.

لكنه لم يأبه لها، حاول الإمساك بها، بينما هي احتمت بالبقرة وصارت تخاتله، لأن قدمها العرجاء لا تساعدها على الجري، صرخت:

- إذا ما تيوز بانادي على عمتي أم جاسم..!

وبلهجة الواثق:

- ناديتي ولّا صارختي محّد يسمعج، فاهمة؟، فاطمة تعالي، واللّه العظيم ما أعلم أحد بالسر اللي بيننا، تعالي أرجوج.

كان كل ذلك يستفز كبرياءها المجروح والمخزون في أعماقها، فصرخت به:

- جب يا الملعون، أعوذ باللّه منك.

لم يعد جاسم يتمالك أعصابه فانفجر ساخطاً عليها:

- عريه وبعد تتدللين، أخذي.

وانهال عليها ضرباً بلا رحمة بعد أن أمسك بها من شعرها، بينما راحت تصرخ بأعلى صوتها، وهو يحاول أن يبعد ذراعه عن أسنانها، ويحاول إغلاق فمها، ولم يدرِ جاسم إلا وأمه داخلة بسرعة بعد أن سمعت الصراخ، انتبه مذعوراً لصوت أمه الحاسم..

- جاسم شتسوي؟ انت شتسوي يا الملعون..؟!

أفلت جاسم فاطمة التي جلست متهالكة تضرب على رأسها باكية بحرقة وتلطم وجهها، بينما جاسم يحاول إبعاد أمه عنه بصوت مرتجف:

- ما سويت شيّ والله العظيم، أنا كان قصدي.. يما شتمتني.

صفعته أمه على وجهه مما أخرس لسانه تماماً:

- انجلع أقول لك، انجلع، اليوم باراويك صنع الله مع أبوك.

لم يصدق نفسه جاسم، فانسحب ممتثلاً بخنوع:

- إن شاء الله، إن شاء الله.

أخذت أم جاسم فاطمة بذراعيها، احتضنتها برفق وحنو وهي تتألم لحالها:

- ما عليه يا فاطمة، حقج عليّ، أنا باراويه، بل، بل، أعوذ بالله منك يا إبليس.

راحت فاطمة تبكي بحرقة بعد أن أسندت رأسها على صدر أم جاسم:

- عبّاله إذا كنت عريه باكون رخيصة وما يحق لي أرفع راسي..

وبتفهم صادق لحالها راحت تهز أم جاسم رأسها بتصبر بينما كانت تربت على رأس فاطمة:

- لا يمّج، منهو يقول جذي؟، احنا نعرفج كلنا إنج من أشرف البنات، حقج عليّ، أنا باراويه، قومي معاي يا فاطمة نروح البيت..

وقبل أن تنهض استوقفتها أم جاسم وقد تذكرت أمراً:

- إلا طمنيني عنج، صار شي غلط.

فهمت فاطمة ما تعنيه أم جاسم فهزت رأسها بالنفي، مما أراح عيني أم جاسم القلقة:

- تعالي يمج نروح البيت، وإذا أحد سألج ليش ويهج جذيه قولي إن البقرة جفلت وانتي تحلبينها وصابتج، ما نبغي الناس تسمع في هالسالفة.

- إن شاء الله عمتي.

ذهبت أم جاسم مع فاطمة إلى البيت، في الطريق التقاهما خميس الذي لم يصدق عينيه وهو يرى وجه فاطمة مزرقاً عند وجنتها اليمنى، وقبل أن يتكلم بادرته أم جاسم بقولها إن البقرة أصابتها بعد أن جفلت، وأمرته أن يذهب إلى الخرابة لترتيب المكان وربط البقرة وإيواء الغنم التي ذعرت بعد مطاردة جاسم لفاطمة، كان خميس يسمع أم جاسم، لكن قلبه كان متعلقاً بما أصاب فاطمة التي كانت تبكي وهي تضع يدها على وجهها، وبغضب عفوي راح خميس إلى الخرابة ليمسك عصا وينهال ضرباً على البقرة..

• • •

لم يترك خالد مكاناً في البيت إلا وبحث فيه ذلك اليوم عن الصرّة التي وضع فيها عدة «الحداق»[1] وأفخاخ الصيد، المشكلة أنه لا يجرؤ أن يسأل أمه عنها لأنها سبق ونبهته مرات كثيرة إلى أن يترك هذه العادة، إنها لا تريده أن يتربى على حب البحر الذي تمقته، تحقد عليه، يكفيها ما فقدت، تذكر خالد في دوامة بحثه أن أمه حفرت حفرة صغيرة في مكان ما وراء الحجرة الشمالية، لا بد أنها دفنت صرتي هناك، أخذ حديدة صغيرة تساعده على الحفر وذهب يبحث عن ضالته، وبينما هو كذلك كانت عينا أمه تراقبانه من نافذة حجرتها دون أن يدري بها، إن عينيها لا

(١) عدة الحداق: أدوات بسيطة لصيد السمك.

تكادان تفلتانه من أسرهما في ليل أو نهار، لكن هذا الصبي لا يقدر حرصها عليه، دائماً يشكو خوفها الذي تطارده به، لم تكتمل سعادة خالد عندما استطاع أخيراً أن ينبش الصرة، فقد وجد أمه واقفة فوق رأسه، مما جعله يتركها بخيبة أمل واضحة، برزت حصة أخت خالد التي تترصد الفرص كي تجد أخاها معاقباً من أمها، لكن هناءتها لم تكتمل، إذ نهرتها أمها وأبعدتها عن المكان لتذهب مكسورة إلى الحجرة، بينما خالد يتوعدها في داخله، اقتربت منه أمه مقطبة الوجه، بينما أطرق هو وحنى رأسه إلى الأرض، وبصوت مليء بالعتاب:

- يمه خالد، أنت تبيني أزعل عليك؟.

وبنكران طفولي يجيبها خالد:

- لا يمه، ما أبي أزعلج.

- عيل ليش ما تسمع كلامي؟.

- أنا يمه؟!.

- اي، لأنك تخالف كلامي اللي أقوله لك، أنا كم مرة منبهة عليك إنك ما تروح البحر ولا تحدق؟.

- يمه كل ربعي يروحون البحر ويحدقون، ليش أنا لا؟!

تجد الأم صعوبة بالغة في إفهامه خوفها وخشيتها عليه من البحر:

- يمك بعدين تعرف، المهم ما ابيك تروح البحر وخلاص، وإذا كنت تحبني لازم تطيعني وبس، ولا تريدني أزعل عليك؟.

كانت تعرف تعلق خالد بها، لذلك حاصرته بكلامها تماماً، لم تترك لرغبته العفوية في الذهاب إلى البحر الذي يحبه خالد إلا أن تذهب عميقاً في وجدانه، حاول أن يجد منفذاً يوفق فيه بين رغبته وتعلقه بها إلا أنه فشل، وبخيبة واضحة:

- لا يمه، ما ابيج تزعلين عليّ.

كانت تلك هي الكلمات التي تنتظرها الأم:

- عيل خل عنك أغراض الحداق ذي ولا تسأل عنها مرة ثانية، فاهم؟.

- إن شاء الله يمه..

ينصرف خالد بعد أن وصته ألا يبتعد عن البيت كثيراً، قال لها إنه سوف يجلس مع خميس، لم تمانع في ذلك، أحزنه أن يرى نفسه وحيداً إلا من رغباته التي يحسها مجروحة دون أن يدري، لماذا كل ذلك؟ ربما لو عرفت أمه أن خميساً هو البديل الآخر لرغبة البحر عند خالد بحكاياته عن أسفاره مع أبيه لمنعته من رؤيته.

انتهبت الأم إلى صوت الباب، حاولت حصة أن تفتحه لكن أمها منعتها، ثم عرفت أن الطارق هي أم جاسم، ففتحت الباب واستقبلتها بالعناق:

- تفضلي يا أم جاسم، حي الله من يانا.

- تسلمين يا أم خالد، توني شايفة خالد برع، لكن ايبين ما هب عادي، ما ادري شبلاه؟!

- كان يبي يروح البحر يحدق مع ربعه، بس أنا منعته.

- ليش يا أم خالد؟، الجو وايد زين.

- لا يا أم جاسم، ما أبي خالد يحب البحر ويتعلق فيه.

- احنا من استوينا عايشين على البحر يا أم خالد.

- الله لا يحدنا[1] عليه، الدنيا واسعة والبر أسلم يا أم جاسم.

- مسكين، لا تكونين قاسية عليه هالشكل يا أم خالد واللي يخليج.

---

(١) يحدنا: يجبرنا ويضطرنا.

- آخ يا أم جاسم، واللي يخليج ما أحب اسمع طاريه.

شعرت أم جاسم أن عليها أن تختصر هذا الحديث، فهي تعلم أن أم خالد تعني ما تقول، وأنها قُهرت للأبد، تشير لها أم خالد:

- تحبين تقعدين في الحوش ولا نقعد داخل يا أم جاسم؟.

- لا، نقعد في الحوش، الجو زين.

- تفضلي.

جلستا على بساط مفروش فوق المصطبة التي تتصل بحجرة أم خالد:

- شلون المطوع.

- بخير وينشد عنكم.

- سمعت ان ولدج جاسم خلا البحر، تدرين، زين ما سوّى.

- شنسوي، عيزنا معاه يا أم خالد، وأبوه شايل الهم من وراه.

- اش فيكم عليه، بكره يحصل له شغل قريب منكم وفي البر، شتبغون أحسن من جذيه..؟

- يا أم خالد جاسم ما يستقر على رأي، ولا يبي يشتغل لا في البحر ولا في البر، جاسم هذي.. شاقول بس يا ربي!!..

تلحظ أم خالد على وجهها كلاماً آخر عندما فتحت لها سيرة ولدها، فتستحثها أم خالد على الكلام:

- اشفيه يا أم جاسم؟ ليش متضايقة؟ فيه شيء خاشته[1] في قلبج؟

- بصراحة متضايقة وايد وقلبي محترق يا أم خالد، وأنا يايتج علشان أسمع شورج.

---

(١) خاشته: مخفيته.

- خير يا أم جاسم، عسى ما شر؟!

- ولدي جاسم ما اغبّي عليج سوّى فعله شينه، لكن الحمد للّه إني لحقت عليه.

- يا كافي الشر، شمسوي جاسم؟!

- لحق فاطمة لين الخرابة، وكان يبي يغلط معاها، ويوم عيت عليه قام مسكها وصار يضرب فيها، لكني لحقت عليه ومنعته عنها.

- لا حول اللّه، جاسم يسوي جذيه؟، ما أصدق!

- ما ادري شلون أواجه المطوع بالسالفة يا أم خالد، خايفة لا يطيح من القهر.

- ووين جاسم الحين؟!

- شرد من البيت مثل عادته حتى لا يواجه أبوه.

- أنا ما عندي راي غير أنكم تزوجون فاطمة، حرام قعدتها في البيت مع جاسم، وإن لزم الأمر أنا مستعدة أقول حق المطوع تبي تقعد معاي في البيت.

- يعلم اللّه إن المطوع يعدها حسبة بنته وأعزّ.

- أدري يا أم جاسم، لكن اللي صار صار، ولازم تفكرون الحين شلون تدارون السالفة.

- يا ليت أحد يتقدم لها يا أم خالد، لكن انتي تدرين مشكلتها.

- ليش تدورين بعيد يا أم جاسم؟

- شقصدج؟!

- أنا أجوف إن خميس يستاهلها، وأبو خالد اللّه يرحمه كان مواعده يزوجه إياها.

- خميس يا أم خالد؟!

- شفيه خميس يا أم جاسم؟، وبعدين أظن ان فاطمة ما عندها مانع في خميس، سئليها وخذي رأيها، صحيح أن خميس فقير، لكنه ريّال مخلص ووفي، من تبين يتقدم لها أحسن منه يا أم جاسم؟!

- أنا باقول حق المطوع هالشكل.

- إيه، وبها الطريقة بتوايهون مشكلة وتحلونها في الوقت نفسه.

- اللّه يساعدني على هاليوم.

تتهيأ أم جاسم للذهاب إلى بيتها قبل وصول المطوع، تودعها أم خالد للباب وقد أقنعتها تماماً بوجهة نظرها.

هناك في البيت وجدت فاطمة تجلس بوجوم، فاقتربت منها أم جاسم، جلست إلى جوارها، وبحنو بالغ وضعت يدها على وجهها:

- سمعيني زين يا فاطمة، اللي صار صار، ويشهد اللّه إني ماني براضيه من ولدي جاسم على فعلته الشينة، لكن الحين لازم نطالع جدام!!

بحيرة واضحة تلتفت لها فاطمة:

- شتقصدين يا عمتي؟!

- أقصد محد يحمي المرة ويصونها إلا الريّال، وانتي لازم تختارين اللي يكتبه لج رب العالمين وتتزوجينه.

- أتزوج؟!

- اشعليه يا بنتي، الزواج ستر للبنت، وأنا أخاف عليج، وابليس يمج ما مات.

- لكن يا عمتي..

وتقاطعها أم جاسم:

- لا تحاتين[1]، احنا ما نتخلى عنج، ولولا خوفي عليج ما فكرت في هالأمر.

- وعمي المطوع؟

- أنا الليلة باكلمه عنج، المهم شرايج يا فاطمة في خميس؟

لم تصدق فاطمة أذنيها، كيف اقتنعوا أخيراً بخميس:

- خميس؟!

-لا تتركها أم جاسم لتفكيرها:

- هو صج فقير، لكنه يبيج وإن شاء الله يسعدج، وأنا باعطيكم الخرابة تصلحونها وتسكنون فيها، شرايج؟!

- إن شاء الله.

- شمعناتها ذي؟!

- موافقة يا عمتي!!.

---

(٤٣) تحاتين: تقلقين.

جبر الخواطر

لأول مرة بعد شهر من الحادث يخرج أبو محمد من بيته ليجلس تحت السدرة مع المطوع بعد أن تعافى جرحه، كان الجو لطيفاً يحمل الأنسام الرقيقة التي كانت تحمل معنى خاصاً عند أبي محمد، وبعد أن يأخذ نفساً عميقاً يلتفت إلى المطوع:

- ياه، صجّ البيت يضيق الخلق، زمان والله.

- تدري يا بو محمد، ما كنت مصدق إن جرحك يطيب يوم اني شفته، لكن الظاهر إن دوا بو حسين ما عقبه دوا.

- بو حسين عنده شغلتين محد في الفريج يقدر ينافسه عليهن، الأولانية ما يقدر يصبر عن الزواج، والثانية الدوا شلون يخترعه ويركبه محد يدري؟!.

- اي صج، لكني اجوف يا بو محمد جنك حاسده على الشغله الأولانية.

يتململ أبو محمد في مجلسه، ينتبه إليه المطوع:

- شفيك..؟

- تأخر علينا بو حسين.

- عنده شغيلات في الدكان بيخلصها وبيي، كنك به.

- وين خميس، ما أشوفه..؟

- الحين أخليه يجي، شتبغي منه؟!

- أبيه يروح يشتغل في المحمل، أخرنا الرقاد.

- لاحق على الشغل يا بو محمد، انت لازم ترتاح الحين ولا تهتم.

- ما يصير يا مطوع، باقي أربع شهور وندش البحر، لازم اوبّد البحارة وأدورهم، وانت تدري الحال.

- إن شاء الله كل شيء يتدبر.

يتنهد أبو محمد بعمق كمن تذكر مفارقة في الماضي:

– وكنت أقول حق نفسي الموسم زين ما في مثله، سبحان الله شلون يتغير الحال.

– لا تأسف على اللي فات، خلك في الحاضر الحين.

في هذه الأثناء يقدم عليهم أبو حسين:

– السلام عليكم.

– يا هلا بو حسين، حياك.

– تفضل، وين الفاله[1] يا البخيل.

– صبر شوي، وصيت خميس إييب التمر معاه.

يضحك أبو محمد للمناوشات بين المطوع وأبي حسين:

– زمان والله.

وكمن يريد الهرب من مواجهة المطوع، يلتفت أبو حسين إلى أبي محمد:

– شلونك الحين يا بو محمد..؟

– أشوى، الحمد لله..

ثم كمن وجد موضوعاً يضايق به المطوع يسأله أبو حسين:

– أقول يا مطوع، شمسوي مع خميس؟! تراه ياني اليوم وقعد يشتكي منك.

– لا حول الله.. يعني ما تدري عن سالفة خميس يا بو حسين؟!

بلا مبالاة واضحة:

– ما هب زين عليك، زوّجه فاطمة وافتك.

– الأمر لك، تزوج الناس كلها أصلاً، ما تحاتي غير في هالسالفة.

يضحك أبو محمد لهذا الحوار الساخن بينهما، ثم كمن تذكر أمراً بخصوص

(١) الفاله: نوع من الضيافة، تمر أو غيره.

خميس:

- تدري يا مطوع، أخوي بو خالد الله يرحمه كان مواعد خميس يزوجه فاطمة لي خلص الموسم.

- يا جماعة هالبنت أمانة عندي من يوم تيتمت وهي رضيع وما أقدر أفرط فيها.

أبو حسين لا يعجبه الكلام وبلا مبالاة واضحة:

- يا مطوع اهيه عريه وهو خبل، يعني يناسبون بعض.

يظهر الغضب على المطوع لهذا الكلام، بينما يغمز أبو محمد لأبي حسين كي يوقف الجدال معه..

- شهاالكلام ذي؟ ما تخاف رب العالمين، صج إنها عريه، ولا هو بعيب، لكنها بالعقل والرزانة ما فيها قصور.

يتدخل أبو محمد بينهما:

- الحين شعلينا من خميس وفاطمة يا جماعة، ما يسوى نقزر[1] وقتنا في سالفتهم.

- هالأيام المطوع مستحمق علينا ما ادري ليش!

- بو حسين يوز عن سوالفك بس، خلني أروح.

- وين يا مطوع؟ هاذي بو حسين ما ينزعل منه.

- ابي ألحق الصلاة وأروح البيت، من الصبح وأنا برع.

- ما تبي تمر..؟ الحين خميس بييبه.

- أكيد وصيته يتأخر به، أدري بك.

---

(١) نقزر: نمضي ونقطع الوقت.

يضحك أبو محمد بينما ينصرف المطوع وهو يهز رأسه كعادته، أما أبو حسين فيجد الفرصة ملائمة لكي يأخذ راحته في الكلام دون أن يحتاط لنظرات المطوع، كان أبو محمد ينسجم مع شخصية أبي حسين، يفضي إليه بهمومه الخاصة، يرتاح إليه، كثيراً ما ساعده مادياً، أما أبو حسين فقد علمته الأيام متى يرفع رأسه أو يخفضه، لكن بظرف ولباقة تبقي على بعض كبريائه، كان يخفي في داخله وحشاً مفترساً مقصوص الأنياب والأظافر، تشرد كثيراً، انتقل من ديرة إلى أخرى، وعانى ما عاناه إلى أن وصل به الترحال إلى هذا الفريج قبل خمسة عشر عاماً، ظل في داخله قلقاً لا يعرف الاطمئنان، حريصاً حتى مع أولاده، لا مبالياً إلا بجديده، يدوس على ماضيه من أجل حاضره، هناءته الشخصية ومتعته هي كل ما يهمه ضمناً..

تنبه أبو حسين لأبي محمد وهو يتثاءب:

- هاه أبو محمد، أجوف ياتك النودة[1].

- الرقاد على الفراش خلاني أحس جني متكسر يا بو حسين.

- بس يومين ثلاثة وبتصير مثل الحصان.

يغمزه أبو حسين بمغزى، ويضحك له أبو محمد..

- عاد وين التمر يا بو حسين..؟

- أكيد خميس هالخبل نسي ييبه، لكن باراويه، يبيني أسعى في زواجه بعد.. ما عليه.

- بصراحة كن المطوع كاشفك، أنا باروح البيت.

- الحين باطرشهم لك البيت يا أبو محمد، بس عاد لا توقف بعد أنت مع المطوع ضدي.

يذهب أبو محمد، بينما يأخذ أبو حسين المساند والبساط من تحت السدرة

---

(١) النودة: النعاس.

ليرجعها إلى الدكان، كان لديه هاجس ينمو مع الأيام أن أهل الفريج يحسدونه ويقفون ضده، كل ذلك لأنه يسمع اللوم والعتب لتصرفاته الطائشة وإهماله لواجباته ومسؤولياته، لكن أبا محمد كان الوحيد الذي يراعي أبا حسين، على عكس أخيه أبي خالد الذي لم يكن يهمه منه إلا أنه شخصية يحب الجلوس معها ويأنس بها، وكان أبو حسين يدرك ذلك، ويعتقد أنه ما دام محافظاً على الرأس فلا يهمه الباقي.

وقبل أن يذهب إلى البيت يتناول وعاء الدهن الخالدي وبأصابعه يأخذ لعقتين، كان يعتقد أنه يجلب القوة، لم ينسَ أن يمسح أصابعه بخرقة بالية، أغلق الوعاء ووضعه في مكان أمين، فهو كثيراً ما ينكر حتى على أصحابه وجود الدهن الخالدي لديه، إذ لم يكن متوافراً إلا بكميات قليلة.

الناس أجناس، هكذا قال لنفسه، وأنا أحب الجنس القوي، يمسح وجهه وشاربه وهو ينظر إلى العتم الذي بدأ يظلل الفريج، يشعر بانقباض لرؤية العتم يجعله بشكل آلي يتحول ويستخدم لهجة ورعة اعتاد تكرارها بسرعة تعبر عن توجسه وقلقه، يغلق باب البيت خلفه وكأنما يخشى أن يبقى وحيداً في العتم، يصرخ على زوجته وهو عند الباب لمجرد أنه قادم، كمن يريد كسر الكابوس الذي يطفئ شعلة النهار.

استغرب المطوع عدم وجود فاطمة على العشاء، وعندما استفسر عنها قالت له امرأته إنها ذهبت للنوم، فقد تعبت من شغل النهار، والحقيقة أن فاطمة لم ترد أن يرى المطوع الكدمات في وجهها، آثرت أن تترك أم جاسم تتولى إفهامه الأمر، أما أم جاسم فقد انتظرت حتى يكمل المطوع عشاءه البسيط، لكن القلق كان واضحاً في عينيها وحركات يديها العصبية، مما أثار انتباهه، فشرب قليلاً من الماء واستند إلى الحائط وهو يحدق النظر في وجهها:

- في شي يا أم جاسم؟

أربكها سؤاله الذي لم تتوقعه..

- لا لا، كمّل عشاك الحين يا بو جاسم.

- الحمد لله شبعت، اشفيه يا أم جاسم؟! قولي.. لا تصدقين يخفى عليّ شيّ في ويهج، أنا أعرفج.

- فيه موضوع بغيت استشيرك فيه وأنا أجوفه ضروري.

- شنهو هالموضوع؟

- فاطمة يا بو جاسم..

- شفيها فاطمة؟

- البنت كبرت وصارت في سن الزواج!!

- اي أكيد.

- وأنا أجوف إن زواجها أستر لها ولنا يا مطوع.

- صحيح، بس محدّ تقدم لها للحين، في حد كلمج في موضوعها؟

- أنا اليوم تكلمت مع أم خالد، وتكلمت مع فاطمة بعد ووافقت.

- وافقت.. منهو اللي وافقت عليه يا أم جاسم؟

- خميس يا مطوع.

كمن يصعب عليه الأمر:

- خميس؟!

- شفيه خميس يا مطوع؟، طيب وكداد ووفي، وأكيد بيتغير مع الزواج.

- يعني ما تعرفين شتقول الناس عليه؟

- ما هب عيب يا بو جاسم، يعني علشان هو فقير ومسكين ما له أحد تشوفونه ناقص بنظركم؟

- يا أم جاسم أنا مهب واقف ضده، لكني خايف على فاطمة، هي أمانة برقبتي وما أبي أفرط فيها، أنا أقول ننطر يمكن نلاقي لها واحد ثاني.

- يا بو جاسم فاطمة راضية بخميس وموافقة عليه، وخميس إذا انحرم منها بيموت قهر.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- بعدين بيني وبينك منهو بتحصل غير خميس، وانت تدري بحالتها.

- زين زين على خيرة الله.

- أنا من رايي نعطيهم البيت العتيج «الخرابة» يصلحونه ويسكنون فيه، منه بيستفيدون ومنه بيحافظون عليه.

- ونعم الراي يا أم جاسم، إن شاء الله باكر باجوف خميس وأكلمه.

- مسكين، أكيد بيطير من الفرح.

لكن المطوع يفاجئ زوجته:

- أم جاسم، بغيت أسألج، لكن لا تخشّين عليّ.

- تفضل اسأل.

- أنا قلبي ينقزني من هالسالفة.

- شلون يعني؟

- ليش اليوم ما غيره طرت لج هالسالفة، قصدي الزواج؟

ولا تجد بداً من مصارحته:

- بصراحة اليوم الله سترها علينا، ولا جان علوم.

- شقصدج؟

- لحقت على البنت قبل لا يصير شين وخلصتها من ولدك جاسم اللي كان ناوي عليها نية شينة.

- جاسم؟، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا والله اللي ما حسبناه عليه، وينه الحين؟

- شرد ما ادري عنه.

- يا الهيس يا جسوم، بعد ما ابغيه يدش البيت عقب اليوم، هذا اللي قاصر، يبي يسوّد ويهي جدام الناس.

- ما عليه وسع صدرك، والحمد لله اللي ستر ولا صار شي.

- شاسوي فيه؟، أنا عيزت معاه!!.

- كنت أول أداري عليه وأحبه، لكن الحين ما يستاهل.

- فوضت أمري فيه لرب العالمين.

لم ينم المطوع تلك الليلة، بل ظل يتقلب مهموماً في فراشه، لم يصدق متى يطلع الفجر حتى يذهب إلى الصلاة، قبل الأذان ذهب إلى المسجد، جلس أمام المحراب يقرأ القرآن على ضوء السراج، كانت الهموم تجيش في صدره، رغبة في البكاء يمنعها تجلده وصبره، أغمض عينيه بعد أن أثقلهما نعاس خفيف، استند برأسه إلى العمود وهو يدعو الله أن يفرج كربته، انتبه إلى خيوط الضوء التي جاءت تكشف ملامح الفجر الأولى من خلال نوافذ المسجد، بادره شعور مريح عندما رأى خميساً يجلس منطوياً على نفسه في آخر المسجد، قال في نفسه: ربما تكون فرحة هذا المسكين هي العوض مما أعانيه من هموم، ربما تقربت إلى الله سبحانه بفرحة هذا المسكين الذي يعلق كل الآمال على كلمتي ويوسط الناس من أجل موافقتي، لن أكون السبب في موت قلبه، أحس براحة تسري في كيانه ورعشة خفيفة جعلته يصحو من نعاسه، ابتسم في سره متصوراً كيف ستكون فرحة خميس عندما يسمع الخبر.

انتهت الصلاة، بدأ المصلون يغادرون المسجد، وعندما قام خميس ليغادر أشار إليه المطوع، فتوقف عند الباب، كان وجهه يرسم غضباً مصطنعاً بعد أن سمع من أبي حسين أن المطوع لم يوافق على زواجه من فاطمة، حين وصل المطوع إليه ظل مطرقاً في الأرض، ابتسم المطوع، قال له أن يمشي معه إلى البراحة، كان الجو لطيفاً والصباح في أوله، بعض المارة يقطعون الطريق بهدوء إلى أشغالهم، العصافير بدأت في صخبها

بين أغصان السدرة الكبيرة، التفت المطوع إلى خميس المترقب:

- قل لي يا خميس، كم من واحد اشتكيتني له في الفريج، ها؟ لا تخاف.

ببراءة يجيبه خميس:

- ما بقى أحد بالفريج ما اشتكيتك له يا عمي، بس انت ما يهمك فيني، لكن شوف أنا للحين ما اشتكيت لرب العالمين.

- خلاص أنا أبي أفك هالعقدة اللي بيني وبينك يا خميس.

لم يصدق خميس ما يسمع، ففتح عينيه مترقباً:

- شلون؟

- أنا ابي أعطيك البيت العتيج علشان تصلحه وتعيش فيه أنت وفاطمة، شرايك الحين..؟

- والله يا عمي..؟

- وأنا علي أساعدك عند هل الفريج علشان عرسك.. شتبغي بعد؟

ببكاء ممزوج بالفرح يقبل يديه ووجهه، بينما يضحك له المطوع ويبعده عنه..

- الله يخليك عمي ويطول عمرك.

من فرحته لم يستطع خميس الصبر على مشاعره، فذهب يجري صارخاً ومغنياً في أنحاء الفريج، منادياً جميع الناس وهو يطرق على أبوابهم بشدة، مما جعل بعض النائمين يستيقظون مذعورين، مثل أبي حسين الذي خرج له مغضباً بهراوة كبيرة، وعندما لم يستطع اللحاق به ضربه بها عن بعد، لكن خميساً كان قد ابتعد واختفى في أنحاء الفريج.

لم يكن الجميع غاضبين على خميس لأنه تصرف بهذا الشكل العفوي، بل ضحك بعضهم كثيراً عندما رأى أبا حسين يطارده بالهراوة، وآخرون أشفقوا عليه، أما فاطمة فتمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها لحرجها من ذلك الموقف الذي راح يتندر

به أهل الفريج.

أبو حسين رأى ذلك اليوم نحساً عليه، وزاد الطين بلة عندما جاء المطوع طالباً منه تبرعاً لعرس خميس، حاول أن يعترض، لكن المطوع كان حاسماً، فتشاغل أبو حسين ليهرب من الموقف، ربما استطاع الفكاك من خلال تأخير هذا الأمر، بينما ذهب المطوع يدور على أهل الفريج ممن لديهم القدرة على المساعدة، لم يتأخر أحد بالمساعدة من أجل خميس وفاطمة، أم خالد قدمت لهم بعض البسط والفرش والمؤن، وأعطت خميساً بعض الملابس المتبقية لزوجها أبي خالد، وأعطت فاطمة أيضاً بعضاً من ملابسها لأنها لم تعد تحتاج إلى كثير منها بسبب ألوانها الزاهية، لم يقصر أيضاً أبو محمد، بدا الأمر كأنه سجال بين أهل الفريج، ساعد بعض العمال خميساً في إصلاح وترميم الخرابة بعد أن قسموا مكاناً خاصاً لـ «الدبش»، وأُصلح سقف الحجرة ورُتب الحوش والعريش، صارت الخرابة بعد أيام بيتاً جميلاً بسيطاً.

لم يستطع أبو حسين الإفلات طويلاً من ملاحقة المطوع له، واضطر آخر الأمر أن يدفع لعرس خميس بعد أن حوصر من الجميع ولم يجد من يسانده في موقفه.

بعد ثلاثة أيام زُفّ خميس إلى عروسه فاطمة ببساطة شديدة، كان الجو يغلب عليه الضحك ولعب الأولاد، أعار المطوع خميساً «البشت»[1] لكي يُزف به، وبدا خميس للمرة الأولى مرتباً بعد أن حسن شعره في ذلك اليوم ولبس الملابس الجديدة، شعر بأهميته للمرة الأولى في حياته، لم يكن يصدق نفسه، كان الفرح يتجلى واضحاً في عينيه، لم ينسَ أبو حسين أن يأخذه جانباً ويفهمه كيف يعامل زوجته في ليلتها الأولى، سمع خميس كل هذا وهو في وادٍ آخر، يسرح بعيداً إلى تلك اللحظة التي تجمعه وفاطمة للمرة الأولى في حجرة واحدة.

بعضهم عد مشاركته في الزفة من قبيل النكتة والمرح لا أكثر ولا أقل، فلم يكن خميس يعني بالنسبة إليهم أكثر من مادة للمفارقات المضحكة.

(١) البشت: عباءة رجالية.

فاطمة جلست تنتظر في الحجرة مع امرأة المطوع وصول خميس، وأم جاسم كانت تحاول التسرية عنها بين الحين والآخر، إلا أن فاطمة كانت في قرارة نفسها تنشد ذلك اليوم الذي تستطيع فيه التأثير في خميس لكي لا يستغله الآخرون بهذه البساطة، إن حبه لها لا يعني شيئاً بالنسبة إليها إلا إذا كان رجلاً محترماً من الآخرين، شيء ما يدفعها بقوة إلى التعلق بالمستقبل قبل أن تصارع الحاضر، لأن هذه الخرابة التي تحولت إلى بيت يجمعها وخميساً سوف تكون أول حافز لها لكي تنسى يُتمها في الماضي، كان التصميم يملأ كيانها كأنما أرادت أن تتحدى الجميع ضمناً بزوجها خميس وبالخرابة التي أصبحت بيتاً.

عندما وصل خميس انسحبت أم جاسم وأغلقت الباب خلفها، تناهت إلى الحجرة أصوات الناس الذين بدأوا يغادرون المكان بين أصوات الضحك وضجة الأطفال ولغط النساء، لم يجرؤ خميس على الاقتراب من فاطمة، نسي جميع ما أوصاه به أبو حسين، كانت فاطمة تبدو له جديدة كل الجدّة هذه المرة كأنما يتعرف عليها للمرة الأولى، بدأ يبحث عن الكلمات التي يبدأ بها، لكن الذاكرة كانت تخونه بين فترة وأخرى، كان يرى عينيها تلتفتان إليه، وقبل أن يمسكهما تتحولان إلى شرودهما، جلس إلى جانبها وهو يبتسم لها، لكنها لم تبادله سذاجته، اقترب منها، انكمشت، خاف عليها، كان يخشى أن يتصرف تصرفاً يغضبها، فهو لا يطيق ذلك، وبتلعثم واضح تقرب منها ببعض الكلمات:

– فاطمة، انتي زعلانة عليّ؟

كيف تفهمه أنه يحق لها أن تستحي على أنوثتها في هذه الليلة؟!، إن التلميح لا يفيد مع خميس، وعندما كرر سؤاله بتخوف لم تجد بداً من إجابته:

– لا، ليش أزعل عليك؟

انفرجت أساريره عندما سمع هذه الكلمات المشجعة، أراد أن يصف لها حبه على طريقته وبحماس واضح:

- وراسج يا فاطمة اللي تبينه أييبه لج.

لاحظ أنها تتحول عنه بعينيها كي لا يرى ضجرها:

- انتي ما تصدقيني، شوي أنا يمكن أكذب على غيرج، لكن عليج لا.

تضحك فاطمة من طريقة كلامه لأنها لا تجد ما تقوله، بينما هو يأخذه السرور كل مأخذ لضحكتها:

- اي جذي، أبي أجوف ضحكتج يا زينها.

توقفت عن الضحك وقد خطر لها خاطر:

- خميس، لو طلبت منك طلب تسويه؟

- انتي آمري وبس!

- أنا أبيك تعاهدني إنك ما تسوي أي شيّ من غير ما تشاورني فيه.

- بس جذي!! من عيني ذي قبل ذي، أنا علشانج لو يسطروني ما عليّ.

عندما تسمع كلمته الأخيرة تشعر بجرح في كبريائها:

- خميس، من عقب اليوم لا تقبل أحد يسطرك ان جان تحبني، ولا بازعل عليك.

- لا واللي يخليج، لو أحد يسطرني عقب اليوم غير أشق بطنه.

- لا، ماهب جذي، أنت قول لهم ما أقبل أحد يمد يده عليّ، وجذيه بيفهمون عليك، واللي ما يبغي يفهم لا تقرب صوبه ولا تخدمه.

أصابه العجب والدهشة:

- أول مرة أسمع كلام هالشكل، صح إن الزواج فلّه ووناسة.

تضحك فاطمة، فقد أصابت هدفها، ضحك لها خميس، لم يكن يهمه في الحقيقة إلا أن يبقى إلى جانبها.

• • •

شيء لا يصدق، يا سبحان اللّه، هل هذا معقول؟ الذي له عمر لا تقتله الشدة، ذلك ما تردد على ألسن الناس في الفريج بعد أن جلب لهم صلاح ابن أبي حسين خبراً أكيداً بأن «حمد»، ذلك البحار الذي أصابه الدقل لدى انهياره وقذفه إلى البحر المتلاطم الهائج، حي ويعيش في البحرين بعد أن أنقذه «سنبوك»[٢] لأهل البحرين، فبينما هو يجاهد في الرمق الأخير استطاعوا سحبه بالحبال بعد أن تعلق بها ما بين الموت والحياة، المسكين كان فخذه من الورك مكسوراً، جبروه، لكن منطقة الكسر كانت أصعب من أن تُجبر بطريقة بسيطة، لم يبخل عليه أحد بالزاد ولا بالسكن، إلى أن أصبح قادراً على الرجوع إلى ديرته، التقى صلاحاً صدفة عند «الفرضة»[٣] وعرف منه أنه سيرجع على أحد المحامل قريباً إلى أهله وعشيرته.

كان المشهد مؤثراً جداً عندما سمعت أمه بالخبر، فقد راحت تصرخ وتلهج بالدعاء والبكاء المؤثر والفرح الهستيري، أنعشتها النسوة بالماء عندما أغمي عليها، أما أبوه المريض فحمد اللّه على نجاة ولده بعد أن كان يشعر بالذنب، لأن ولده حمد كان يغوص من أجل سداد ديونه وارتباطه الذي عجز عنه لدى النوخذة أبي محمد الذي هلل مع الآخرين لدى سماعه الخبر، لكنه فيما بعد راوده إحساس خفيّ بالتشاؤم لم يستطع إبعاده عن هواجسه، وهو أن حمد هذا لسانه طويل، يقرص في الخفاء، ماذا لو ألقى اللوم على النوخذة في تلك المصيبة؟، ألم يحاول حمد لفت نظره إلى الجو قبل أن يطرده النوخذة ويوبخه، قطعاً سيطعن فيه، سيقول الناس إنه كان هناك فرصة كافية للجوء إلى البر، لكن أبا محمد النوخذة عاند الجميع حتى النهاية، لا بد أن الناس سيتأثرون بهذا الكلام.. «ما علي منه ولا من غيره»، لا يهمني أحد، لماذا أتصور الشر قبل حدوثه، إن الناس تعرف أن الكارثة كانت عامة ولم ينجُ أحد منها، إن أحداً لا يستطيع أن يؤثر في سمعتي في البحر، هل كان ينقصني رجوع حمد للفريج

---

(١) سنبوك: نوع من السفن القديمة.

(٢) الفرضة: الميناء.

حتى يعكّر علي عيشتي؟!.

غير بعيد عن النوخذة، جلس صلاح مع المطوع يناقشان حسابات الرحلة، كان المطوع يبدو راضياً تمام الرضى بينما صلاح يقدم له الفواتير وحاصل الربح، أبو حسين يحاول بين الحين والآخر أن يقترب منهما بريبة واضحة على وجهه، لكنهما لم يشركاه في الحسابات، يبتعد والخيبة تملأ وجهه، بعصبية يطرد الذباب الذي حاول التجمع فوق قلة التمر المكشوفة، يغطيها، لكن صلاحاً كان لديه هم آخر يشكوه للمطوع:

- أقول عمي بو جاسم، انا الله يسلمك الأغراض اللي يبتهم حق أبوي للدكان باجي نص حسابهم في ذمته.

- خلاص يا ولدي، هو قال لك جدامي إنه بيعطيك حسابك كله عقب يومين.

- يا عمي هو يقول جذي جدامك، بس بكره يخلف كلامه ويوخرني يوم ورا يوم، ولما يقرب السفر بيقول ما معاه فلوس والسلام.

- على كيفه عاد، أنا اللي مسؤول عنهم، انت ما لك خص، يوم ولاّ يومين وباراويك شلون باسحبهم منه وهو يطالع.

- الله يخليك يا عمي، برخصتك، أنا بروح أودي حق خميس قلة تمر هدية مني حق عرسه.

- تسوّي خير يا ولدي، وقول له على لساني لا يسويها سالفة قعدة البيت، ولّا ما له غير العصا، وباطالعه وش يسوي.

يضحك صلاح لكلمات أبي جاسم المطوع، يبتعد، بينما يدعو له بالتوفيق وهو يتحسر ضمناً على ولده جاسم الذي لم يفلح في شيء، من يوم الحادثة وهو لا يجرؤ على مواجهته، يعرف أنه يأتي في غيابه إلى البيت وتهيئ له أمه الطعام، مسكينة لا تعرف القسوة، إنها لا تستطيع أن تخفي عطفها على ولدها بتاتاً، جاسم يعرف أن أمه

لا تستطيع الاستمرار في غضبها لأكثر من يومين، متى يعقل ذلك الولد؟ يتنهد المطوع، يلحظ أبا محمد الذي ترك مكانه وأخذ طريق السيف، ما باله اليوم؟ ما الذي يشغل باله؟..

ينتبه المطوع من تساؤلاته على صوت أبي حسين الذي يقترب منه، يجلس إلى جانبه، تبدو عليه العصبية، يحك شعره من تحت «الغترة» بين الحين والآخر، يلتفت إليه المطوع مستغرباً:

- شفيكم اليوم أنت وبو محمد يا بو حسين، غريب طبعكم.

- وأنا شدراني، اسال بو محمد وهو يعلمك.

- وليش أنت مستحمق هالشكل؟!

ينكر أبو حسين، يحاول إخفاء عصبيته دون فائدة، آلمه أن لا يجد ولده الصغير محمداً عائداً مع أخيه صلاح، لم يستطع أن يفصح عن ذلك حين أخبره صلاح أن أخاه محمداً بقي في البحرين بعد أن استبقاه أحد الصاغة المعروفين في السوق ليعمل عنده في الدكان ويتعلم المهنة، لم يقتنع أبو حسين بذلك رغم أنه قال أمام الجميع «الله يوفقه» بطريقة لا تظهر تأثر بالأمر، لكنه بينه وبين نفسه لم يأخذ الأمر بهذه الصورة، ولدي محمد يهرب من مواجهتي والعيش بجواري، أنا أحس بذلك، لقد أخطأت بحقه، لكنه يعرف تماماً أنني أحبه أكثر من صلاح، فهل أستحق كل ذلك منه حتى لا يرجع إلى هنا؟، قد لا يرجع أبداً، هل يتركني أولادي هكذا لأعيش وحدي دون أن يسألوا عني؟..

يلكزه المطوع منبهاً:

- كله تحاتي، شفيك؟! وين شردت؟!

يهز رأسه علامة الأسف للمطوع:

- الخبل ما رجع، قال يبي يشتغل في محل صايغ هناك بالبحرين علشان يتعلم

الصنعة، عباله الشغلة لعبة، ذوله الصاغة أنا أعرفهم، ياالله ياالله يعلمون شغلتهم حق أولادهم، لو يقزر عمره كله عندهم بيتم خادم ولا يعلمونه حاجة.

لا يقتنع المطوع بكلامه الذي تتبدى فيه السخرية، وإن كان أبو حسين لا يعنيها حقيقة..

- ليش يا بو حسين، ولدك محمد ذكي ما شاء الله عليه، ولي حط باله في الشغلة أكيد بيتعلمها، وذي شغلة لها مستقبل وسوقها ماشي.

يسكت أبو حسين للحظة، ليس لديه ما يقنع به المطوع بعدم جدوى هذه المهنة فيما لو تعلمها ولده محمد، لأنه ضمناً مقتنع بما يقوله المطوع لو أخذ الموضوع بعيداً عن عاطفته التي لا تظهر على وجهه أبداً تجاه ولده، فالمهنة نادرة وقليل من يتعلم أصولها ولها سوق رائجة، لكنه لا يلبث أن يفجر الموضوع مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة:

- كان الحق على صلاح، أنا أدري به يبغي ايتخلا بالمحمل بروحه، وعلشان جذي أقنع أخوه محمد يتم في البحرين يتعلم هالشغلة.

لا يقبل المطوع هذا التفسير الذي يتجنى به أبو حسين على ولده صلاح، فهو يعرف مسبقاً حساسيته تجاه ولده الأكبر:

- يا بو حسين انت هالشكل تتجنى على ولدك صلاح، الظلم ما يرضى فيه رب العالمين، المسكين أجر له بحار يساعده في المحمل بدل أخوه محمد، وهالشكل زاد عليه المصروف، وأنت أدرى ليش يتخلى عن أخوه ما دام ينفعه في شغل المحمل لولا أنه حاس ومقدر مصلحة أخوه في هالشغلة الجديدة.

يحمر وجه أبي حسين غيظاً، لأنه لا يستطيع أن يجعل المطوع أو أحداً من الناس يجاريه في كلامه الذي يقوله دون أي اعتبار سوى لانفعالاته المشتبكة في داخله، ثم لا يترك المطوع أبا حسين الذي سدت أمامه المنافذ قبل أن يلفت نظره إلى أمر عميق الدلالة:

– يا بو حسين، أنا من زمان حاس أنك تتجنى على ولدك صلاح، مع إنه المسكين طيب وقلبه نظيف وما يحب يكون عالة عليك أو على غيرك، ليش تسوي فيه جذيه؟ يوم رد من السفر ما لاحظت عليك إنك قلت له الحمد لله على السلامة، معقولة؟ شمسوي معاك صلاح..؟ يا ليت عندي ولد مثله، هو قلبه عليك وأنت ما تحس به.

يتنهد أبو حسين عميقاً وهو يهز رأسه مكابراً:

– صلاح ذي عقرب رمل، أنت ما تعرفه يا مطوع، أنا اللي اعرفه وأفهم عليه، طالع على أمه.

ينفجر المطوع بغيظ على طريقته:

– شهاالكلام يا بو حسين الله يهداك، وشفيها أم صلاح الله يرحمها حتى تكرهها هالشكل، ما يكفي إنك هجرتها سنين وحرقت قلبها، كل يوم ولك سالفة، وعقب قطيتها على أهلها لين مرضت وماتت الله يرحمها، ويا ليتك ترد شيّ من حقوقها عليك وإنك ما تقصر على عيالها.

يبقى أبو حسين مكابراً للنهاية:

– أنا ما قصرت عليها ولا على عيالها في شي يا مطوع، وإذا حد له حقوق عندي يروح القاضي.

بمرارة وأسف يلتفت إليه المطوع:

– يا حسافة يا أبو حسين، لو كان الضمير حي الناس ما تضطر تروح القاضي..

يبتعد المطوع تاركاً أبا حسين قبل أن يشتبك معه في جدال وخصام لا جدوى منه، فهو يعرف أن أبا حسين سوف يظل مكابراً للنهاية، هذه عادته، يا سبحان الله، هناك أولاد تفرش لهم الطريق في كل خطوة بالورد، لكنهم يبتعدون عنه إلى آخر مليء بالشوك، وآخرون.. لا يقدر المطوع على متابعة تأملاته، لأنه سيخلص إلى الحزن والألم على ولده جاسم، لا يجد غير «لا حول ولا قوة إلا بالله» قادرة على أن تنطق

بحاله اليائس، لم أبخل على جاسم بشيء حسب علمي، إذا قسوت عليه فمن أجل مستقبله وسمعته بين الناس، كان يضطرني دائماً إلى هذه القسوة بتصرفاته رغم أن شفقتي عليه كانت تختبئ وراء قسوتي، لا يجوز للأب أن يظهر عواطفه تجاه ولده، فالأم كفيلة بذلك، لكن لا يجوز أيضاً أن يبخسه حقوقه، أو لا يشد على يديه ويباركه حين يقوم بعمل جيد، لكن ولدي ليس له شيء من ذلك كله، كثيراً ما حفظته القرآن، لكنه لم يبق في ذاكرته، كان يحفظه أمامي فقط، وعندما أتركه ليومين ينسى ما حفظ تماماً، كأن رأسه مصمم على أن يبقى فارغاً تماماً، بودي لو تباهيت بولدي بين الناس، ما أجمل أن تمدح الناس ولدك أمامك، لكن أحداً لا يذكره أمامي، كأنهم يتحاشون ذلك مراعاة لمشاعري، متى يعقل جاسم؟ لولا المسكينة أمه لطردته من البيت وقطعت كل صلة بيني وبينه وتبرأت من جميع أعماله، لكنها ستموت من القهر عليه، أعرف ذلك!، ما ذنبها إذا كان قلبها لا يقدر على كره ولدها، حتى أنا لن أرضى عن نفسي في ذلك ولن أرضي رب العالمين، فصلة الرحم واجبة على الأب والابن، لا فرق، يجب أن أتفاهم معه بأي شكل، سأقول لأمه ذلك حتى تقنعه، ربما يهديه الله سبحانه إلى طريق الخير ويرحمنا بصلاحه واستقامته، سأكون واضحاً معه، ربما يخفي عني شيئاً، سأقول له يا ولدي أنا حاضر لكل شيء ولا أبخل عليك، لكن حاول أن تكون عاقلاً من أجلي وأجل أمك، لا بل من أجلك ومن أجل سمعتك ومستقبلك، لن أتركه يضيع مهما كان الثمن.

يبدو أن هذا القرار قد أراح المطوع من هواجسه، لم تكن أم جاسم في البيت، ربما ذهبت إلى أم خالد، لا بأس، سأريح رأسي قليلاً، أشعر بالنعاس، لأنني لم أنم بعد صلاة الصبح، «يا الله يا رب توفقنا وترحمنا يا رب العالمين»، تمتم بهذه الكلمات عندما أسند رأسه وراح في إغفاءة عميقة.

عودة الغائب

بعد يومين وصل حمد إلى الديرة على أحد المحامل العابرة، وما أن عمّ الخبر حتى تقاطر الناس وفوداً لزيارته في بيته، كان الجميع يحمدون الله على رجوعه سالماً بعد أن كان في عداد الموتى، لم يكن اهتمام الناس بزيارته نابعاً من أهميته، بل لأنهم يريدون رؤية ميت عاد إلى الحياة، فالناس تتعلق بهذا النوع من الرجال، لأنهم يبعثون في النفوس أملاً ساحراً بقوة الحياة لا يستطيع الناس تفسيره وفهمه لأنه يستعصي على منطق الحوادث ويقهر جميع الظروف اليائسة.

للمرة الأولى وجد حمد نفسه مسموع الكلمات عندما رأى أعين الجالسين حوله متعلقة به مبهورة بقصته التي راح يُسهب فيها ويطيل، والناس تردد بين الفينة والأخرى يا سبحان الله، يا الله، والحي لا تقتله شدة، ومن هذا القبيل، كان النوخذة أبو محمد مضطراً لأن يسمع مع الجالسين حوله قصة حمد دون أن يتاح له، وهو الذي يتصدر الجلسات، أن ينبس ببنت شفة، ورغم أنه أظهر السرور بعودته حين عانقه طويلاً أمام الحاضرين، إلا أن حمد لم يخف تثاقله من النوخذة الذي يبالغ في تقديره والترحيب به في بيته، بل كان يتحاشاه عندما تلتقي نظراتهما وينصرف إلى الحاضرين، والد حمد جلس بجانب ولده معتزاً به أمام الناس، فهذا أول يوم يحس أن لبيته شأناً بين الناس، لم يكن أحد يقصده من قبل أو يهتم بزيارته، حتى في أوقات مرضه، لقد بعث له الناس بالمؤن والزاد ولم يقصروا حتى يستطيع أن يقدم لهم واجب الضيافة.

كان حمد يحس بكبرياء خاص في أعماقه، تبدى أكثر ما تبدى عندما كان يسأله أحد من الناس عن حال ساقه المكسورة التي يعرج منها بشكل واضح، كان يجيب بلا مبالاة وثقة زائدة بأن كسره سيلتئم مع الوقت وسيمشي بشكل طبيعي بعد فترة قصيرة، لم يحاول أحد أن يجادله في ذلك، حتى أبو حسين الذي يعد نفسه طبيباً

بارعاً، كان باستطاعة حمد أن يوهم الناس بكل شيء ما دام قد عاد إلى الحياة، بالرغم من أنه كان يعلم في قراره نفسه أنه سيبقى أعرج باقي حياته كلها، وهذا ما سبب له شرخاً في أعماقه وزاد من حقده على النوخذة أبي محمد!، وإذا كان النوخذة قد سبب له كسراً أعطب جسده، فقد صمم حمد على أن يكسر الهالة التي تحيط بالنوخذة، لا بد من تدمير سمعته بين البحارة الذين فقدوا زملاء لهم بسبب مكابرة شخص عنيد.

لم ينس حمد تلك الكلمات التي أذاقته المرارة أمام البحارة عندما شتمه أبو محمد وأظهره كأنما هو رجل كسول لا هم له إلا تعطيل الآخرين عن رزقهم من أول الموسم الذي دخله من أجل سداد الدين عن أبيه المرتبط مع أبي محمد، من بداية الموسم وأبو محمد يكيل له النظرات المهددة، خاصة عندما يرى تجمع البحارة حوله وتلهفهم لأحاديثه الساخرة، وكثيراً ما فض تلك الجلسات بأمر مفتعل صادر من بين شفاهه، كل ذلك حتى لا يتيح لأحد غيره أن يتجمع الناس حوله.

رحمةُ الله على أبي خالد، لم يكن مثل أخيه أبي محمد، صحيح أنه لم يعاشره كثيراً، لكن أباه يذكره بالخير دائماً، فقد رافقه في سنوات كثيرة، وعندما وصل أبو خالد إليهم كان يتعمد السلام عليهم واحداً بعد الآخر، لقد قتل أبو محمد أخاه كما قتل باقي البحارة، والشاهد هو أنا حمد، لن أترك أحداً دون أن أخبره بما فعل أبو محمد قبل أن يضرب الهواء السفينة وتحدث الكارثة.

لكن ما الذي سيفعله حمد بعد هذا كلّه؟! فالرزق يبقى هاجساً أساسياً بعد كل الأحلام المخزونة في أعماق الإنسان، لا يستطيع أن يحصل على لقمة عيش بتحطيم سمعة النوخذة أبي محمد وحسب، عليه أن يسعى ليجد عملاً يتناسب وعرجه، قبل كل شيء سيبتعد عن البحر بعملٍ على البر، وإذا كان لا بد منه فليكن عملاً على سفينة تجارية.

جميع هذه الأعمال التي يقترحها لا تحقق له ما يكبته في داخله من طموح إلى القوة والنفوذ، على المرء أحياناً أن يتقبل واقعه مهما كانت مرارته على النفس، المستقبل مخبوء والحوادث لا تتكشف فجأة عن مغزاها، بل يأتي كل ذلك بالتدريج.

من يدري؟ ربما جاء يوم يكون فيه حمد صاحب النفوذ الأول في الفريج، هذه الفكرة راقت كثيراً له وهو يجلس مستنداً إلى الحائط وقد ابتعد تماماً عما يدور في المجلس من حديث عابر، لكنه خلال ذلك يتذكر أمراً جعله يستوي في جلسته، تنبه له بعض الحاضرين عندما هم بالحديث:

- تدرون يا الربع شللي جفته في سوق البحرين؟

يلتفت الحاضرون بعضهم إلى بعض باستغراب، فقد كانوا يتوقعون أن يحدثهم عن أمر جديد تذكره في قصته عندما صارع الأمواج، لكن حمد يطلع عليهم بأمرٍ لم يخطر لهم على بال..

- أنا شفت بعيني ذي عند واحد من التجار اللولو الصناعي.

كان المطوع أول من تكلم وسط ذهول الجميع:

- شفت يا بو حسين أن كلامي وكاد، هذا حمد بعد شاف، شاف اللولو الصناعي.

الجميع استنكروا ما يسمعون واتهموا حمد بالتخريف وأنه يريد أن يعبث بهم، ما عدا المطوع الذي تذكر ما قاله له ولده جاسم في أحد الايام إن بلاداً بعيدة اسمها «الجابان» تنتج لؤلؤاً صناعياً وسوف ينزل إلى الأسواق، لم يحتمل أبو حسين أن يؤكد المطوع ذلك، بل التفت إلى النوخذة أبي محمد كي يقول كلمة حاسمة في هذا الأمر، في الوقت الذي كان أبو محمد يتمنى لو خلع حذاءه وضرب به حمد على رأسه المخرف، لكن حمد يتابع دون أن يأبه لجو الاستنكار الذي حوله وقد أحس بنشوة غامرة لإحساسه بالتفرّد:

- اللولو ذي محد يقدر يفرقه عن الطبيعي، ورخيص وايد.

هنا يجد أبو محمد نفسه مرغماً على أن يقطع مجاملته المصطنعة لحمد، يقف مستعداً لمغادرة المكان بازدراء بعد أن أشار لأبي حسين كي يتبعه، وقبل أن يذهب وبوجه يكاد يفترس حمد:

- يا ليتك انصبت في جسمك بس، كنا لاقينا لك علاج، لكن الظاهر إنك انصبت في عقلك بعد.

ينسحب أبو محمد ومعه أبو حسين وكثير ممن لا يجرؤون إلا أن يكونوا ظلاً لذوي النفوذ، بينما بقي المطوع الذي رأى حمد وكأن ذلك لم يؤثر فيه بتاتاً، بل تبسم بطريقة ساخرة كأنما يتوعد الجميع، غادر المطوع المكان بعد أن هنأ حمد بالسلامة مرة أخرى كأنما يحاول مواساته وهو يقول له:

- كان الأولى ما تييب طاري هالسالفة يا ولدي.

ظهر الغم واضحاً على وجه الأب الذي انفض العز من حوله، تطلع إلى ولده بنظرة ملؤها العتب جعلت حمد يلملم نفسه ويذهب إلى حجرته غير عابئ بشيء، ربما أضافت تلك الحادثة التي نجا منها حمد بأعجوبة لديه إحساساً خاصاً بأن له قدراً خاصاً يحميه، ربما كان طموحه المختزن في أعماقه بأشد الحاجة إلى مثل هذا الإحساس الجديد.

• • •

كانت الجلسة في بدايتها، والمطرب ما زال صوته في عنفوان لياقته، الحاضرون يشاركونه بالترداد والتصفيق، بينما بقي أحدهم خارجاً يرقب المنطقة الموحشة حتى لا يكشفهم أحد وتحدث فضيحة ينقلب فيها عالي البيت على سافله، كانت جلسات الطرب مستنكرة في ذلك الوقت استنكاراً شديداً بين الناس، لا يجرؤ أحد على إظهار ذلك علناً، حتى أن المطرب وصل إلى البيت وهو يخفي عوده تحت البشت، المدعوون

تسللوا إلى البيت في عتمة الليل، أصوات الطرب والغناء كانت تسمع بشكل خافت في الخارج لأنهم أغلقوا باب الحجرة بشكل محكم، لم تكن هناك نوافذ للضوء ليبقى العتم والصمت ستاراً يحرس من ناداهم الليل لجلسة طرب.

كانت عينا جاسم متعلقة بأوتار العود التي لعبت بها أصابع المطرب ببراعة، ليته يستطيع العزف بهذه الطريقة، منذ فترة يختلس الأوقات كي يعلمه صديقه راشد العزف على العود، لكن ما يتعلمه اليوم ينساه تماماً بعد يومين، فلا بد من التمرين، وهذا مستحيل، لأنه لا يستطيع أن يأخذ عوداً إلى البيت، فسوف يكسره أبوه وتحدث فضيحة أخرى لا تقل عن الأولى، وهو لا يريد أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

إن حاله عجيب، حتى أصدقاؤه الذين يجدون وقتاً لطربهم وأنسهم لديهم أعمالهم التي استقروا بها واستطاعوا بطريقة ما التكيف مع واقعهم، على الأقل حسب الظاهر، إنني لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال، وأصدقائي لا يستطيعون التكفل بي إلى ما لا نهاية، وأبي ما الذي جناه حتى أحرجه دائماً أمام الناس بمشاكلي، لماذا تركت المركب لأولاد أبي حسين، لقد عاتبني بذلك حتى أصدقائي وقالوا إن مجنوناً لا يفعل فعلتي، ربما كانوا على حق، فأنا أتصرف كالمجانين أحياناً، لكنني لا أقصد ذلك، حتى أنني ندمت على كل ما قمت به، ولكن للأسف بعد فوات الأوان، لقد غلطت كثيراً بحق فاطمة، غلبتني الشهوة، ليتني ما فعلت ذلك، صديقي راشد نصحني بأن العاقل هو الذي لا يقترب من معارفه، فعلاً، فالإنسان لا ينفضح مع الغرباء، ياه، لم يستطع جاسم البقاء داخل الحجرة التي راح كل واحد فيها إلى عالم نسيانه بينما المطرب لا يتوقف عن الغناء، لم يهتم أحد بانسحابه من الجلسة، كان يشعر بالضيق ويتمنى أن يلفحه الهواء البارد، ذهب يمشي على غير هدى مقترباً ما أمكن من جدران البيوت حتى يستطيع الاستناد عليها فيما لو زلقت رجله أو اصطدم بشيء في تلك الليلة المعتمة، ما الذي يجعله متضايقاً هكذا حتى ينسحب من الجلسة فجأة مع أنه كان منسجماً في بدايتها، تمنى لو يوافقه أبوه ويثق به من جديد، سوف يعود إلى

المركب ويأخذه من صلاح ابن أبي حسين، لمَ لا؟ إن صلاحاً ليس أحق مني بالمركب، لكن هل يصدقني أبي؟ حتماً لا، فهذه عادته، خيبت ظنه أكثر من مرة، ورطته كثيراً، أمي قالت لي بالأمس إنه يريد التفاهم معي بأي شكل، يا الله ما أطيب والدي، إنه مستعد دائماً لكي يسامحني، ماذا لو كنت ولداً لأبي حسين، هل كان يسامحني حقاً؟ مستحيل! سأنام الليلة في البيت وأسبق أبي إلى صلاة الفجر، عندما يراني في المسجد لن يعاتبني أبداً، بل يتهلل وجهه ويعفو عني، إنني لا أستطيع أن أجعله غاضباً مني، أنا لا أريد إيذاءه أبداً، لن أقطع صلتي بأصدقائي، أستطيع مداراة الأمر، نعم أستطيع ذلك، خسارة تلك الجلسة، المطرب صوته كريه، إلا أنه فنان في العزف على العود، ليتني أتعلم العود، ما أكثر ما أتمنى، ما أقل ما أحصل عليه، حقيقة قالها بأسف، توقف هنيهة عن المسير حين اقترب من البيت، الفريج موحش في عتمة الليل، كل شيء ساكن، الجميع ينام بعد صلاة العشاء، لم يكن باب البيت مغلقاً، دلف إلى حجرته، وجد وراء الباب عشاء بسيطاً وضعته له أمه قبل أن تنام، ما أطيب أمي، إنها لا تستطيع النوم دون أن تترك لي عشائي، أكل بعض اللقيمات الباردة رغم عدم إحساسه بالجوع، لا يهون عليه أن يترك عشاء الوالدة دون أن يصيب منه شيئاً، كأنما يتبرك به، وضع الصحون خارج الحجرة، ترك بابها مفتوحاً حتى يسمع صوت المؤذن، أغمض عينيه وقد أحس بنوع من الراحة للمرة الأولى في حياته، ينوي أن يفعل شيئاً محدداً، للمرة الأولى يبعد أفكاره التي لا تتحقق من أجل أفكاره التي يمكن تحقيقها وتجعله متفاهماً مع من حوله.

لم يسعد المطوع مثلما سعد عندما رأى ولده جاسم وقد سبقه إلى صلاة الفجر دون أن يضطر إلى إيقاظه، دعا الله سبحانه أن يأخذ بيده ويهديه، أثلج قلبه أكثر أن جاسم اقترب منه آخر الصلاة وقبل رأسه ويده طالباً أن يسامحه، واعداً أن لا يكررها ثانية. أجلس المطوع ولده جاسم إلى جانبه وهو يطلب الهداية له ويكرر ذلك بصوت لا يخلو من الشفقة.

- اسمعني زين يا ولدي، عفى الله عما مضى، واحنا عيال اليوم، أنا اللي أبغيه منك تعقل وتشوف مصلحتك ويكون لك كلمة بين الناس.

سبق لجاسم أن سمع هذه الكلمات على لسان أبيه، لكنه كان يتوقع ذلك..

- إن شاء الله يبه بكون عند حسن ظنك.

- أنا ما أبي كلام يا جاسم لأني شبعت منه، أبغي فعل.

- يبه، أنا مستعد أرجع للمركب اشتغل عليه.

لم تعجب هذه الفكرة المطوع، بل لاقت استنكاراً:

- شلون عقب ما اتفقنا مع صلاح، لا يا ولدي، المركب لا تفكر فيه، وصلاح يشتغل عليه الحين، وبصراحة أنت ما تصلح للبحر.

فعلاً لم يكن جاسم يصلح للبحر، هذا يعرفه عن نفسه قبل كل الناس:

- زين يبه، أنا مستعد حق كل شيء تشور به عليّ.

لا يعجب المطوع هذا الاستسلام من ولده، إنه إما خارج عن إرادته أو مستسلماً تماماً لها..

- يا ولدي جدامك يومين ثلاثة تشاور نفسك فيهم وتهتدي إلى رأي يفيدك، ذي شغلك يا ولدي وانت أدرى باللي يصرفك.

- إن شاء الله يبه؟

- وفيه شيء مهم بعد.

- شنهو يبه.

- اتزوج وتخليني أشوف عيالك، ان جان تبغي رضاي.

- أتزوج..؟

- اي يبه، البيت واسع علينا، والزواج يخليك تستوي راعي بيت، والعروس بارزة.

- منهي يبه؟!

- أنا تفاهمت مع أمك وجفنا إن سلمى بنت بو حسين فاهمة وتصلح لك، وأبوها قنوع يدور الزهايد[1].

- يبه أنا..

- أبغي الزبدة، خلاص يا ولدي صار لازم تكوّن نفسك وتصير ريّال، هاي اللي أبغيه منك.

- إن شاء الله يبه، على أمرك.

لم يكن بوسع جاسم متى أراد التفاهم مع أبيه أن يقول أكثر من ذلك، واستقر الرأي له أخيراً أن يعمل في السوق عند أحد التجار الكبار الذي وافق إكراماً لأبيه المطوع.

للمرة الأولى يفرض على نفسه أن يفكر بسلمى بنت أبي حسين، إنه لا يعرف عنها شيئاً، كانت متحجبة داخل بيتها، لكن الذي يعرفه هو أن أباها يتمنى اللحظة التي تفارقه فيها ليتخلص من همها، لذلك فهو لن يطلب كثيراً من المطوع عندما يخطبها لولده جاسم، أما من جهة المطوع فقد أصر على الزواج لأنه يرى فيه عاملاً يساعد ولده على عدم الوقوع في الخطأ مرة ثانية.

لم يستغرق الأمر كثيراً، تم التشاور كما هو العرف، وفي مدة أسبوع كانت سلمى قد زوجت من جاسم، أما سلمى فقد رأت في هذا الزواج فرجاً من السماء بعد أن نغّصت عليها خالتها عيشتها في البيت وسببت لها شتى أنواع الضرب والمهانة، كان

---

(١) الزهايد: الأشياء البسيطة.

أبوها لا يسمع كلاماً بعد كلام زوجته، لم تكن تعرف جاسم زوجها، لكنها تعرف المطوع وامرأته أم جاسم التي تحبها، كانت صغيرة في السن، في حدود الرابعة عشرة من عمرها، وراحت النسوة يفهمنها ما هي جاهلة به في أمور الزواج.

في تلك الليلة بدا لجاسم أنه مقدم على تحول كبير في حياته، وقد أمتعه أكثر من رضى المجتمع عنه أنه التقى للمرة الأولى فتاة جاهلة مستعدة لتنفيذ كل رغباته دون أن تعي شيئاً سوى أنها تجد هذا البيت الجديد الذي انتقلت إليه فرصة للحياة عليها أن تحافظ عليها، وجدت في نزوات زوجها صدمة لها، لكنها احتملت كل ذلك لأنها أصلاً لا تعرف ما الصحيح وما الخطأ في العلاقة الزوجية، ولم يعد يهمها الأمر ما دام زوجها راضياً عنها، ألم تنصحها النسوة قبل الزواج أن ترضي زوجها ولا تخالف له أمراً، ها هي تفعل ذلك وهي ترتدي قناع السعادة!!.

• • •

بدأت فاطمة تشعر في الأيام الأخيرة بأشياء غريبة لم تكن تحدث لها من قبل، مما جعلها تنطوي على نفسها، بدأت تكره أشياء كثيرة كانت تحبها، عدا عن الدوار الذي يصيبها بين فترة وأخرى، لكن الأغرب هو أنها لم تعد تطيق أن يقترب منها زوجها خميس الذي كان لا يفارقها ليلاً أو نهاراً، حتى أنها اشتكته إلى أم جاسم التي بدورها لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى أنها أخبرت المطوع ليفهم خميساً أن عليه أن يراعي زوجته قليلاً، وبصبر على سذاجة خميس حاول المطوع أن يفهمه الأمر وألا يترك المجال لتدخل أبي حسين حتى لا يتخذها وسيلة للنكتة والضحك على خميس. تفهّم خميس نصيحة المطوع، إلا أنه لم يفهم تصرفات فاطمة تجاهه بتاتاً، إنها تكاد تتقيأ عندما يحاول الاقتراب منها، عبثاً حاولت فاطمة إفهامه أنها غير غاضبة منه ولم تتغير نحوه، إنها شخصياً لا تدرك ما الذي حدث لها، لكن وجه خميس ظل يحمل الخوف والعتب، لم تجد فاطمة بُداً من اللجوء إلى أم جاسم لتشكو لها حالتها، ودهشت وهي ترى أم جاسم تتبسم ويستبشر وجهها وعليه علامات الرضى، لم تدع

أم جاسم فاطمة في حيرتها، بل مسحت على وجهها بحنو وقالت لها إنها حامل، لم تصدق فاطمة نفسها وهي تسمع بشارة أم جاسم لها بالولد، اغرورقت عيناها بدموع الفرح وهي تشعر للمرة الأولى في حياتها أن لها كياناً ينمو ويمتد إلى المستقبل، أوصتها أم جاسم أن تعتني بنفسها وأن لا ترفع الأشياء الثقيلة وتبتعد عن غسيل الثياب حتى لا تضر بالجنين الذي تحمله، ذهبت فاطمة إلى البيت ممتلئة للمرة الأولى بمشاعر جديدة لا عهد لها بها، وكم كانت فرحة خميس وهو يسمع من فاطمة أنه سيكون أباً عما قريب، وبالدرجة الأولى انزاح عن صدره هم ثقيل لم يكن يستطيع تفسيره في البداية، وهو تغيّر فاطمة تجاهه، أخذ يلهج بالدعاء، لم تسعفه الذاكرة بالكلمات فاقتصر على ذكر الله، صار يدور هنا وهناك، إلى أن استوقفته فاطمة مهدئة إياه، جلس إلى جانبها ينظر إليها خلسة، يكلم نفسه، هل سأصير أباً..؟ سينادونني في الفريج بعد الآن بأبي ..؟ ينظر إلى فاطمة بعد أن أعياه الاسم، يطلب مساعدتها، فتفهمه أن ذلك حرام، لا يجوز ذلك قبل مجيء الولد، يهز رأسه موافقاً، تخبره فاطمة ما أوصتها به أم جاسم من أجل الجنين، ينتفض خميس معاتباً فاطمة قائلاً إنه سيتكفل بكل شغل البيت إلى يوم ولادتها وقيامها بالسلامة، لم يحاول خميس في تلك الليلة أن يقترب منها، بل كان ينظر إليها برضا وأمل وهو يستلقي بعيداً عنها بينما كانت هي تسرح في آمال بعيدة.

• • •

لم يترك حمد أحداً من البحارة إلا وأوغر صدره على النوخذة أبي محمد وروى له ما حدث حقيقة على ظهر السفينة قبل الكارثة، وكيف أن عناد النوخذة هو الذي قتل البحارة، ولعل أكبر الأثر قد جناه عندما فتح هذه القصة أمام أهل الضحايا.

كان حمد يمتلك لساناً ساخراً يعرف كيف ينفذ بكلماته إلى الآخرين، ومن أجل تطويق النوخذة تماماً بالاتهام، هداه تفكيره كي يرسل والدته بالسر لزيارة أم خالد لتحكي لها قصة النوخذة الذي قتل أخاه والبحارة، وفعلت أم حمد ما قاله لها ولدها،

مما جعل الدنيا تنقلب في عيني أم خالد، هل من المعقول أن يكون أبو خالد ضحية أخيه أبي محمد، ورغم أن أشهراً خمسة قر مرت على وفاته، إلا أن هذا الخبر جعل المصيبة وكأنها حدثت اليوم، انسحبت أم حمد بخوف وهي ترى أم خالد تضرب على رأسها بكلتا يديها وتبكي بحرقة قائلة ليتني ما سمعت هذا الخبر، ليتني ما سمعت به.

في ذلك اليوم ضربت ولدها خالداً الذي تشفق عليه من النسيم، ضربته دون مبرر سوى أنه قال لها إنه كان في بيت عمه، وأمرته أن لا يذهب بعد اليوم إلى بيت أحد دون مشورتها.

بدا بعض البحارة الذين سبق لهم العمل مع النوخذة يتعللون بالأعذار المختلفة لكي يتخلصوا من ارتباطهم به هذا الموسم، بينما لم تؤثر كلمات حمد في بعضهم الآخر الذي بقي متحمساً للعمل معه، حتى أن بعضهم أنكر عليه هذا الموقف، لأنه يعد من نكران الجميل والمعروف تجاه أبي محمد الذي لم يقصر مع أحد، لم يأبه حمد بموقفهم، بل واجههم بلسانه الساخر واتهمهم بالجبن لأنهم ارتضوا لقمة الذل من رجل تسبب في مقتل زملائهم.

وصلت هذه البلبلة إلى مسامع أبي محمد عن طريق أبي حسين، جُن جنونه عندما تأكد من ذلك بنفسه، كيف يتسنى لرجل عابث لا وزن له في الديرة أن يتصدى لسمعة النوخذة أبي محمد، إنه سيسيء إليّ، والناس قليلة عقل قد تصدق مجنوناً مثله، بالأمس جاء بعض البحارة يتعللون بالأعذار كي يفكوا ارتباطهم معي للموسم القادم، ماذا يريد حمد هذا حقيقة؟ فلوساً؟ لو كان مؤدباً لعوضته أو وجدت له شغلاً يناسب وضعه على محملي، لكنه الآن لا يستحق مني غير البصاق، سأعلمه كيف يكون طويل اللسان على أمثالي.

عجيب أمر حمد، ما الذي يدفعه إلى هذا العناد رغم أنه لا يملك شيئاً في هذه

الديرة يجعله يتباهى به غير حظه الذي أنجاه من تلك العاصفة، الجميع يحبون جلسته ويستظرفونها عندما ينطلق لسانه على سجيته، لكنه حين بدأ يطال الكبار صاروا يتحاشونه، بعضهم نصحه قائلاً إنه يعرف ما يراهن عليه لكنه لا يعرف أبداً كم سيكلفه ذلك!.

كان أبو حسين أكثر المعنفين لحمد، وكان لا يترك فرصة دون أن يتظاهر بالغضب أمام النوخذة لوقاحة حمد الذي سمح لنفسه أن يتجرأ على ولي نعمته، وأبو حسين رجل وفيّ ومخلص لأصحاب النفوذ في الديرة في الحق والباطل، وهو أمامهم رجل يعرف الأصول ولا يتجاوز حدوده أبداً، لكنه لم يتوقع أن يسبه حمد بلسانه السليط غير آبه بحرج أبي حسين الذي أُفحم ولم يُحِر جواباً أمام وقاحته، ولولا أن المطوع تدخل وأسكت حمد لأغمي على أبي حسين الذي راح يندد بالزمان الذي جعل من الناس «الدون» تتجرأ على من هو أرفع منها.

من ناحية أخرى لعبت قصة حمد دوراً مهماً لدى أم خالد التي راحت تنتظر عند الباب مروره لتتأكد بنفسها مما سمعته على لسان أمه وجعل كل شيء ينقلب أمام عينيها، ولما شاهدته يجلس ضاحكاً مع خميس عند الجليب لبست «دفتها»[1] بسرعة واتجهت له فانتبه لها ونهض من مكانه باحترام وتهيب، لم تطل الحديث، فبعد السلام حلفته بدينه إذا كان ما سمعته على لسان أمه صحيحاً، فحلف لها حمد، بينما كان وجهها يرتجف يحاول حتى اللحظة الأخيرة أن يبعد هذه القصة عن أن تكون حقيقة، استدارت لترجع من حيث أتت بينما خميس ينظر إليها ولحمد مذهولاً لا يدري شيئاً مما يحدث، بعد انصرافها سأل حمد عن الأمر، فنظر إليه حمد ضاحكاً، وباستصغار واضح أدار له ظهره وراح يعرج إلى البيت، هناك وجد أباه والأسف يملأ وجهه عندما استفسر منه السبب، قال له أبوه معاتباً:

---

(١) الدفة: عباءة نسائية.

– يا ولدي إحنا ما صدقنا ترجع لنا سالم ونرفع رأسنا فيك جدام الناس حتى خربطت علينا هالفرحة، فوق حدر بهالسالفة التي يبتها عن النوخذة بو محمد، أنت شتبغي في هالسالفة، تبي تقطع رزقنا وتكدر عيشتنا؟ ليتك ما رجعت.

لم يجب حمد أباه، بل انسحب وهو يكاد أن ينفجر من الداخل، كأن كل ما يهم أبوه هو هذه الأهمية التي أحسها لأول مرة في حياته وهو يرى الناس تدخل بيته أثناء رجوع ولده سالماً، هذا المسكين الذي تعود على الرضوخ من أجل لقمة العيش، لكن هذا زاد حمد تصميماً وعناداً، حتى أنه عندما ذهب إلى المسجد لصلاة العشاء تعمد أن يقف غير بعيد عن أبي محمد الذي كاد أن يقطع صلاته أكثر من مرة وهو يتذكر حمد وهو يوجه بين الحين والآخر نظراته إليه بتحدٍّ وتصميم، مما جعله «يخربط» في قراءة الآيات.

في تلك الليلة خرج حمد من المسجد والعتم يلف المكان، وكان مشغولاً عن وعورة السكة بذلك الحلم الذي كثيراً ما راوده، وهو أن يصبح يوماً شخصية نافذة يلتجئ إليها الناس، كيف يتسنى له أن يحلم هكذا وهو لا يملك شيئاً في الواقع؟! هل كل الفقراء يحلمون بهذه الطريقة؟ أم أنه يتميز عن سائرهم بهذا الحلم؟! أمتعه ذلك الحلم وشغله عن عتمة الليل، كثيراً ما عرقلته الحفر، لكنه كان يستند إلى الحائط الذي يمشي إلى جانبه، شغله ذلك الحلم أيضاً عمن يترصده في تلك الليلة، كان هناك رجلان من البحارة يحملان عصياً ثخينة يختبآن في نهاية السكة، ولم يدرِ إلا والضربات تنهال على سائر جسمه، لم يستطع أن يدافع عن نفسه، فقد أخذته المفاجأة، منعته الكبرياء المختبئة في داخله أن يصرخ طالباً النجدة من الجيران، لم تطل به الأفكار في ذلك الموقف، فسريعاً ما سقط على الأرض مغشياً عليه والدم ينزف من فمه ورأسه والكدمات تملأ جسمه، خاف الرجلان أن يقتلاه لو ضرباه أكثر فتسللا هاربين من المكان بعد أن سمعا أصواتاً في أول السكة لأناس عابرين، فوجئوا بحمد ملقياً على الأرض فأخذوه إلى البيت، استقبلهم ذلك الأب المذعور وهو يرى

ولده حمد محمولاً، ولم يجرؤ على البكاء أمامهم، كأنما كان يخشى أن يحسب عليه ذلك رفضاً للظلم الذي لحق بولده.

أخذ الناس في صباح اليوم التالي يتأولون القصة، كانت تلك الحادثة جديدة على حياة الفريج، وشهودها ذلك العتم الذي كان يلف المكان، وتلك الضربات الموجعة التي تركت آثاراً لا تنمحي في حياة حمد، أكثر الناس كانوا يقولون إن حمد ذاق ثمرة كبريائه وعناده، لم تخل الكلمات تلك من شماتة جارحة يطلقها أولئك الذين يتظاهرون بالعطف عليه وعلى حاله الذي آل إليه، كانت كل الهمسات تتهم جماعة أبي محمد النوخذة، لكن أحداً لم يجرؤ على المجاهرة بذلك، عدا عن أن أحداً لم يهتم حقيقة بتقصي هذا الأمر، كان اللوم يقع على حمد في النهاية لأنه تطاول أكثر من اللازم، لم يرضِ الأمر المطوع الذي ذهب من فوره لرؤية حمد وقد تكوم في زاوية الحجرة على فراشه بينما أمه المسكينة تضع له الكمادات على رأسه وبعض أنحاء جسده ودموعها تملأ وجهها من الحسرة على ولدها الذي لم تكتمل فرحتها برجوعه سالماً، أما أبوه فقد جلس غير بعيد عنه لا حول له ولا قوة، كان مريضاً، حاول الوقوف للمطوع الذي أجلسه إشفاقاً عليه وجلس إلى جانب حمد ورأى آثار الضرب الشديد الذي لحق به، لم يكن حمد يستطيع أن يفتح عينيه من الألم، كان المطوع يهز رأسه أسفاً وإشفاقاً عليه، وعندما سأله عمن قام بهذه الفعلة هز حمد رأسه نافياً معرفته أحداً منهم، كان كل ما يريده حمد في تلك اللحظة هو الاستسلام للنوم الذي يراوده بين الفينة والأخرى، خرج المطوع بعد أن طيّب خاطرهم ووعدهم بأنه لن يسكت عن هذا الأمر، لكن لمن سيتوجه بالاتهام واللوم؟! لماذا يحشر نفسه في مسألة لا يدري أولها من آخرها؟ لكن هذه الفعلة لا يرضاها الله رب العالمين، ولا أحد ممن في قلبه رحمة، كادوا أن يقتلوه دون أن تأخذهم به شفقة، أيكون أبو محمد وراء ذلك؟ هل هذا معقول؟ إنه لن يسامحه على ذلك لو كان هو حقاً، لكن حمد أولى بتوجيه الاتهام، وهنا قاضٍ لمثل هذه الأمور في الديرة، لا حول ولا قوة إلا بالله، شيء مخزٍ أن تصل

الأمور إلى هذه الدرجة.

أكثر الناس كان لديهم شعور بأن حمد هو الذي جلب لنفسه تلك المصيبة لأنه تطاول أكثر من اللازم ولم يستمع إلى النصيحة بأن يبتعد عن طريق من هم أقوى منه جاهاً ونفوذاً، لكن عدداً غير قليل كان متعاطفاً معه في السر، أشفقوا على حاله وأخذت بعض المؤن تصل إلى بيته من هنا وهناك، أكثر الناس المتعاطفين أخفوا شخصياتهم واكتفوا بإرسال الحاجيات المختلفة، وكانت أم خالد هي الوحيدة التي أرسلت بشكل علني خميساً يحمل كيساً من الطحين، بينما كان خالد ابنها يجر كبشاً ثميناً إلى بيت حمد، أما أبو حسين فذهب من فوره لإخبار النوخذة بذلك، وكأنما كان يريد تحريضه واستفزازه أكثر من إخباره، ورغم الذهول الذي أصاب النوخذة وهو يسمع الخبر، إلا أنه تماسك وضغط على الحروف حتى لا يظهر الغيظ الذي يفترسه وكان واضحاً في كلماته:

– أم خالد سباقة للخير والمعروف الله يجزيها الخير.

لم يستطع أبو حسين أن يكتم دهشته لما يسمع، لكن أبا محمد أردف قائلاً وعيناه تلتمعان بفكرة جديدة:

– أم خالد سوّت اللي لازم أنا أسويه، أكيد هي سمعت شيقولون بعض الناس إن احنا ورا سالفة حمد، قامت هي وغطت الموضوع جدام الناس.

– قولك جذي يا بو محمد.

– أكيد، أم خالد ذكية وعاقلة وقدرت تداري الموضوع أحسن منّا كلنا.

يحكّ رأسه أبو حسين وهو يحاول إقناع نفسه بهذا المغزى، بينما أبو محمد يتابع قائلاً بحماس:

– اقول يا بو حسين، أبيك تودي حق بيت حمد قلة تمر وكيسين عيش على حسابي.

- بس..

- يا بو حسين الأمور تبي سياسة، وانا أجوف جذي أحسن طريقة علشان ما تبقى اي كلمة في حلوج الناس.

- إن شاء الله.

يذهب أبو حسين تاركاً أبا محمد الذي تلونت أساريره وغدا الآن وجهه منشرحاً بعد أن كاد يفترسه الغيظ أول ما سمع الخبر، أما أبو حسين فقد ذهب خائباً يحك رأسه وهو يحاول إقناع نفسه بما قاله أبو محمد، ربما، من يدري؟، لعل أم خالد كانت على حق فيما فعلته، فالأمور تتطلب السياسة، ربما كان هذا التعليل من أبي محمد لأنه بالأساس معجب بشخصية أم خالد، يحترمها جداً، تمناها لنفسه لولا أن أخاه أبا خالد سبقه إليها، لكن ما الذي يمنع الآن زواجي بها، أليس ذلك واجباً كي ألم بيت أخي تحت جناحي، إن زوجتي لا تنجب غير البنات، وحين أرى أم خالد أتحسر على حياتي، صحيح زوجتي طيبة، لكنها غافلة ومهملة لواجباتها، لا يهمها شيء غير أن تملأ بطنها، تأكل «جدر هريس» لوحدها، عندما تتكلم أجد نفسي مضطراً لإسكاتها لثقل كلماتها على النفس، صحيح أنها تحاول إرضائي بشتى السبل، لكنني لا أطيقها، إن أحداً لا يستطيع أن يعاتبني لزواجي بأم خالد، فهو واجب عليّ، وأنا أتمنى ذلك، لا بد أن أطلبها لنفسي قبل موسم الغوص.

يعلم الله كيف كانت حالة حمد المنطوي على نفسه في زاوية الحجرة وهو يرى غير مصدق الأغراض التي أرسلها النوخذة أبو محمد، تمنى ساعتها لو تنشق الأرض وتبتلعه لهول المفارقة الساخرة التي يراها بأم عينيه وهو لا يقدر على الكلام، وما هاله أكثر أن يرى أباه يتقبل ذلك بفرح طفل يقدم له أبوه هدية في العيد، كأن هذه الأغراض مسحت قلق الأب على مصير ولده حمد، إنه مستعد لكل شيء، إلا أن يغضب عليه النوخذة أبو محمد، لكن الذي فتك بحمد تماماً وجرحه للعظم أن يجد أباه يذهب

في تلك الليلة إلى مجلس النوخذة للسلام عليه وشرب القهوة عنده، كأنه يتوسل ضمناً من أجل ولده حمد، أما النوخذة فوجد في ذلك مبرراً لغروره ولسروره الضمني، لأنه عرف كيف يصطاد هذا المسكين المحطم أمامه وأمام الناس، راح النوخذة يتألم أمام الحاضرين لما حدث لولده حمد، لكنه في الوقت نفسه لام الأب لأنه لم يربِّ كما ينبغي، كان الأب يسمع كل ذلك برضى وتقبل كاملين دون أدنى اعتراض، إلى أن قال له أبو محمد أخيراً:

- حمد ولدي مثل ما هو ولدك، صحيح هو غلط عليّ ولا بغيتها منه، لكني ما أرضى يصير له اللي صار، وخلك واثق باتحرى بنفسي الأمر، ولا عرفت منهو اللي سوّى هالفعلة الشينة بعاقبه بنفسي.

الناس الذين كانوا في المجلس ساعتها رددوا بين الحين والآخر كلمات الإطراء على النوخذة صاحب المعروف والنخوة، أما أبو حمد فقد انشرح صدره وزال قلقه ونسي ولده دفعة واحدة، وخرج من المجلس وهو مقتنع أنه قصر في تربية حمد كما يجب، لا بد أن أمه هي التي خربت تربيته، ليلتها بكى حمد أمام أبيه وهو يراه يرجع من مجلس النوخذة، بينما أبوه يعاتبه ويندد به وبتربيته، أما أمه فراحت تبكي إلى جانب ولدها الذي لملم نفسه وخرج رغم الرضوض التي في جسمه ليجلس وحيداً أمام البحر، هل كان عليه أن يلعن حظه والناس تتكلم عنه كحكاية تروى للأطفال، كيف يلعن هذا الحظ..؟ إنه متهور لدرجة الموت، لن يعمل مع النوخذة أو ينتظر رضاه مهما وصل به الحال، ليس له مكان في الفريج ولا في الديرة ما دام الذي يشتهيه وتفترسه الأحلام ليل نهار من أجله لن يتحقق في ظل هذه الظروف، إنه يطيق كل شيء إلا اليأس فيما يتمناه، أحس بصوت الموج يعلو ويضرب الشاطئ إيذاناً بفترة «السقى»(١) كأنما شوش عليه صوت الموج استرساله، ترك المكان ليكد في طريق العودة إلى بيته، تحمله قدماه بصعوبة، السكة معتمة إلا من بصيص ضوء ينبعث من بيت البحارة،

(١) السقى: المد.

اتجه إليه يدفع نفسه دفعاً، كان بحاجة إلى من يجلس معه وينسيه وحشته التي تعانيها روحه.

في بيت البحارة استقبل الجميع حمد رغم استغرابهم مجيئه، أكثرهم كان يعطف عليه ضمناً، لكن أحداً لا يستطيع أن يعلن ذلك، سرعان ما قدموا له التمر، صبوا له بعد ذلك القهوة، جلس بصمت على غير عادته في الأيام الخوالي يرتشف القهوة التي لا تتوافر دائماً في تلك الأيام، سمع بعض الكلمات المشجعة، لكنه كان في شغل عن ذلك، اكتفى بأن هز رأسه لمحدثيه الذين انشغلوا عنه بمتابعة حديث أبي سعيد صاحب المركب السفّار، الذي غاب فترة طويلة وظن الناس أنه وصل إلى الهند أو زنجبار، لكن الغرابة أنه كان طوال تلك الفترة يعمل بين شاطئ الأحساء والكويت، لم يهتم حمد بقصته ولا بغيابه، لكن تناهت إلى مسمعه بعض الكلمات التي كانت جديدة عليه، استأجرت المركب شركة أجنبية لتنقل معدات إلى شاطئ الأحساء مثلما استأجرت مراكب عديدة لهذه الغاية، وسيرجع أبو سعيد بمركبه بعد أن يجري عليه بعض الإصلاحات، فقد انكسرت بعض الألواح الخشبية بسبب تحميل هذه المعدات الثقيلة، وستعوضه الشركة عن هذه الإصلاحات، كان البحارة ينصتون إليه باستغراب وهو يحدثهم أنه شاهد بعض السيارات التي تمشي دون أن يجرها شيء وتحمل المعدات إلى البر، بعضهم قال إن ذلك سحر لا شك، أغلبهم لم يتصور تلك السيارة التي لم يشاهدها في حياته، ضحك أبو سعيد وهو يؤكد بثقة أنه شاهدها بأم عينه وخاف الاقتراب منها مثلما فعل أكثر الناس لظنهم أنها تحمل جنياً في داخلها، وهنا تحرك حمد والتفت إلى أبي سعيد الذي انتبه له وهو يسأله عن الغاية من هذه المعدات والسيارات، ماذا يفعلون هناك؟ أجابه أبو سعيد أنهم يبحثون عن «الكاز»، ثم أردف أن الشركة تطلب عمالاً كثيرين للعمل معها في البر وتدفع للعامل روبية ونصفاً في اليوم، ورغم إغراء المبلغ لم يهتم أحد من البحارة بالأمر، فهم لا يريدون ترك ديارهم ومهنتهم التي تعودوا عليها والسفر إلى بر بعيد والعمل في مهنة

لا يعرفون عنها شيئاً تحت إمرة أناس أغراب، ثم قد لا يكون العمل مضموناً لأكثر من أيام أو أشهر، فهل يتخلون عن رزقهم الذي تعودوا عليه وبرعوا فيه من أجل رزق في قلب البر لم يسمعوا به من قبل، إن ذلك كفر بالنعمة التي بين أيديهم، لم يبال أبو سعيد، ولم يكن هو الآخر مهتماً بأكثر من أن هذه الشركة تستأجر مركبه لنقل أغراضها، ورغم أنه لا يفهم تماماً ما الذي تعنيه هذه الشركة، ولا يهمه أن يدفع أحداً للعمل معها في البر، لكنه كان مهتماً بالارتباط ببعض العمال ليساعدوه في التحميل والتفريغ وما شابه.

كان جميع البحارة في وادٍ وحمد في وادٍ آخر، فقد وجد في حديث أبي سعيد عن الشركة منفذاً للتخلص من كل شيء والبداية من جديد، من يدري..؟ ربما لعب حظه لعبته عندما قادته خطاه في تلك العتمة إلى بصيص النور الذي ينبعث من بيت البحارة، أحس حمد بأنه امتلأ فجأة بحافز آخر للانطلاق في مغامرة مع حظه الذي صار حكاية بين الناس.

استغرب أبو سعيد مشفقاً وهو يسمع حمد يطلب منه بثقة متناهية أن يحمله معه للذهاب إلى الشركة هناك على شاطئ الأحساء، كيف لهذا الأعرج أن يقوى على العمل هناك بين تلك المعدات الثقيلة التي رآها، إلا أن حمد أصر على أن ينقله إلى هناك مهما كان الأمر، نظر أبو سعيد إلى البحارة، ربما ينصح أحدهم حمد ويثنيه عن هذه المغامرة، لكن عندما حاول أحدهم أسكته حمد مقاطعاً وهو يقول لأبي سعيد إنه مستعد أن يدفع له الأجرة من أجل نقله إلى هناك قبل أن يصعد المركب، وإذا نقصت الفلوس فسوف يعمل على المركب بأية مهمة يكلفه بها أبو سعيد، عند هذا الحد هز أبو سعيد كتفيه وهو يقول له: جهز نفسك في الصباح الباكر بعد ثلاثة أيام.

كل شيء كان يتوقعه أبو حمد من ولده إلا أن يُصمم على هذه السفرة، هل جن ولده كما أوحى إليه بذلك كثير من الناس الذين سمعوا عن قراره العمل في تلك الشركة؟، يبدو أن تلك الضربات التي تلقاها ولده أثرت فيه، جلس الأب غير بعيد عن حمد الذي راح يجمع أغراضه التي تلزمه للسفر، كيف سيتاح لهذا الأعرج أن يعمل

بين تلك المعدات الحديدية في قلب الصحراء تحت وهج الشمس المحرقة، لا أهل ولا صحبة، هل بلغ به الجنون هذا الحد كي يترك ديرته في الوقت الذي يستعد فيه الناس للسفر إلى الغوص، لا سيما أن النوخذة أبا محمد وعد أن يعفو عن ولده ويقبله بين بحارته، أما الأم فكانت تبكي وهي ترى ولدها يستعد للسفر بصمته الثقيل، كانت تعلم علم اليقين أن الذي دفع حمد لهذه السفرة هو ذهاب والده إلى مجلس النوخذة بعد تلك الحادثة ورجوعه وهو مقتنع أنه قصر في تربية ولده، لكن الأب المهدود المريض ما كان يستطيع شيئاً حيال قرار ولده السفر، ود لو أن حمد يفهم أنه ما فعل الذي فعله إلا لأنه يحبه ويشفق عليه، لكن ما الفائدة الآن وحمد يترك كل شيء وراء ظهره ليرحل بعيداً، حاول أن يكلمه مراراً، أن يتوسل إليه، غير أنه وجد نفسه مرغماً على التنديد به وبسفرته، أما حمد فاحتمل كل شيء من أبيه دون أن يحاول التبرير أمامه، وعندما حان وقت السفر قبل رأس أمه وأبيه الذي جلس متأثراً، لكن لا حول له ولا قوة، وانطلق إلى الفرضة حيث ترسو السفينة «البوم»[1]، كان الطريق إلى البحر خالياً إلا من بعض البحارة الذين يعملون على السفينة، خلال الأيام الثلاثة التي سبقت السفر لم يفكر حمد كثيراً بما هو مقدم عليه سوى أنه للمرة الأولى في حياته يقدم على أمر بإرادته، غير مهتم بأحد سوى رغبته، توقف قليلاً أمام بيت النوخذة، أحس باختناق وبمرارة تملأ كيانه، نظر إلى السدرة الكبيرة الصامتة، لوهلة بسيطة تخيل نفسه جالساً تحتها والناس يحاولون كسب رضاه، هذا الحلم بعيد، لن أتعب رأسي الآن به، أكمل طريقه قبل أن يتأخر عن الرحلة، أخذ الهواء بشراع السفينة يقودها بعيداً عن الشاطىء، جلس حمد على سطحها مستنداً إلى الدقل غير عابئ بالأصوات من حوله، بدأت البيوت تبتعد رويداً رويداً عن ناظريه حتى لم يبق هناك في الأفق غير البحر، عندها أحس بدموعه الساخنة تبلل خديه، لم يعد هناك ما تستند إليه العين، كل ما حولك الآن بحر وأمواج يحملها التيار، أما أنت فوحيد تسكن الوحشة والمرارة قلبك في وسط هذا البحر، هل سيكون حظك هذه المرة مثل رجلك أعرج، أم سيقدر لك أن

---

(١) البوم: من أنواع السفن في الخليج.

ترجع مرة أخرى وقد تعلق الناس بكلماتك لا بخطواتك..؟ هذا الزمان بعيد يا حمد، ربما.. لكنني سأمشي إليه.

من جديد

موسم الغوص على الأبواب والجميع يستعد له، استطاع أبو حسين أن يقنع بعض البحارة لمرافقة النوخذة أبي محمد ليعوّض النقص بعد أن اعتذر بعضهم عن عدم الارتباط به تحت تأثير حمد.

أبو حسين كان مسؤولاً عن الحسابات بتكليف من النوخذة، كما أنه مكلف بتأمين الأغراض واللوازم التي يحتاج إليها النوخذة للسفر، ليست هناك حاجة إلى اكتشاف ما يربحه أبو حسين ضمناً في مثل هذه الأمور، ورغم أن أبا محمد ليس غبياً أو غافلاً عن أبي حسين، إلا أنه كان راضياً تمام الرضى عنه، نظراً لأنه لا يستطيع الاستغناء عن خدماته أبداً، وما المانع بعد ذلك أن يربح قليلاً من ورائي، إنه يتعب كثيراً من أجلي.

خميس كان مشغولاً بإصلاح «محمل» النوخذة، يساعده في ذلك بعض البحارة، ربما كانت الفترة الوحيدة التي يشعر فيها خميس بالزهو هي هذه الفترة، حين يُطلب منه أن يصلح السفن، فهو من أحسن القلافين في الديرة، ما أجمل أن تكون آمراً ناهياً، الجميع يعمل بأمرك، يلبون جميع احتياجاتك، هكذا كان يشعر خميس وهو يمارس مهنته، لديه الآن الوقت الكافي لكي يشعر أنه ملك، فبعد ذلك سوف يرجع خادماً عادياً طيب القلب لا أكثر ولا أقل.

لدى أبي حسين نوع من الفراسة يدرك بها أفكار الآخرين، فيسعى إلى استباق الأمور والمبادرة بمساعدتهم، خاصة إذا كانوا من نوعية النوخذة أبي محمد.

في عصر ذلك اليوم جلس أبو محمد مع أبي حسين أمام الدكان، كانت النسائم الأخيرة لفصل الربيع تودع الديرة، قدم أبو حسين كأس الشاي للنوخذة الذي بدا ساهماً قليلاً، لكنه انتبه لابتسامة أبي حسين الخفية باستغراب:

– اشفيه يا بو حسين؟

- أقول يا بو محمد لا تحاتي وايد في هالأمر.

باستغراب أكثر يسأله أبو محمد:

- أي أمر..؟

يتمهل قليلاً أبو حسين بالجواب، تتسع ابتسامته على وجهه:

- أي امر، تغيشم جدامي يا بو محمد، تبي أقول لك، زين باقول..

- قول وفكنا يا بو حسين.

- أم خالد يا بو محمد.. أم خالد.

يجفل أبو محمد لدى سماعه اسمها، كان فعلاً يفكر بها:

- صج إنك ساحر.

- أبي أفهم انت ليش متأخر لين الحين ما طلبت يدها، باكر تدش الغوص وترد وإلا إهيه متزوجة واحد غيرك، ذي أم خالد يا بو محمد لا تفوتك.

بتردد واضح:

- بس أبغي أجوف المطوع أول وأكلمه في الأمر.

- شعرّف المطوع بالحريم يا بو محمد، اسألني أنا!!

لا يتمالك أبو محمد نفسه ويضحك، يردف قائلاً:

- لا لا، بغيت أسأله إذا كان فيه مانع شرعي ولا لا.

- من وين المانع؟، أنا باقول لك إن ما فيه مانع.

في هذه الأثناء يظهر المطوع قادماً من جهة البيت فيراه أبو حسين:

- اكاهو المطوع وصل.

- السلام عليكم.

- الحق الشاي يا مطوع، حياك.

يستغرب المطوع طريقة كلامها معه، كأنما ينتظرونه لأمر ما..

- ها، بغيتوني في حاجة ولا شيّ؟

يسكت أبو محمد، إلا أن أبا حسين يفضح المستور:

- يا مطوع النوخذة بو محمد يبغي يتزوج مرة ثانية.

- من صجك يا بو محمد، أخاف تكون متأثر بأبو حسين؟

بجدية يجيب أبو محمد:

- بصراحة، بغيت أخطب أم خالد، لكن ابي أسألك بالأول إذا فيه مانع شرعي أو لا.

يهز المطوع رأسه:

- لا ما في أي مانع شرعي.

ينظر أبو حسين لأبي محمد:

- أنا قلت لك ما في مانع.

يفاجأ المطوع بكلام أبي حسين فيعلق ساخراً:

- ما هب قاصر غير تفتي في الشرع يا بو حسين.

لكن أبا محمد يتدخل قبل أن يسخن الجو بينهما:

- الحقيقة يا مطوع أبي اتزوج قبل لا أدش الغوص.

- على بركة الله.

- يا ليت تخلي أم جاسم تكلم أم خالد عني.

- اليوم باطرشها لها، بس أنت يا بو محمد متفاهم ويا اهلك في هالسالفة؟

- إيه إيه ما في مشكلة، لا وأنا بعد باجوف المسألة واجب.

- انت من أهلها والله ما تقصر يا بو محمد.

- على خيرة الله.

فوجئت أم خالد بقدوم أم جاسم إليها مساء ذلك اليوم، فمن عادتها أن لا تخرج مساء من بيتها لأنها تعاني ضعف البصر بعد الغروب، أحست أن هناك أمراً مهماً وراء زيارتها، خصوصاً عندما عرفت أن زوجها المطوع ينتظرها بعد أن أوصلها بنفسه، لم تطل المقدمات، فسرعان ما وجدت أم جاسم أن أم خالد تتوقع شيئاً من خلال عينيها المتسائلتين، لكن أن تخطبها لأبي محمد فهذا ما لم تتوقعه أبداً، ورغم أنها أسهبت في وصف الأسباب التي دفعت أبا محمد لطلب يدها، إلا أن أم خالد حسمت الأمر بكلمات مقتضبة لا تعطي مجالاً للمناورة:

- أنا لو بغيت أتزوج ما فيه أحسن من بو محمد، فاهم ويعرف الواجب، وله كلمة، لكني من عقب بو خالد الغالي لا يمكن أفكر في الزواج موليه.

لم يطل انتظار المطوع لزوجته، فسرعان ما نادته ليوصلها إلى البيت، في الطريق أفهمته جواب أم خالد الحاسم، هز المطوع رأسه متفهماً موقفها، مقدراً ضمناً إخلاصها لزوجها، لكنه في الوقت نفسه أشفق عليها من العزلة التي ارتضتها لنفسها. قبل أن تدخل أم جاسم البيت، لم تنسَ أن توصي المطوع أن لا يتدخل في هذا الأمر مرة ثانية حتى لا يظن أحد أن لها مصلحة في ذلك، أومأ لها المطوع برأسه مؤكداً، واستدار جهة بيت أبي محمد الذي ينتظره ليخبره بواقع الحال.

كانت صدمة قاسية على أبي محمد، جرحت كبرياءه، حاول جهده أن يصطنع التفهم أمام المطوع الذي حاول تلطيف الأمر، لكن ما إن غادره حتى اشتعلت به نيران

الغيظ، تحول دفعة واحدة ذلك الاحترام الذي كان يكنه أبو محمد لأم خالد إلى نقمة عارمة، تلك الليلة لم يغمض له جفن، لم يستطع النوم إلا بعد أن وطّن النفس على أن يرد لها هذا الجرح بطريقته.

• • •

بدأ موسم الغوص، ودّع الفريج أولاده الباحثين عن الرزق في قاع الخليج، كانت المصيبة التي حلت بهم ماثلة في وجدان الجميع خوفاً وإشفاقاً من ضربة البحر التي لا تعلن عن مجيئها، رغم ذلك رحل الجميع متوكلين على الله الذي يقدر الرزق والمصائب، فلا مفر من إرادته.

هذه المرة فارق خميس الفريج حزيناً للمرة الأولى في حياته، قبل ذلك لم يكن يودع أحداً على سيف البحر، أما الآن فزوجته فاطمة كانت في وداعه، للمرة الأولى يتمنى على الله في خفايا ضميره أن يرجع إلى أهله سالماً.

هناك في الصحراء والشمس الحارقة جلس حمد يتنفس الصعداء، يمسح العرق الذي يملأ وجهه بعد أن رمى إلى جانبه المعول، بينما توزع حوله العمال هنا وهناك في استراحة قصيرة.

لم يكن حمد يصدق ما يجري حوله، كان مذهولاً بالمعدات الضخمة، مذهولاً أكثر بتلك السيارات التي تشحنها إلى الصحراء وهو يراها للمرة الأولى في حياته، كيف يمكن للحديد وهذا الوزن الضخم أن يسير من تلقاء ذاته، هل هناك جني في داخلها؟ خاف الاقتراب منها مثلما فعل كثير من العمال الذين شاهدوها للمرة الأولى، لكنهم الآن صاروا لا يتهيبون ركوبها وهي تنقلهم إلى مواقع العمل، قد يصدق أهل الفريج قصة السيارة، لكن هل سيصدقون أنه رأى بأم عينيه الطائرة، ذلك الشبح الذي يصدر صوتاً مخيفاً، يهبط على الأرض ويصعد إلى عنان السماء، الأدهى من ذلك أن هناك أناساً يركبون فيها، هؤلاء الأجانب الحمر هم من الجن فعلاً حتى يستطيعوا

اختراع هذه الأشياء العجيبة، رآهم يضحكون بملء أشداقهم سخرية وإشفاقاً من تلك المخاوف التي أخافت أولئك العمال المساكين، لكن ما آلم حمد أكثر تلك السخرية التي ارتسمت على وجه مدير العمل وهو يرى حمد الأعرج يتقدم إليه ملتوياً على نفسه طالباً العمل، لم يتوقع أن يكون ذلك الجسم الرقيق الذي تحمله قدم عرجاء قادراً على مواجهة ظروف العمل القاسية، حاول صرفه في البداية إشفاقاً عليه، لكن إلى أين يرجع حمد وقد انقطع كل شيء وراءه، لم يكن هناك ما يميز حمد سوى عينيه الذكيتين، عينان تلتصقان بذاكرة من يراهما، توسل كما لم يتوسل من قبل، حلف أمام المدير الذي كان يفقه بعض الكلمات ويجهل الباقي أن يكون أكثر العمال نشاطاً، وأمام هذا الإصرار وبدافع الشفقة وافق عليه، كان كل ما يعلمه حمد عن عمله الجديد أن العامل يتقاضى روبيتين في اليوم، هذا المبلغ أكثر من أن يحلم به أي بحار في ذلك الزمن، لكنه حين واجه أول يوم من أيام العمل في تلك الصحراء علم تماماً لماذا أشفق عليه مدير العمل، فقد كان العمل هو الحفر في قلب الصحراء وتسوية الأرض من أجل مد الأنابيب الضخمة التي تحمل البترول من منابعه إلى مصابّه، العمال ينتشرون على رقعة واسعة من الأرض وعلى مد البصر، كل مجموعة منهم يشرف عليها أحد المراقبين الأجانب الذين يضعون على رؤوسهم القبعات ويعلقون في أرقابهم الصافرات، كانوا يبتعدون عن العمال بحيث يرون المجموعة التي تخضع لإشرافهم، وعند أي محاولة من أحد العمال للجلوس أو الاستراحة في غير الوقت المخصص لذلك كانت الصافرة تنطلق وصوت المراقب يرطن بكلمات أجنبية حفظها حمد مع التكرار، مثل: يو ورك/ ونو، لكن كلمة ورك ورك (work-work) هي التي كانت تتكرر دائماً على ألسنتهم الغريبة، تعود أيضاً أطعمة غريبة، لم يكن هناك مجال لكي يطبخ لنفسه، كان يرجع مهدوداً إلى المعسكر، وما هي إلا فترة الطعام ويذهب بعدها في نوم عميق لا ينهض منه إلا في الصباح.

مع توالي الأيام أخذ حمد يعتاد الجو، كانت شخصيته تفرض على الآخرين

صحبة ممتعة، لن ينسى ذلك اليوم الذي حاول فيه أن يقلد الأجانب بشرب السيجارة، كاد أن يختنق يومها من السعال.

الأجانب يعيشون في معسكر خاص بهم، نادراً ما يختلطون بالعرب، لم يكن هناك ما يجمعهم سوى ساعات العمل الشاقة، ما دفع حمد للصبر على ظروف العمل القاسية تلك الروبيات التي أخذت تتجمع لديه يوماً بعد يوم، صار يتلقى مكافآت لنشاطه، وعدوه بالنقل ليعمل في المعسكر الرئيسي مع زيادة في الأجر، ها هي شهور مضت فتحت له باب الأمل، ما الذي سيحدث إذن بعد سنوات، لا بد أن حظك يا حمد سوف يضحك لك مرة ثانية وتعود إلى الفريج لترفع رأسك حيث يجب أن يكون لا حيث أرادوا لك، إن ما ينقصك يا حمد هو المال، فحاول أن تفترس نفسك من أجله، بعد ذلك سوف تجد الفريج بانتظارك.

• • •

وصل صلاح من سفرته هذه المرة بصحبة زوجته الجديدة التي تمتّ بالقرابة من بعيد لأمه، ولولا أن المطوع ألزم أبا حسين بالذهاب للمباركة لولده لما فعل، حاول أبو حسين أن يختلق الأعذار، مثل أن صلاحاً لم يستشره بزواجه، إلا أن المطوع كان يدرك تماماً نفسية أبي حسين ولا مبالاته بولده من الأساس، يعرف أن صلاحاً لم يقصر في واجبه تجاه أبيه ولا مرة، ذكّره بعتاب واضح أنه لم يزر ابنته سلمى بعد زواجها، فما حجته في ذلك أيضاً؟ لماذا هذه القسوة تجاه أولادك يا أبا حسين؟، غمغم أبو حسين بكلمات غير واضحة، ورأى أن يلفلف الأمر كله بالذهاب لزيارة صلاح في مسكنه الجديد، هناك تعامل ببرود مع ولده الذي اندفع إليه يعانقه، كلمه بطريقة لا تخلو من الهزء، إن كبرياءه تمنعه دائماً من التعبير ببساطة وعفوية عما يحسه تجاه أولاده، لكن بينه وبين نفسه كان حانقاً، لأن الولد الذي تمنى أن يكون بقربه بعيد عنه، ربما يبقى مبتعداً إلى ما شاء الله، من الأساس لا يطيق ولده صلاحاً ولا ابنته سلمى، لا يهمه في كثير أو قليل أمرهما، لكن ولده محمداً يختلف الأمر معه، ساعات يحنق

عليه هو الآخر لأنه لم يدرك مشاعر أبيه نحوه فآثر الابتعاد.

رجع أبو حسين والحنق يفترسه، لاعناً حظه العاثر عند باب البيت الذي دفعه بقوة ليفتحه، صاحت مجموعة الإوزّ مجفلة بعد أن كانت ساكنة، ووقف ذكر الإوز الفحل مجابهاً أبا حسين مهدداً إياه، فما كان منه إلا أن رماه مغتاظاً بحجر ثقيل قتله في الحال.

• • •

ظُهر أحد الأيام وصل إلى الفريج ضيف جديد لينزل في بيت أبي حسين، كان الشاب عتيق أخا زوجة أبي حسين الجديدة، ورغم أن أبا حسين لا يحب الضيوف، إلا أنه كان عليه أن يرحب بعتيق ويفرد له حجرة خاصة به، كانت في السابق لولديه صلاح ومحمد.

عتيق هذا كان شاباً ماكر العينين، خبيث الطوية، مداهن اللسان، أخته تثق به ثقة عمياء، تجد في إقامته إلى جانبها سنداً وحماية لها، ورغم أن أبا حسين وجد له عملاً في السوق إلا أنه ظل مقيماً في البيت بعد أن أصرت أخته على ذلك، لم يجد أبو حسين بداً من الإذعان لهذا المطلب، على الأقل يستطيع عتيق أن يساعده في الدكان ويجلب له الأغراض من السوق، فاشترى له «قاري»[1] من حسابه لتساعده في نقل الأغراض يمكن له أن يعمل بواسطتها في السوق، والمربح مناصفة. أبو حسين كعادته يحاول إقناع نفسه بالمبررات عندما يجد نفسه ملزماً بأمر لا سبيل لتفاديه، فزوجته الجديدة لا يستطيع إغضابها، لن يستطيع إيجاد واحدة أجمل منها وفي سنها، بات يحس بالكبر ينمو في مفاصله، غير ذلك لن يضحي بفلوس جديدة من أجل زوجة أخرى.

إنها ترضيني في كل شيء وأنا لا أستطيع مفارقتها، البيت واسع بعد ذهاب الأولاد،

---

(١) قاري: عربة صغيرة للنقل.

وعتيق يحمي البيت في غيابي، أكله وشربه لن يهماني في شيء ما دام يساعدني في أمور الدكان.

يجلس أبو حسين وهو يسرح بعيداً، كان حظي في كل شيء جيداً إلا في أولادي الذين تركوني، لم يسألوا عني في شيء، صلاح هو سبب العلّة، من المؤكد أنه هو الذي أقنع أخاه محمداً بالابتعاد وحرض سلمى على معاندة خالتها، لم أصدق نفسي حين تخلصت من همها ونكدها.

إيه ملل، اشتقنا لـ «الربع»، لم يبق غير أيام ويعودون، دونهم الفريج خالٍ لا معنى له، ثم كمن وجد أنه لا معنى لعمله بالحسابات، لا معنى لأن ينتظر أحداً ليشتري شيئاً.. زوجتي وحدها الآن في البيت، وعتيق في السوق، حك رأسه، أوه ملل، نظر إلى وجهه في قطعة المرآة المكسورة، مسح ذقنه وشاربه، الشيب لا يعني شيئاً، ما زلت أشعر بأنني أقوى من شباب العشرين، زوجتي تقول لي ذلك دائماً، إنها تقدرني كثيراً، لم تضطرني لضربها إلا مرة أو مرتين، أم صلاح كنت أضربها كل يوم إلى أن مرضت وماتت، بعدها تزوجت بامرأة بلهاء هربت من بيتي بعد عشرة أيام، الحمد لله أنها انقلعت، أخيراً تزوجت أم حسين التي تركت ولدها لأجلي، إن ظفرها عندي بالدنيا، هي تعلم ذلك وترضيني دائماً، إيه ملل، البيت أفضل من قعدة الدكان في هذا الوقت.

في الصباح جاء الراعي حميد من البر يحمل اللبن الطازج والصوف والدهن ويسوق خروفين ليوزعها على بيت أم خالد وبيت النوخدة أبي محمد، كانت هذه عادته في كل شهر أو شهرين حسب ما ينتجه الحلال، هذه المرة تعلق به خالد ليأخذه معه إلى البر ويلعب هناك مع أولاده ويمرح بحرية في المراعي مع الحلال، ورغم تعلق أم خالد بولدها الذي بدأت ملامح الشباب المبكر تظهر عليه، وافقت على ذهابه مع الراعي الذي يحبه كأولاده، ضحكت وهي ترى فرحة ولدها التي لا توصف بموافقتها، فراح يجمع أغراضه وملابسه استعداداً للرحلة الموعودة.

كانت موافقتها لغاية في نفسها، أرادت أن يتعود ولدها مباشرة رزقه بنفسه، يتعرف على الحلال الذي يملك نصفه، إن عليه أن يكون رجل البيت بعد الآن.. لم تنس أن تزرع في ذاكرته بعض الكلمات المهمة:

- جوف يا وليدي، ما ابغيك تروح البر علشان اللعب وبس، لا، لازم تشوف الحلال وتعرف اللي ينقص ويزيد، انت لك نص الحلال.

- لي أنا نص الحلال؟!.

- إي يا وليدي، ذي سهم أبوك الله يرحمه والحين صار من نصيبك، أبيك تكون مع الرعيان لين يجمعون الحلال عند المغرب ولين يسوقونه المرعى وتشوف شلي يطلع لنا من صوف ودهن وحليب، لازم تتعود على المسؤولية، أنت الحين ريّال.

- أول مرة تكلميني هالشكل يا يمه!.

- أنا خليتك تروح البر علشان أجربك، وان طلعت «هاب ريح»[1] وفهمت اللي باقول لك عليه، كل مرة باسمح لك تروح البر، شرايك؟ ها صار؟.

- خلاص يمه صار.

تمسح على رأسه، تعانقه والدموع تترقرق في عينيها، يحمل خالد صرته ويركب حماراً صغيراً، تدخل البيت بعد أن غاب عن ناظرها لتجد أخته حصة حزينة عند باب الحجرة، إنها تغار من أخيها خالد غيرة شديدة، ومن اللحظة التي رأته يجمع أغراضه بفرح وهي تلاحق أمها هنا وهناك كي تسمح لها هي الأخرى بالذهاب، لكن أم خالد ضجرت منها، نهرتها دون أن تدري مقدار الألم الذي سببته لها، راحت تبكي بحرقة عند باب الحجرة، وها هي الآن تلاحق أمها بنظرات عتاب عميقة بعد أن ذهب خالد، هزت الأم رأسها، لا بد لها من مراضاتها وإلا حردت عن الأكل بقية

---

(١) هاب ريح: نشيط، متحمس.

يومها على الرغم من رقة جسمها.

- يمه افهميني، خالد غير وانتي غير.

- انتي تحبين خالد أكثر مني، أدري بج.

- لا يمه، شلون أحبه أكثر منج، انتي بتصيرين مره ما يصير تطلعين برع البيت غير معانا كلنا.

- وخالد ليش يطلع بروحه؟

- خالد ريّال يمج، لازم يطلع ويشوف الرزق اللي لنا، اهوه مسؤول عن البيت من عقب المرحوم أبوج.

- عمي أبو محمد اهوه المسؤول علينا.

- إي يمج، عاد لين متى بيتم عمج، احنا لازم نمسك مسؤوليتنا بروحنا.

رغم أن حصة يبدو عليها التفهم لما تقوله والدتها، وقبل أن تتنهد أم خالد بارتياح، ترجع حصة فجأة إلى السؤال الأساسي من جديد:

- ليش تحبين خالد أكثر مني يمه؟!.

تضجر الأم وتذهب عنها مغتاظة بعد أن وجدت أنه من العبث الاستمرار في إقناعها، تجد حصة نفسها وحيدة مرة ثانية، تعود إلى البكاء والنشيج، بينما أختها الأخرى هنود لا يهمها شيء مما يجري.

• • •

رغم هذه المشاعر التي سيطرت على البحارة في عودتهم إلى البر، استقبلهم أهل الديرة بفرح، كان المهم بالنسبة لذلك الجانب الذي يقف على الشاطئ هو عودتهم بالسلامة، وكل شيء بعد ذلك يتركونه لرب العالمين.

خميس لم يشغله كثيراً رداءة الموسم وخوف المستقبل، اعتاد أن يدبّر أموره في أحلك المواقف، فمهنة القلافة التي يتقنها تؤمن له المؤونة في الشتاء على الأقل، عدا عن أن الخدمات الكثيرة التي يؤمنها لبيوت الفريج تكفل له حصة ولو بسيطة، فما من أحد في الفريج يستطيع الاستغناء عنه، كل ما كان يشغل قلبه هو رؤية زوجته فاطمة، لأول مرة يشعر بمعنى غيابه وعذاب الأيام التي قضاها بعيداً عنها، قبّل زوجته على رأسها، كانت فاطمة تبتعد بعينيها عنه باستحياء واضح كأنما هو لقاء للمرة الأولى في حياتهما في البيت، تركت فاطمة قدراً كبيراً مملوءاً بالماء ليغلي على نار الموقد، كان على خميس أن يستحم ويغير ثيابه بعد أيام طويلة من الرطوبة والعرق جعلت رائحته نتنة وكريهة تزكم الأنف، شعر خميس بلذة الماء الساخن وهو يدغدغ كيانه كله ويتسرب دفؤه إلى أعماق جسمه حتى راوده النعاس وتمنى لو يبقى تحت الماء الساخن الدهر كله، في ذلك اليوم عرف معنى الاطمئنان إلى جانب زوجته في فراش هانئ سعيد.

في جانب آخر، دهش أبو محمد النوخذة وهو يسلم على أم خالد أن خالداً ليس معها كعادته، لم يستطع ساعتها أن يسأل عنه لانشغاله بالسلام على مستقبليه، ولسبب آخر ضمني هو جرحه العميق من أم خالد، ولولا الواجب لما سمح لنفسه بالسلام عليها، إنه لا ينسى أنه لعن نفسه ليالي بطولها لأنه سمح لهذه المرأة أن تكسر رغبته في الزواج منها، كان عليه أن يتجاهل هذا الأمر تماماً، أو لا يكون عجولاً لهذه الدرجة، لقد تحولت مشاعر الاحترام والإعجاب إلى كراهية عميقة لأم خالد.

أم خالد لم يشغلها هذا نهائياً، لأنها اعتقدت أن هذا الموضوع انتهى في حينه، فليس لأبي محمد أو غيره أن يعتب عليها لرفضها الزواج، لأنها ترفض الفكرة من الأساس لا الشخص، أقفلت عليها مأساة فقدها لأبي خالد كل باب لغيره، لم يعد يهمها إلا رعاية الأولاد وتنشئتهم كنوع من رد الجميل لحياة هادئة رغدة وافرها لها على قصرها زوج محب وكريم أصبح في ذمة الله.

في المساء استغرب أبو محمد أن خالداً لم يأتِ للسلام عليه، وحين سأل أبا حسين فيما إذا رأى ابن أخيه خالداً اليوم أخبره أن خالداً منذ يومين في البر.

في البر..؟ ماذا يفعل هناك..؟ إن أمه لا تتركه يذهب هناك وحده أبداً!، لكن أبا حسين الذي يعرف كيف يجعل أبا محمد يلتهب غيظاً أخبره أن أمه هي التي أرسلته مع الراعي حميد.. الظاهر أنها تريده أن يتعرف على الرزق والحلال بنفسه، خالد لم يعد صغيراً يا أبا محمد، هل لديّ مانع أصلاً في إشرافه على الحلال أو معرفته بالرزق..؟ من العيب أن تفعل ذلك أم خالد من ورائي، إنني أنا المسؤول عن خالد بعد أبيه، رغم أنه كان يحدث نفسه بذلك إلا أن أبا حسين الذي لا تخفى عليه خافية في وجه أبي محمد كان يفتعل الغيظ معه، كأنما يريد أن يقول له إن هذا الأمر لا ينبغي السكوت عليه، ثم كمن وجد منفذاً لصميم الموضوع:

- تدري يا بو محمد، انت اخطيت، كان لازم تودي معاك خالد الغوص.

ينتبه أبو محمد لهذا الأمر الذي أثاره أبو حسين، لكنه تعلل بأمر آخر:

- كلامك صحيح يا بو حسين، بس أنا ما حبيت آخذه من أمه، أنت تدري شكثر متعلقة فيه، خاصة عقب المرحوم أبوه.

لكن أبا حسين يحسم الأمر:

- يا بو محمد لا تغلط، خالد الحين عوده طري، وانت يوم توديه وتييبه معاك دايماً بتخليه يتعلق فيك أكثر من أمه، خالد أنت مسؤول عن تربيته وتعليمه يا بو محمد، مهب أمه.

يهز رأسه أبو محمد موافقاً على كلام أبي حسين:

- إن شاء الله عن جريب باسافر دبي وباودي خالد معاي.

- إي هالشكل.

ذهب أبو حسين والآخرون وبقي أبو محمد لنفسه، كانت امرأته تنتظره، تعودت أن لا تقتحم عليه خلوته، مزاجه المتقلب يجعلها حائرة وفي شك من نفسها دائماً، وغيابه الطويل عنها لا يبدل من طبيعته المتكبرة ووجهه القاسي الملامح الذي لا يعرف الضحكة أبداً في بيته وبين أهله.

أبو محمد كان في خلوته تلك يعيش هاجساً آخر، لماذا رفضته أم خالد؟! هذا ما لا يستطيع نسيانه أبداً، ورغم أنه كره نفسه ولعن حظه كثيراً الذي دعاه لهذا الأمر، إلا أنه لا يستطيع أبداً أن يتغاضى عن هذا الموقف الذي واجهته به أم خالد، كره جميع النساء من أجلها، لا بد أن أحرق قلبها للأبد.

• • •

رجع خالد من البر، لأول مرة تشعر أمه وهي تتلقاه بالعناق أنه تغير كثيراً، لم تلاحظ ذلك قبلاً لأنها لم تكن تفارقه، أما الآن فقد أحست للوهلة الأولى أن شاباً غريباً يدخل البيت، شاباً لوحته الشمس وأخذ الشعر الناعم يظهر في وجهه، جلست إلى جانبه تتمعنه بينما هو حائر في نظراتها، وهي لا تنسى بين الفينة والأخرى أن تقول له يا نظر عيني ويا «بعد جبدي»، أخذت تسأله عن أحواله، وهل كان مسروراً في البر، هل قصر الراعي حميد في حقه..؟ وكانت كل أجوبة ابنها خالد تعبر عن سعادته التي وجدها للمرة الأولى بعيداً عن البيت.

راحت حصة أخت خالد تتشاغل عنهما، مرة تقف وأخرى تجلس، لكن لا تفوتها كلمة واحدة من كلام أمها وخالد، تلتفت إليها أمها بحيرة وانزعاج:

- شفيج رايحة ويايه، قري عاد، الحين بتصيدني الدورة من روحتج وييتج حولي.

ينهض خالد:

- يمه أن باروح حق عمي أسلم عليه!!.

- بالأول تسبح وغيّر ثيابك، وعقب تروح وتسلم عليه.

- إن شاء الله يمه..!

كان العم يجلس مع أبي حسين والمطوع عندما دخل خالد للسلام عليه، أكبره العم لتلك الثياب النظيفة والغترة والعقال، لأول مرة يراه عمه بالغترة والعقال، دعاه للجلوس بجانبه بعد السلام على الحاضرين..

- ما شاء الله على وليدي، إي هالشكل أبغي أجوفك دايماً يا خالد، خلاص صرت ريّال الحين واحنا نقدر نعتمد عليك، «مب جذي»؟[1].

بامتثال يمتزج بالرهبة من العم:

- إن شاء الله يا عمي.

- أنا وايد استانست إنك رحت البر في غيابي تشوف الحلال بنفسك، أبغيك جذي دايماً، ها، استانست هناك يا خالد؟!.

- وايد يا عمي.

يضحك العم لجواب خالد البريء، بينما يعلق أبو حسين:

- ما شاء الله خالد استوى ريّال، لازم تسعى له بمره يتزوجها.

ينتفض المطوع:

- انت شفيك، كله توسوس في هالأمر، الله يهداك يا بو حسين.

يضحكون جميعاً ويقطع العم ذلك كله:

- برز نفسك يا خالد، أبغي أوديك معاي على المحمل لدبي، شرايك..؟

لا يصدق نفسه خالد عندما يسمع ذلك من عمه، كثيراً ما كان يحلم بركوب

---

(١) مب جذي: أليس كذلك.

البحر:

- صحيح يا عمي..؟

- إي خلاص من اليوم وساير أبغيك تسافر معاي على المحمل علشان تتعلم على البحر.

يذهب خالد مسرعاً إلى البيت غير مصدق نفسه من الفرح، عمي تغير كثيراً، لا بد أنني تغيرت أيضاً، أصبحت في نظره رجلاً، سأسافر معه في البحر دائماً، يا اللّه!، ترى ما الذي ستقوله أمي عندما تسمع هذا الخبر؟!.

لم يطل بخالد الأمر حتى يسمع جواب أمه، كان ذلك الخبر على لسان خالد الملهوف كخاتمة منغصة ليوم هانئ سعيد، جلس قبالة أمه حائراً مصدوماً لا يعي تلك الأسباب العميقة وراء رفض أمه لرحلته الموعودة مع عمه، تساءلت الأم بينها وبين نفسها: ترى لماذا يلح العم على محاولة سلخ ولدها عنها بهذه الرحلة الموعودة..؟ ما الذي يقصده حقيقة؟. يتذكر خالد أن أمه لا تحب البحر، سبق لها أن أوصته أن لا يذكره قدامها.. لكنني كبرت الآن..؟ هكذا قال عمي وبقية الرجال في المجلس، حتى أمي نفسها قالت لي ذلك، إنني أحب البحر.. لكن أم خالد لا تتركه في حيرته:

- اسمعني زين يمّك، إذا تبغيني أرضى عليك لا تييب طاري[1] البحر جدامي مرة ثانية.

الكلمات نفسها تعيدها على مسامعه الصغيرة التي لا تدرك إلى الآن لماذا تقف هذه الكلمات حاجزاً بينه وبين رغبته، إنه لا يستطيع لحظة واحدة أن يتحمل زعل أمه عليه، لكنه أيضاً لا يستطيع أن يتصور أنه سيحرم من البحر إلى الأبد، ومرة أخرى يحاول كسر الطوق:

---

(١) طاري: ذكر، سيرة.

- يمه بس عمي يقول إني لازم أسافر معاه.

بلهجة حاسمة تقطع كل أمل لديه:

- خالد، انت ما عليك من عمك، انت عليك مني، أنا أمك، وغير جذي أنا باتفاهم مع عمك في هالخصوص، فاهم؟

يشعر أنه عاد طفلاً مرة أخرى بعد أن كان رجلاً قبل قليل:

- وإن سألني عمي، شاقوله؟!.

بلا مبالاة تجيبه:

- قول له أنا ما أطلع عن شور أمي، فاهم؟

هنا يكتشف أمراً آخر، إن أمي لا تخشى عمي، ذلك الرجل الذي يخشاه الجميع، هذا الأمر جعله يتعلق بها أكثر فأكثر، وكمحاولة للتعويض تعود إلى إقناعه:

- يمك في ألف شغلة على البر تقدر تشتغلها، والحمد لله عندنا رزق يكفينا، بكره تصير تاجر في السوق هني قريب، علشان كل يوم أجوفك يا نظر عيني.

حاولت التسرية عنه بهذه الكلمات التي لم يسمع منها شيئاً، فقد كان هو يسرح بعيداً إلى تلك الأمواج العالية التي حُرم من رذاذها الذي يغسل وجوه البحارة وهم فوق المحمل.

الأعجوبة

في الليل أيقظت آلام المخاض فاطمة من نومها، صرخت على خميس الذي هبّ مذعوراً ليجلب لها أم جاسم كي تساعدها.

في تلك الليلة لم يبق بيت في الفريج إلا وأزعجه خميس كي يخبرهم بواقع امرأته، هبت أم خالد كي تساعد أم جاسم التي كانت أول من وصل إلى فاطمة، بينما كان خميس يشعل لهم النار لتحضير الماء الساخن وعيناه الدامعتان تتوسلان إلى السماء كلما سمع صراخ زوجته وأنينها، ومع تباشير الفجرلم يصدق خميس مسامعه بعد أن تناهت إليه صرخات المولود المتقطعة، بكى كثيراً كطفل وأم جاسم تضحك وتبشره بقدوم مولودة جميلة، راح يقبل يديها وهي تضحك وتقول بعطف «مسكين».

ثمة أمر راحت جميع النسوة يتحدثن عنه في ذلك اليوم، وهو الجمال الفتان والآسر لتلك الطفلة، حتى أن أم جاسم أخبرت المطوع أن الجميع صلّى على النبي لجمالها، وغطت أم جاسم وجهها خوفاً عليها من العين.

إنها حكمة الله، هكذا قال المطوع، لكن أبا حسين الذي أزعجه خميس في تلك الليلة تساءل باستغراب لا يخلو من الإنكار: هل من المعقول أن تنجب «العريَة» من زوج أهبل طفلة بهذا الجمال؟!، انزعج المطوع كثيراً وهو يستمع إلى تعليق أبي حسين، وأسكته بقوله «حرام عليك» كعادته، يسكت أبو حسين حين يجابهه المطوع، لكن ما إن راح عنه حتى أفلت العقال لتعليقاته الساخرة.

لم تكن الدنيا لتسع خميساً من الفرحة، إنه يحس للمرة الأولى في حياته بكونه أباً، إن مجرد لفظة الأب تعطيه مكانة جديدة في الفريج، أما الشيء الذي جعله ينفخ صدره أكثر من غيره فهو أحاديث الناس التي راحوا يتناقلونها عن جمال ابنته الباهر، لم يعجزهم الاسم الذي يليق بها كثيراً بعد أن أشارت أم خالد لفاطمة أن تسميها «نورة» ، أليس في هذا الاسم شيء يوحي بجمالها؟.

لم تعانِ فاطمة في إحضار ملابس ابنتها نورة، جلبت لها أم خالد جميع الملابس التي سبق أن استخدمها أطفالها، كانت نظيفة ومرتبة ليس بها عيب، بعضها مزركش ومطرز سبق للمرحوم أبي خالد أن جلبها لأطفاله خلال أسفاره، سبحان الله، لم يكن ينقص هذه الطفلة الجميلة غير هذه الملابس الزاهية لتبدو في أبهى صورة من الحسن، ولدت وهي تحمل بشارة حظها حين استقبلها الناس بالإعجاب، ها هي تلبس أجمل الثياب، تملأ البيت سعادة على أمها وأبيها، أم خالد حرصت على زيارتها والعناية بها بنفسها، دخلت الطفلة نورة إلى أعماق وجدانها وأنستها حزنها في وقت صحبتها، إن الطفل لا يشعر بالفرح، لكنه يضفيه على الآخرين مهما كانت أحزانهم.

قليلاً ما كان أبو حسين يلتقي ولده صلاحاً، وذلك راجع إلى أن صلاحاً بطبعه يحب العزلة ولا يغشى المجالس إلا لإنجاز أمر يتعلق بشغله، رغم ذلك لم يفوت فرصة أن يمر به من أجل السلام أو من أجل الأشياء التي يحتاج إليها أبو حسين لدكانه ليجلبها معه، وأثناء ذلك يظهر الأب كل تثاقله وبروده تجاهه، يكتفي بتوصيته بالأغراض التي يريدها بلهجة قاطعة لا تتيح للمسكين فرصة الأخذ والرد مع أبيه كثيراً، وقد توسط المطوع لكي يكون أبو حسين أكثر وداً مع ولده، لكن دون فائدة.

حين لمحه في أول الشارع يقترب منه قال أبو حسين في نفسه من المؤكد أنه لم يأتِ للسلام عليّ، بل ليطالبني بباقي ثمن الأغراض التي أوصيته عليها المرة السابقة، لن أعطيه شيئاً حتى لو توسط المطوع في ذلك، إنه يربح في سفراته ويخفي عني مرابحه. عندما سلم صلاح على أبيه رد عليه أبو حسين باقتضاب وتبرم واضحين حتى لا يسمح له بالجلوس إلى جانبه وتشاغل عنه بتقليب أوراق دفتر الحسابات بارتباك لا يخفى على أحد، لكن صوت صلاح المختلف النبرة هذه المرة أذهل أبا حسين:

- يبا أخوي محمد يسلم عليك ومطرش لك معاي هالمسباح اللي سواه بنفسه مخصوص لك.

لم يصدق أبو حسين مسامعه ولا عينيه، للمرة الأولى يطلب من صلاح أن يجلس إلى جانبه ليسأله عن أخبار ولده محمد، بينما يضع المسباح الملفوف بعناية داخل علبة خاصة في جيبه بحرص ما بعده حرص، وسأله بصوت مرتجف:

- وشلونه محمد هالحين؟! شخباره؟!

- بخير يا يبا، والحين صار يعاون راعي المحل في الصياغة، وعقب سنتين بيصير صايغ.

- ياه، من صجك تقول هالكلام؟.

- إي يبا، محمد تغير وايد، والحين لو تشوفه ما تعرفه.

راح صلاح يتحدث بإسهاب وطلاقة دون أن يعترضه أبوه، كانت أخبار محمد هي الموضوع الوحيد الذي يجعل من صلاح قريباً من أبيه، من فرحته لم يشعر أبو حسين إلا وهو يناول صلاحاً باقي المبلغ الذي بذمته، بينما كان صلاح مذهولاً أمام بادرة أبيه المفاجئة.

ولدت سلمى صبياً لزوجها جاسم ابن المطوع، لكن الفرحة به سرعان ما تنغصت بمرض الطفل الذي ارتفعت حرارته، عاش أياماً بين الموت والحياة، لم تبق وصفة شعبية إلا جربت دون فائدة، أمضى المطوع ليالي بطولها يقرأ ويدعو من أجله، وأمه المسكينة لا تعرف ما هي فاعلة، حتى استسلم الجميع للأمر الواقع وباتوا ينتظرون وفاته، لكن الطفل تعافى، ذهبت سخونته مثلما جاءت، رجعت الفرحة لتعم البيت، لكنهم لاحظوا عليه بعد المرض أن عينيه زائغتان دائماً كمن يشكو نعاساً مزمناً، قالوا إن هذا من أثر المرض سيذهب بعد حين قريب بعون الله.

لكن أباه جاسم كان قضية أخرى، فبعد أشهر من الالتزام بالبيت سرعان ما عاوده الحنين إلى أيامه الأولى، في البداية صار يختلق الأعذار بحجة العمل للتغيب عن البيت، ثم لم يعد يهتم بذلك، يئس أبوه من إصلاحه وردعه خلال مرض ولده

محمد الذي أسموه كذلك، لم يكن يهتم أبداً بالبقاء إلى جانبه ما دام أن أمه هي التي تشرف عليه، كان يسأل عن حاله كشخص محايد تماماً، يتلقى آخر الأخبار ثم يلقيها بعيداً عندما ينام، مرة بقي ثلاثة أيام خارج البيت، فقد تماماً الإحساس بالمسؤولية، حتى بين صحبته كان رجلاً انطوائياً لا يتكلم إلا إذا تحرش أحد به، كأنما يخفي في وجدانه قلقاً عميقاً لا يستطيع حتى التعبير عنه، ربما لا يحسه تماماً، لكنه يفعل فيه، كانت الكآبة تملأ قلبه عندما يرجع آخر الليل للبيت وحيداً متعثراً في الطرقات، في صباح أحد الأيام وجدوه ملقى على الأرض مستنداً إلى حائط وقد فارق الحياة.

انصرف المعزون، بقي المطوع وحيداً في المجلس يتناهى إليه صوت أم جاسم الباكي وسلمى المسكينة، كانت الدموع تبلل خديه دون أن يصدر صوتاً سوى الزفرات، لم يكن حزيناً على ولده جاسم الذي فقده، بل على ذلك الولد الذي كان يتمناه ولم يجده في يوم من الأيام، أما أم جاسم فجلست تبكي وحيدها المسكين دون أن تفكر لحظة واحدة في أخطائه، سلمى كانت تندب حظها العاثر وعذابها، فهي لم تذق طعماً للسعادة، لكن صوت الرضيع الباكي محمد شغلهم جميعاً عن حزنهم، أسرعت أم جاسم تحتضنه مانعة سلمى من إرضاعه لأن حليبها سيكون سماً عليه بسبب حزنها، أذعنت سلمى لأنها لا تعرف شيئاً من ذلك، راحت أم جاسم إلى المطوع لكي يرافقها إلى أحد البيوت لإرضاع الطفل حتى لا ينام جائعاً، وراح المطوع المرتبك يقود زوجته في تلك الليلة مع الطفل الوليد الذي تلقته إحدى النساء وأخذت ترضعه، عندها هدأ صراخه وهدأت أوجاع الجميع، وحين رجع نائماً إلى البيت ذهبوا جميعاً يغطون في نوم عميق.

تغيرت الحال بالنسبة لحمد إلى الأفضل، فبعد أشهر من العمل القاسي في الحفر تحت وهج الشمس الحارقة من أجل تهيئة الأرض لمدّ الأنابيب الضخمة، نقلوه أخيراً كما وعده الملاحظ إلى «الكامب» الأساسي، صار يركب السيارة ثلاثة أيام في الأسبوع من الكامب إلى المدينة القريبة كي يجلب الأغراض التي يحتاج إليها المطبخ

الرئيسي في الكامب، عينوه مساعداً للمحاسب الأجنبي (مستر جون) المسؤول عن تموين الكامب، وكان حمد من الظرف والذكاء والنشاط أن جعل مستر جون يثق به ويكلفه بالذهاب لوحده أحياناً إلى المدينة ليجلب المؤن، شعر حمد بالاعتزاز والفخر لأول مرة حين وجد نفسه شبه مسؤول بعد أشهر من العناء، بدأ رويداً رويداً يتعرف إلى الشخصيات التي تعمل في الأسواق وتزود الشركة بالمؤن، لم يكن ينقصه الذكاء لكي يستغل هذا الأمر لصالحه، كان المهم بالنسبة لمستر جون وللشركة أن تصل الكمية المحددة بالشروط اللائقة، أما عن كيفية وصولها فلا يهتم، والذي يستفيد من ذلك هو حمد بلا شك، لذلك كان على التجار إرضاء حمد بطريقة أو بأخرى، صحيح أنهم كانوا يدفعون قليلاً، لكن هذا القليل كان له شأن في حياة حمد، وشيئاً فشيئاً بدأ حمد يتكشف طريقه الجديد، أصبح يتقن بعض الكلمات والجمل التي تعينه على التفاهم مع الأجانب الذين أخذوا بدافع عطفهم عليه وإعجابهم بذكائه يبيعون له بعض الأغراض التي يتخلون عنها بأسعار زهيدة فيبيعها لمن يعرفه في السوق ويربح بذلك فرقاً جيداً، بكل بساطة أصبح تاجراً بالفعل، إن الظروف كلها بدأت تعمل في سبيل نجاحه.

غداً يصبح المحمل جاهزاً للسفر إلى دبي بعد أن رمّم خميس وبعض البحارة الذين يساعدونه بعض الشقوق واستبدلوا بعض ألواح الخشب ودهنوه بالطلاء المناسب، خميس يساوي وزنه ذهباً عندما يعمل قلافاً، لا أحد في الديرة يستطيع أن يباريه في هذه المهنة، حين يبدأ بالعمل ينسى كل شيء حوله، لا يخطر له أبداً أن هناك من ينتظره في البيت رغم ولعه الشديد بطفلته الجميلة نورة، البحارة الذين يساعدونه اشتكوا منه ضمناً لأنه لا يعطيهم مجالاً للراحة، هم يعلمون تماماً أنهم لا يستطيعون معارضته، لا لأنهم يخشونه، بل لأنهم يخشون من يقف وراءه، وهو النوخذة أبو محمد.

لعل خميساً هو الشخص الوحيد الذي لا يتمنى أبداً أن ينتهي عمله حتى لا يرجع

شخصاً عادياً يتحمل التوبيخ والاستهزاء أحياناً دون أن يجرؤ على الاعتراض بعد أن تعود الناس استضعافه والاستهانة بأمره، زوجته فاطمة ما برحت منذ زواجها به تحرضه على أن لا يقبل الإهانة من أحد حتى لو كان أقوى منه، يتحمس لكلامها، يجد فيه توافقاً مع رغبته الدفينة، إلا أنه عملياً كان يتراجع في اللحظة الأخيرة ويقبل السكوت على مضض مغضياً عما سمعه ورآه، لذلك وجد من الأسلم له أن يخفي عن زوجته ما يتعرض له أو يروي أحياناً رواية معاكسة متجنباً تقريعها ولومها الذي لا يتحمله لأثره الذي يحدثه في نفسه، ربما أكثر من استضعاف الآخرين له واستهانتهم به.

أما خالد فقد انقطع عن المجيء لمجلس عمه بعد أن تحمس لذلك في البداية، رجع إلى اللعب مع الصبيان، صار يخرج كعادته إلى السكيك حاسي الرأس مفتوح الصدر، عند العصر لاحظ العم أن خالداً يحاول التهرب من مواجهته حين صادفه قادماً في أول السكة، صرخ عليه، فما كان من خالد إلا أن رجع لعمه مذعناً، استهل عمه الكلام بغضب لحالته الزرية التي تليق بالصبيان لا بخالد الذي أصبح على أبواب الرجولة، بينما كان خالد مطرق الرأس لا يجد عذراً لحاله ولا يجرؤ على مقاطعة عمه، ثم في غمرة غضبه سأله لماذا انقطع عن زيارته في المجلس، حاول خالد أن يغمغم بالجواب منكراً أنه قصد ذلك، إلا أن العم لم يكن بحاجة إلى من يشرح له الأمر، فهو يعرف ضمناً أن أمه وراء ذلك..

متى ستصبح رجلاً أعتمد عليه يا خالد؟، ألم أقل لك إنني سآخذك معي بالمحمل إلى دبي؟، تمنى خالد لو لم يذكر عمه تلك الرحلة، في النهاية أحس خالد أن الدنيا أطبقت عليه، أمره عمه: قل لأمك لكي تجهز لك أغراضك لتسافر معي غداً إلى دبي!!، لم يصدق خالد أن عمه تركه ومضى في طريقه، ورغم أن كابوساً كان يخيم عليه، إلا أن الأمل بالسفر عاد إليه مرة أخرى وبعث النشاط في أرجاء نفسه الخاملة.

تجهز أبو محمد للسفر بعد أن أخذ سلفة كافية من التجار الذي أوصوه على

الأغراض التي يحتاجون إليها في الشتاء، من «خلاقين» لكسوة الأولاد ودهن وجناد وبسط، عدا «العيش» والسكر والقهوة والقمح، أما الأغراض التي سيأخذها معه وحُمّلت عند العصر فهي الصوف وبعض الحلال، كل ذلك رآه خالد من بعيد، خاف أن يقترب من المركب أكثر حتى لا يلتصق به.

هال الأم ما سمعته من خالد، كانت تخشى هذه اللحظة التي تضطر فيها إلى مواجهة العم بحقيقة حريتها في تربية ولدها دون أن يتدخل أحد، إنها تعلم مدى ما ستثيره من عواصف نتيجة موقفها، فالمجتمع الذي حولها سيقف مع العم القوي في كل الأحوال، فالصبي من شأنه أن يتعلم الرجولة على يد الرجال لا في أحضان النساء، إن أحداً لا يعلم الأسباب الحقيقية وراء إصرار العم غيرها، بدأت تدرك تماماً أن من جرحت كبرياءه دون قصد منها مصمم على الانتقام منها بسلبها أعز ما تملك، وهذا ما أثار خوفها أكثر فأكثر على ولدها الذي لا يدري شيئاً سوى أنه يتمنى في قرارة نفسه أن توافق أمه على سفره.

في المساء ذهبت أم خالد إلى بيت العم، كانت تأمل أن تستطيع بكياستها ولباقتها ثني العم عن موقفه، فهي لا تستطيع توسيط أحد غريب في ذلك حتى لا تثير مشكلة أخرى، جلست مع زوجته المسكينة التي تعاطفت معها، لكنها صارحتها بحالها، فهي لا تجرؤ على مفاتحته بهذا الأمر أو غيره.

حين رآها أبو محمد في البيت ذلك المساء أدرك تماماً سر مجيئها، غير أنه كابر على نفسه، وقبل أن تنطق بحاجتها تساءل أمامها كمن يريد إشعارها بمسؤوليته عنها بطريقة لا تخلو من الانتقاد واللوم.. هل جاءت لوحدها..؟ كان الواجب أن تترك خالداً يوصلها إلى البيت..!، تعللت بأن المسافة قريبة وأن خالداً في البيت مع أخواته، متصبرة على لومه لها لأنها لا تريد الابتعاد عن قضيتها التي جاءت من أجلها، رغم أنها المرة الأولى في حياتها التي يوجه إليها مثل هذا اللوم، أدرك العم ما يعتمل بنفسها فأراد تغطية ذلك من خلال إبراز حرصه عليها وعلى ولدها وأنه لا

يريد للناس أن يلوكوها بألسنتهم، ثم كمن أحس أنه هيمن عليها إزاء سكوتها على لسعاته قال لها بطريقة عرضية خبيثة ضمناً: هل جهزت أغراض خالد للسفر، أنا أعلم مقدار فرحته بهذه الرحلة، لكن ها، لا تظني أنني سأدلله، فهو لم يعد صبياً، بل سأعامله كما يعامل الرجال، هنا لم تستطع أم خالد السكوت أكثر فاعترضته قائلة:

– واللي يخليك يا بو محمد ما أبي ولدي خالد يسافر في البحر على المحمل.

لم يكن كلامها يخلو من التوسل، لكن ذلك لم يزده إلا حسماً للأمر:

– شلون ما يسافر..؟ عيل تبينه يلعب في السكيك يا أم خالد؟

– لا يا بو محمد، من قال..؟ أنا أبيه يتم معاي يونسني، أنا من غيره ما أقدر أصبر.

– أنا بمقام أبوه وأدرى بمصلحته!

– محد ينكر يا بو محمد، وانت ما تقصر، لكن أنا أمه وأبيه يتم معاي!

– لا يا أم خالد، أنا ما أبيه يتربى بين الحريم، أنا أبيه يصير ريّال، وأنا قلت كلمتي، خالد بيسافر يعني بيسافر!!.

هنا لم يدع لها أبو محمد مجالاً آخر للمناورة، ولم تدر عن نفسها في غمرة اضطرابها كيف وجدت نفسها للمرة الأولى في حياتها تواجه رجلاً مقتدراً كأبي محمد:

– لا يا بو محمد، خالد ما يترك البيت من غير شوري وأنا أمه.

وهنا قاطعها العم بحدة بعد أن احتقن وجهه:

– ترفعين صوتج علي وتردين كلامي يا أم خالد، والله ثم والله لولا كرامة المرحوم أخوي غير تشوفين شي ما يسرج..!

وهنا لم تعد أم خالد تدري عن كلماتها الغاضبة:

- ما يحتاي يا بو محمد هالكلام، أنا اللي أحلف يمين الله عمري ما أدش بيتك.

يلحقها بكلماته الغاضبة بينما تتهيأ للخروج:

- جويڤ، أنا ما علي منك، أنا علي من ولد أخوي خالد.

- ما لك علينا كلمة من عقب اليوم يا بو محمد، ويوم ولدي خالد يتركني ويجيك ذيك الساعة يغنيني الله..!

خرجت أم خالد من بيت النوخذة وهي لا تلوي على شيء، لم تستطع أن تكتم عبراتها حين أقفلت باب البيت وراءها، جلست منهارة تبكي بحرقة، بينما اندفع إليها خالد الذي كان ينتظر عودتها، لم يكن يدري ما يفعل، حسب أن بكاءها بسببه فأخذ يقبل يدها ورأسها طالباً سماحها واعداً إياها أن لا يفكر ڤ البحر مرة ثانية، بينما أخذته إلى صدرها غير مصدقة، كان أهون عليها أن تخلع قلبها من بين ضلوعها من أن ترى وحيدها مسافراً بعيداً عنها على محمل عمه النوخذة.

استحلفته بالله وهي تبكي أن يبتعد عن عمه الذي أهانها ڤ بيته، بينما كان خالد ڤ غير حاجة إلى مثل هذه التوصية منها، كان يكفيه أن يرى دموعها ليحقد على من سبب لها هذه الدموع.

جلس المطوع يرقب بأسى عميق حفيده الصغير محمداً، بينما أمه سلمى تتهيأ للذهاب إلى بيت أخيها صلاح غير عابئة بولدها، فهي لا تدرك إلى الآن فيما إذا كان طفلها طبيعياً أم لا!، أما أم جاسم فقد اكتشفت الأمر من شهره الأول عندما لاحظت بلادته وعينيه الناعستين دائماً، لم تكن حركته كسائر الأطفال، بطيء الاستجابة لما يدور حوله، احتضنته أم جاسم من البداية، فهي التي تطعمه وتسقيه وتهتم بشؤونه، وتنيمه إلى جانبها خوفاً عليه من أمه التي كادت تزهق روحه ڤ إحدى الليالي عندما وجدوها منقلبة عليه دون أن تدري والطفل يختنق تحتها لولا أن العناية لطفت به

وصحت أم جاسم على صوته المكتوم، المسكينة نومها ثقيل لدرجة عجيبة، تشبه في ذلك أباها، كان المطوع وامرأته يواسيانها ولا يؤنبانها إلا فيما ندر، ورغم أنها وجدت فيهما خير الأب والأم، إلا أن حياتها الشقية أرادت أن تنتصر في النهاية حين قيضت لها زوجاً خيّب آمالها كما خيّب آمال أهله من قبلها، رغم ذلك كانت راضية به لا تشكو شيئاً، إلا أن القدر أبى أن يحفظ لها هذا الزوج فسلبها إياه، وها هي الآن تقضي أيامها تستند إلى الجدار، لا تنتظر أحداً، حتى طفلها لا يملأ فراغها، لأنها لا تحس به كسائر الأطفال الذين يجلبون النظر.

انتبهت سلمى لصوت المطوع يستعجلها لكي يوصلها إلى بيت أخيها، قبل أن تذهب معه سألت أم جاسم لتأخذ الطفل معها حتى لا يعذبها، لكن أم جاسم تمسكت بالطفل، قالت إنه يسليها، لم تهتم سلمى كثيراً للأمر، ذهبت مع المطوع الذي كان ينظر إلى زوجته نظرة ذات مغزى وهي تبقي الطفل معها في البيت، أما سلمى فلم يكن يدور في ذهنها أبداً ما كان يشغل بال أم جاسم في حينه، لم يبك الطفل لذهاب أمه، فهو متعود البقاء مع جدته التي احتضنته إلى صدرها وأخذت تدلله وتناغيه، بينما هو لا يستجيب إلا فيما ندر، لذلك لم ترد أم جاسم أن يذهب الطفل مع أمه خارج البيت حتى تبعده عن ملاحظات الآخرين، فهي لا تريد أن ينمو حفيدها على ألسنة الناس المشفقة، ربما يصبح طبيعياً قبل أن يلاحظ الناس ذلك وينتهي الأمر، وإلا فإنه لن يسلم أبداً من كلامهم حتى لو شفي فعلاً، اغرورقت عيناها بالدموع وهي تضم الطفل إلى صدرها الحنون كأنما تشفق على ولدها جاسم مرة ثانية في صورة ولده.. يا رب سأرعاه بعيوني، ذهب جاسم دون أن يأسف عليه أحد، حتى أبوه يخجل من ذكره رغم حزنه عليه، ارفق بولده يا رب، لا تقطع ذريته، تنتبه إلى غمغمات تصدر عن الطفل فتمسح جبهته بكفها وهي ترمقه:

- أيها المسكين لن أيأس منك، أنا أمك لا تخف، سأظل لجانبك دائماً، ستغدو شاباً بإذن الله، تشير بأصبعها مهددة: لكن ها، تحمّل أن تحرق قلبي مثل أبيك.

رسالة

انصرف المصلون بعد الانتهاء من صلاة الاستسقاء، مشى خميس الذي لم يذهب مع النوخذة إلى دبي إلى جانب المطوع وصلاح وراءهما، كان أبو حسين يفرك عينيه من الغبار الذي يثيره الهواء بين الحين والآخر وهو لا ينفك يبدي ضيقه وانزعاجه من كل شيء، حين وصل إلى جانب المطوع أبعد خميساً من مكانه ليمشي متطرفاً، وانطلق لسانه اللاذع كعادته:

- أبي أفهم ليش يا مطوع ما تنقي غير هالمكان حق صلاة الاستسقاء، في كل سنة ما تشوفه شلون يلعب فيه الهوا، ما بقي واحد من المصلين إلا وتلعوز من الغبار.

يجيبه المطوع دون أن يلتفت إليه، بينما صلاح يكتم ضحكته لمعرفته بأبيه:

- وانت الله يهديك يا بو حسين مهب شاغل بالك غير الغبار، المكان ذي قريب حق أهل الديرة كلهم ومناسب، وغير جذي تعودنا نصلي فيه.

وكمن لا يسمع كلام المطوع ولا يهتم بمبرراته:

- قول المكان قريب حق بيتك يا مطوع، ايه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، انت ما تيوز عن سوالفك يا بو حسين.

- يمكن علشان هو قريب من بيتك الله سبحانه يطرح فيه البركة.

- سمعوا هالسوالف، البركة مهب في المكان بس، البركة في النية الطيبة يا بو حسين.

يقترب الجمع من السدرة، فيلتفت المطوع لخميس:

- ييب لك دلو ماي يا خميس ورش الأرض علشان نيلس.

- إن شاء الله.

- أنا بصراحة ما أقدر ايلس هني في الغبار، الدكان أحسن.

- تعال يا خميس لا تعذب روحك، أبو حسين عازمنا نيلس عنده في الدكان.

ورغم أن أبا حسين كعادته يتحاشى خميساً إلا أن خميساً يحاول أن يداعبه:

- بو حسين ما يسويها يا عمي، يخاف من الخسارة.

ينبري له أبو حسين بعد أن وجد من يتعالى عليه:

- كلهم يتفضلوا من غيرك يا خميس، ها شقلت؟

يرتبك خميس الذي شعر بالإهانة فينقذه المطوع:

- إن ما راح معانا خميس محد منا يقبل عزيمتك، ها شقلت يا بو حسين..؟

ينفخ أبو حسين تنهيدة من صدره المثقل بالانزعاج، بينما يبدو الارتياح على خميس الذي يلوذ بالمطوع..

- انت دايماً تدافع عن خميس يا مطوع، ما أدري شلي عاجبك فيه.

- خميس هاذي لحية غانمة ومبروك، وانت ما لك حق تحتقره.

عند باب الدكان يتعلل صلاح بعذر لينصرف إلى بيته، كأنما ينتظر من أبيه المكابر الذي لا يهتم له أن يدعوه للجلوس معهم، لكن أبا حسين يشعر أن ثقلاً انزاح عن صدره بذهاب صلاح المنكسر، الذي لا تقدر أي واسطة أن تزيح ذلك الحاجز السميك الذي يفصله عن أبيه، أما المطوع فرغم إحساسه بذلك الأمر إلا أنه لم يتدخل لمعرفته أنه لم يعد هناك أي شيء يفيد في هذه القضية غير الزمن.

جلس أبو حسين على صندوق خشبي عليه وسادة متسخة، بينما قدم الكرسي الوحيد للمطوع كي يجلس عليه، أما خميس فجلس فوق «خيشة الحب»، ينظر أبو حسين لما حوله في الدكان ويبدأ في الشكوى من نقصان المواد، فقد هل الشتاء وكل شيء يتناقص وينكمش في هذا الفصل، لذلك كان لا بد من الاقتصاد في المعاش، بعد

هذه المقدمة يمد أبو حسين يده للإبريق الموضوع تحت الطاولة ويسلمه خميساً ويلتفت للمطوع معتذراً:

- ما عليه يا مطوع، الجود من الموجود، الإبريق باقي فيه شاي من الصبح.

- يا البخيل، أكيد صار له من أمس، من يدري، يمكن صار له يومين..؟

يشم خميس الشاي بعد فتح الغطاء، يبدو على وجهه الاشمئزاز ويعطيه المطوع ليشمه:

- وانت شعرفك في الشاي حتى تشمه، ما تقول لي؟!

يتصدّى له المطوع:

- هالحين لا تسوي لك سوالف، يا إما تسوي شاي جديد والا ما نبغي، أو نفضحك عند الناس، شقلت؟!

- أمري لله.

وكأنما المطوع يتذكر أمراً:

- أكيد ذاك اليوم اللي شربنا فيه الشاي عندك في الدكان العصر وعورني بطني طول الليل ولاعت جبدي، أكيد كان ذاك الشاي خامم في الإبريق، من يدري.

- مب قاصر غير تتهمني بعد هالتهمة يا مطوع، شلون يعورك بطنك من الشاي وأنا ما يعورني مع إني شربته معاك؟

- انت متعور عليه، شيهمك.

- عن الحسد، قول لا إله إلا الله.

- لا إله إلا الله ألف مرة.

انصرف خميس لإعداد الشاي، أما أبو حسين فأخذ قطعة من القماش من تحت

الطاولة لكي يمسح الغبار حول الميزان ويستند بمرفقه عليها، لكن الهواء كان يحمل المزيد من الغبار، قام وأغلق الجزء الأيمن من باب الدكان الخشبي ليتقي تيار الهواء، أما المطوع فحرك كرسيه جهة أبي حسين ليبعد نفسه عن الغبار المندفع من الجهة الثانية المفتوحة من الباب، وكأنما لا يستطيع أبو حسين أن يترك المطوع مرتاحاً من أفكاره الساخرة، بل كعادته يقوم بمعاكسته بين الحين والآخر:

- تبي الصراحة يا مطوع، أنا ما أحب المطر.

يلتفت إليه المطوع متفاجئاً بكلامه:

- ما تحب المطر؟!

- أبي أفهم شللي استفيد منه، لا عندي حلال أرعاه ولا زرع أخاف عليه، وغير جذي السكيك تنقلب طين، الواحد ما يقدر يمشي إلا احذا الاطوف[1].

- يا غشيم، المطر حيا، مهب للزرع والحلال وبس، لا، المطر اهو حيا للنفوس، والإنسان يوم ينقطع عليه المطر ييبس مثل الأرض، فهمتني يا بو حسين؟!!.

قبل أن يحتدم النقاش يصل خميس بإبريق الشاي والكؤوس الصغيرة، يتذوق المطوع الشاي فيطلب المزيد من السكر، يخرج أبو حسين قليلاً منه في ورقة مطوية كالملعقة من الكيس، يناولها المطوع الذي يرضى أخيراً عن طعم الشاي، أما أبو حسين فكان يتعجب من خميس الذي يمسك كأس الشاي ملفوفة بكفه دون أن تحترق من حرارته، فيريه خميس باطن كفه اليابس والمتشقق كجواب لسؤاله.

بينما كانوا يتلذذون بطعم الشاي، انتبهوا جميعاً لصوت شخص غريب يلقي عليهم السلام، وفي غمرة جوابهم المألوف تبينوا للوهلة الأولى أنه ليس من الجوار، لكنته قريبة من لكنة أهل الحسا، دعوه لكي يجلس مرحبين به، فقرب له خميس

---

(١) الاطوف: الجدران.

صندوقاً خشبياً غطاه بخيشة لكي يجلس عليها، بعد أن استراح قدموا له كأساً من الشاي، تناوله شاكراً، أخذ منه رشفة ثم تطلع إليهم:

- بغيت المطوع بو جاسم..

- أنا المطوع بو جاسم، خير..؟

- يسلم عليك حمد وعلى الجماعة كلهم، وهو مطرشني بأمانة حق هله، وقال لي أمر عليك علشان تكون معاي يوم اعطيهم اياها.

برقت عينا أبي حسين وهو يسمع ذكر حمد بعد هذا الغياب:

- شخبار حمد، عساه بخير..؟

- بخير يا عم، وهو يشتغل في الشركة الحين، في المخزن الرئيسي.

- وانت تشتغل معاه هناك؟

- انا اشتغل قريب منه، ويوم درى إني بازور قرابتي في قطر وصاني أمر على هله وأطمنهم عنه وأسلمهم هالأمانة.

يلتفت أبو حسين للمطوع بمغزى، بينما يصب خميس كأساً آخر من الشاي للضيف الذي ينتبه لهما:

- فيه شيّ؟

- الظاهر إن حمد ما سمع للحين بوفاة أبوه، اللّه يرحمه.

- أبوه توفى؟

ويؤكد أبو حسين:

- من حوالي شهرين المسكين برك في البيت وصابه الفالج قبل لا يتوفى اللّه يرحمه.

- الله يرحمه.

ويحاول أبو حسين معرفة نوع الأمانة بتطفله المعروف:

- شكثر مطرش حمد؟

يبدو الحرج على الشخص، بينما المطوع يعاتب أبا حسين بنظرة قاسية، إلا أن أبا حسين يستدرك قائلاً:

- أمه المسكينة قاعدة بروحها ومحتاجة حق أي مساعدة.

لا يجد المطوع وسيلة ليقطع بها تطفل أبي حسين إلا أن يدعو الشخص لمرافقته لبيت حمد، بينما يبقى خميس عند أبي حسين متلكئاً، وبغيظ ينظر إليه أبو حسين:

- وانت شاسوي فيك، قوم فارق.

- إيه زين، شفيك كله مغتاظ؟

- ما ادانيك.

يخرج خميس من الدكان لاحقاً المطوع، غير عابئ بتمتمات أبي حسين التي تلاحقه.

في الطريق إلى بيت حمد عرف المطوع من الشخص أن الأمانة هي ٥٠ روبية، كان هذا مبلغاً كبيراً في تلك الفترة، دهش له المطوع وحمد الله على أنه رزق تلك المسكينة في وقت عوزها، فهذا المبلغ يكفيها لسنة تعيشها في بحبوحة من الزاد والمصروف اللازم.

كان الموقف الذي تأثر له الجميع هو تلك الأم الوحيدة العجوز وهي تسمع أخبار حمد الطيبة بعد أن يئست من سماع أخباره في عزلتها التي تعيشها بعد وفاة أبيه لفرط تأثرها وحنينها لولدها، حاولت أن تقبل يد ذلك الشخص لأنه يحمل لها ريح ولدها الغائب، بعد ذلك لم يحتج أبو حسين ولا غيره من أهل الديرة ليسألوا عن أخبار

حمد وعن الأمانة، لأن أمه راحت تحدث كل من تقابله بأخبار ولدها باعتزاز وتذكر المبلغ الكبير الذي أرسله إليها، ولم تكن المسكينة تعلم أن هذا هو آخر عهدها بولدها حمد وبالدنيا، أغمضت عينيها في إحدى الليالي وهي تحلم بعودة ولدها، لكنها لم تستيقظ في الصباح، بل وجدها الجيران بعد أن فارقت الحياة.

جلس أبو محمد بعد عودته من السفر يستمع لأبي حسين يخبره عن المبلغ الكبير الذي أرسله حمد لوالدته، كان الامتعاض واضحاً على وجهه كمن قرصته عقرب، لكنه على عادته لا بد له أن يظهر اللامبالاة حتى لا يبدو مهتماً كثيراً للأمر، هل وصل الأمر بحمد أن يبعث هذا المبلغ؟ أي عمل هذا الذي يعمله؟ وأي شركة هذه..؟ وأي حظ هذا الذي يطلع لحمد دائماً من قلب المجهول؟ يلتفت أبو محمد لأبي حسين وقد واتته فكرة مناسبة:

- أكيد حمد بوّاق.

- شدراني يا بو محمد؟ لكن الشخص ذي قال إنه يشتغل الحين في المخازن مالت الشركة.

- بكرة تعرف كلامي يا بو حسين، حمد هاذي محّد يعرفه مثلي، هو طرش هالمبلغ متعمد علشان تسمع فيه الديرة.

- حمد ذي داهية!!

في ذلك اليوم ظل حمد هاجساً يتردد بين الفينة والأخرى في مخاوف أبي محمد العميقة، لم يطرد ذاك الهاجس من صدره إلا تفكيره الذي لا ينقطع بأم خالد، تلك المرأة التي وقفت في وجهه وجرحت كبرياءه، ربما راودته مشاعر الندم خلال سفرته، أو لام نفسه لأنه تعجّل في غضبه عليها، ربما كانت هناك وسائل أخرى لو تأتّى إليها الطريق لحقق هدفه بصورة يبدو فيها منتصراً على خصمه دون جدال، لكنه كعادته ينفجر دون توقيت فيبدو هائجاً يخبط يميناً وشمالاً لا يراعي شيئاً في طريقه، كل

هذا كان يصطرع في داخله، لكنه الآن عليه أن لا يتراجع مهما كانت الظروف، حاول المطوع أن يثنيه عن قسمة الرزق، لكنه ازداد تشبثاً، وبشهادة أبي حسين والمطوع قسم الأرزاق المتوافرة والحلال، وادعى في اللحظة الأخيرة أن المحمل هو ملكه خالصاً، منكراً حق أخيه أبي خالد فيه، وغاضاً النظر عن ديون كثيرة وحسابات لأبي خالد في ذمته لم يكن يعرفها أحد غيرهما، وبذلك خرجت أم خالد بملكية البيت الذي تسكن فيه وبنصف الحلال ومبلغ من المال لا يساوي جزءاً من عشرة أجزاء من المبالغ المستحقة لهم، رضيت أم خالد بذلك رغم إحساسها بالغبن، وكان أهون عليها أن تبدأ من الصفر مع ولدها على أن تشترك مع أبي محمد في رزق واحد.

كان لأبي محمد فلسفة غريبة في هذا الأمر، كان يعتقد أنه بقسمته هذه وافر لخالد ضمناً جزءاً غير يسير من حصته في ذمته، لأنه كان يضع في حسابه أن أم خالد سوف تتصرف بكل شيء مستغلة ولدها خالداً الذي يتعلق بها، فلماذا يعطيها جميع الحقوق، وبالتالي فهو سيساعد خالداً، ولو جاء إليه محتاجاً لن يبخل عليه بشيء من حقوقه، حتى لو اضطر لإعطائه من نصيبه، المهم أن لا يبقى في رعاية أمه، وهكذا كان أبو محمد يبرر لنفسه نكرانه ديون أخيه وحساباته دون أن يشعر بأي ذنب، لكن ماذا لو أن خالداً بقي تحت سلطة أمه ولم يتقرب من عمه؟ حينها لا يهمه من أمره شيئاً، عليه أن يتحمل تبعة ذلك وليس على العم أية مسؤولية، لكن كيف ينتقم من أم خالد إذا لم يستطع أن يسحب ولدها خالداً منها؟ هذا ما كان يقلق العم حقيقة، الشيء الذي جعله مطمئناً هو ثقته أن خالداً سيكبر مع الأيام ويتقرب من عمّه أكثر، فهو ابن أبيه الذي يحب البحر والسفر، وما دام كذلك لن يستطيع أحد أن يبعده عن عمه النوخذة.

بلغت نورة عامها السابع، ما زادتها السنوات إلا بهاء وروعة، لدرجة أنها الطفلة الوحيدة التي يعطيها أبو حسين الحلاوة من غير مقابل عندما تمر من أمام دكانه، كلمة سبحان الله من أفواه الناس هي التي ترافق طلعتها أمامهم.

في الصباح كانت أم خالد تطعم الحمام، بينما راحت فاطمة التي جاءت مع ابنتها نورة تمشط شعر حصة وتفليه لتعقد لها غدائرها، فحصة تألف كثيراً فاطمة بعد أن أصبحت عقدة أمها، وما زالت تزداد عناداً ومشاكسة، كثيراً ما حاولت أم خالد أن تفهمها أنها تحبها وتعزها، لكن حصة تبقى جامدة العينين أمامها كأنما لا يؤثر فيها الكلام، لأنها لا تسمع إلا ما تريده، لكنها غريبة في تصرفاتها حين تكون لوحدها في البيت، فهي تتصرف كامرأة حقيقة تقوم بكل الأعمال والترتيبات.

الأهم من ذلك كله هو غيرتها الضمنية التي ما زالت تكبر مع الأيام من أخيها خالد الذي أصبح على أبواب الرجولة، مما زاد الأمر تعقيداً، فالأم تحسم الأمر دائماً لصالح ولدها خالد الذي ترى أن له الأولوية في كل شيء دون أن تناقش الأمر، أما هنود فكان الجميع يحبها، لأنها مسالمة، طيبة، لا تطلب كثيراً، تفعل كل ما يطلب منها دون عناد، ترافقها كظلها، لكن عندما تغيب الأم تصبح كسولة خاملة إذا لم يطلب منها أحد شيئاً، كانت أم خالد ترى أن حظوظ البنات واضحة من طريقة معيشتهن في البيت، فالبنت الطيبة الوديعة المسالمة كهنود سيكون حظها طيباً ويرضى عنها زوجها وتسعد في حياتها، أما حصة فكثيراً ما كانت تبدي تخوفها أثناء توبيخها من حظها الشقي الذي تكتبه بعنادها ومشاكستها وبطبعها الغامض الذي لا تستطيع أن تفهمه، لكن ذلك الحظ الشقي الذي تتنبأ به الأم لابنتها لا يؤثر في خوف الفتاة قليلاً أو كثيراً، راحت أم خالد تشتكي مخاوفها هذه لفاطمة التي أخذت على عاتقها مهمة الجلوس مع حصة ومسايرتها وإفهامها بالمعروف واجباتها.

نورة انشغلت بشغف بمراقبة الحمام وهو يلتقط الحب بمناقيره من يدي أم خالد، كان الحمام أنيساً لدرجة الصعود على كفها أو الطيران حول رأسها وهي تبعده عنها مخافة أن يوسخها، أحياناً كانت حمامتان تتصارعان على الوقوف فوق كفها لالتقاط الحب فتضحك أم خالد، كان إطعام الحمام يريحها تماماً، تشعر بصفاء غريب ما بعده صفاء، لكن نورة تشاهد منظراً لأول مرة في حياتها، إحدى الحمامات

تصعد بعد أن التقطت الحب إلى العش الذي كان يبرز منه منقار لفرخ صغير ما لبث يدعو أمه لإطعامه وجبة الصباح من الحب المعجون بريقها، رأت كيف مدت الحمامة الأم منقارها داخل منقاره وبحركة تشنجية من رقبتها كانت تدفع إليه الطعام، وحين كانت تتوقف للحظات كان الفرخ يطلق أصواته ويضربها بجناحه الرقيق عدة مرات فتعود إليه الأم ثانية لتطعمه.

هذا المنظر جعل نورة مشدوهة ومتعلقة به وهي تطلق الضحكات البريئة لمنظر الفرخ، وأحياناً كان الإشفاق يرتسم على وجهها، ابتسمت لها أم خالد ثم أخذت تشرح لها هذه العلاقة بين الأم وفرخها، قالت لها بمغزى: عندما تجلسين هنا دائماً سوف تعرفين كيف أن الأم تفعل المستحيل من أجل أن لا يجوع ولدها.

رجع خالد من السوق، كان كافياً عندما أطل من باب البيت أن تنسى أم خالد تساؤلات نورة وتنشغل بكل حركة وخطوة لخالد داخل البيت، أصبح خالد شاباً ما عليه إلا أن يأمر وينهى لكي يقوم البيت كله بخدمته.

هل تنسى موقفه منذ شهرين لما راح أبو حسين يكلمه بالسر ويغريه لكي ينضوي تحت جناح عمه؟، لكن خالداً رفض بشدة أن يكون سبباً في قهر أمه، لن ينسى لأحد إساءة مهما بلغت في حق أمه.

بدأ خالد يبحث عن عمل يناسبه في السوق، كثير من التجار كانوا يرغبون في إعانته من أجل ذكرى والده، لكن العم بما له من علاقة وثيقة بالسوق وتجاره استطاع أن يظهره هو وأمه جاحدين لعطفه ورعايته، أغلب التجار الذين قابلهم خالد كانوا يعتذرون له بطريقة لا تجرحه، لكنهم يومئون له بطرف خفي لإعادة علاقته مع عمه!!، لم يكن أحد منهم راغباً ضمناً في إغضاب أبي محمد. بدأ خالد يعي هذه الأمور، مما زاد في كراهيته لعمه، أخيراً قرر أن يفتح دكاناً خاصاً به في السوق بمساعدة المطوع الذي يقف إلى جانبه دائماً، أصبح البيت بحاجة إلى وارد يومي ثابت، لم يعد يكفيه

ما يرد إليه من إنتاج الحلال، كذلك تناقص المبلغ الذي كان بحوزتهم، كانت الأم تعمل دائماً على تخفيف هموم ولدها الشاب مبعدة من أمام عينيه الآفاق السوداء، مكابرة على الواقع، مقفلة أمامه الطريق كي لا يفتح لها موضوع البحر الذي كان في ذلك الوقت أسهل وسيلة للعيش وأصعبها معاً.

أمر آخر بدأت أم خالد تلاحظه على ولدها، وهو حرجه وانزعاجه من تدليلها المستمر له، كانت الكلمات تفلت من لسانها رغماً عنها، فتقول له كلما طلع أو أطل عليها: «يا بعد جبدي»، يا عيوني، فديتك، وما شابه، صار يتهرب من معانقتها له، كانت تفسر ذلك بأنه أصبح رجلاً، وهذا كان يرضيها أكثر ويزيدها تعلقاً به مع مرور الأيام.

هذا اليوم اتخذ حمد قراراً حاسماً وجديداً من نوعه، معتمداً فيه على ضربة حظه، صحيح أن هذه المغامرة الجديدة تختلف عن سابقاتها بأنها المرة الأولى التي يجلس فيها حمد ضارباً أخماسه بأسداسه، مشاوراً بعض الأصدقاء الذين يثق بآرائهم، وكانت مغامرة محسوبة، لكن هل يتدخل الحظ هذه المرة كما تدخل في السابق وانتشله من الضياع في المجهول، أم أنه يتخلى عنه وتضيع كل حسابات حمد وتسقط كل أحلامه التي بناها عليها؟.

كانت البداية كلمات عابرة سمعها خلال نقاش عام، لكن حمد اكتشف مغزى هذه الكلمات، فالشركة في تلك الأيام ومع أول عهدها كان عليها أن تؤمّن خدمات كثيرة لعمالها وموظفيها لتسيير شؤونها لا تدخل في اختصاصها البترولي، مثل مد الطرقات وتأمين الأطعمة والمشروبات للعمال وتفريغ البضائع وتحميلها من السفن الكبيرة وإليها، لأن هذه السفن غير قادرة على الاقتراب من الميناء لضحالة مياهه وعدم أهليته لاستقبال السفن الكبيرة، وأشياء كثيرة غير ذلك، ورأت الشركة بعد فترة أن من مصلحتها التخلص من هذه الخدمات والتركيز على المسائل البترولية الصرفة، لذلك تعاونت مع بعض المتعهدين الذين أخذوا على عاتقهم توفير هذه

الخدمات، كانت الشركة تفضل التعاون مع من سبق له العمل فيها لدرايته بشؤون الشركة وسهولة التفاهم معه، وأيضاً لتشجيع الكوادر التي ارتبطت بالشركة.

كانت البداية كلمات جاءت على لسان أحد المشرفين الأجانب في المطعم للمستر ستيوارت رئيس المخزن الذي يعمل معه حمد، والدافع الذي جعل حمد يهتم لهذا الحديث الذي كان من الممكن أن يمر من جنب أذنيه دون أن يبالي به هو ورود اسم سليمان الذي ترك الشركة من شهور خلت بعد أن عمل بها لسنوات، فهم حمد أن سليمان سيقيم مصنعاً للثلج لصالح الشركة بعد أن رسا العطاء عليه لخدمته في الشركة، كل شيء فهمه حمد، إلا هذا الارتياح الذي بدا على وجهيهما معاً كأنما يزيحان عن كاهلهما هماً ثقيلاً، كيف ترضى الشركة أن تغض النظر عن إنتاج وتوفير هذه المادة والاستفادة من بيع فائضها في السوق من أجل شخص أصبح خارج الشركة؟، لا بد أن لهؤلاء الأجانب حكمتهم في ذلك، أنا أثق بهم، عايشتهم سنوات وهم يعملون بجد، لا يتسامحون في شيء على الإطلاق ضد مصلحتهم، إنهم يحاولون التوفير في كل شيء، حتى في سلامهم ومجاملاتهم، ليس لديهم وقت إلا لمصلحتهم. راح حمد يفكر بعمق ويستعيد الحوار الذي جرى قريباً منه، لكن لماذا اهتم بذلك؟، ثمة إحساس غريب كان يوحي لحمد أن من يفهم هذه المعادلة سوف يتجاوز واقعه كثيراً، كم لام سليمان حين ترك عمله في الشركة بعد أن استقرت أحواله فيها وصارت له علاقات مع الجميع بحكم إتقانه اللغة الأجنبية، هل كان سليمان يخطط في سره لذلك المشروع عندما ترك الشركة؟، إذا كان الأمر كذلك فسليمان رجل ذكي بحق وليس أبله رافساً للنعمة كما اعتقد الجميع وقتذاك، هذا هو السؤال الذي شغل حمد في ليلته تلك، لكن من أشار لسليمان أن الشركة سوف تشجع مثل هذه المشاريع؟، لم يكن الجواب صعباً، فعلاقات سليمان داخل الشركة يمكن أن تفسر ذلك، لماذا لا أسأل رئيس المخزن، إن علاقتي به جيدة وهو يثق بي ويشجعني دائماً، لكن علي أن أتغابى أمامه حتى لا يدرك أن لي قصداً من وراء سؤالي، لكي يكون حريصاً أكثر

أظهر في سؤاله خوفه على مصالح الشركة من الخسارة لأنها تشجع مشروعاً كان يمكن أن تنتفع به، ضحك رئيس المخزن لسذاجة حمد أولاً، ولركاكة لغته التي كادت أن تقلب مفهوم السؤال لولا اعتياده لغة حمد الركيكة، أشعل رئيس المخزن سيجاره الثقيل الرائحة وأخذ منه نفساً والتفت بجدية إلى حمد: هل تعتقد يا حمد أننا جئنا إلى هنا كي ننتج الثلج والمياه والخبز والأطعمة ونشق الطرقات ونفرغ ونحمل المواد؟، وبعد أن اطمأن إلى أن حمد يفهمه قال بتركيز: نحن جئنا إلى هنا كي ننتج النفط، سيكون خسارة أن نضطر لإنتاج شيء غيره، لأنه يشغلنا عن العمل الرئيسي، هل فهمتني؟، نعم بكل تأكيد، أجاب حمد.

نحن نتوق يا حمد أن نجد هنا من يتولى هذه المسؤوليات عنا، لكنكم أنتم العرب تنقصكم الجرأة دائماً على تغيير واقعكم لأنكم عندما تعتادون عملاً مربحاً وكسباً مستقراً يصعب عليكم تركه من أجل عمل أفضل يحتاج للجرأة والمغامرة، فالشركة لا تضمن لسليمان النجاح، لكنها تمهد له الطريق لكي يضع قدمه عليه بقوة.

راح حمد يومه ذاك يسترجع حديث رئيس المخزن له مرات ومرات، لا بد أن هناك فرصة لمثلي إذن، لكن من أين لي المبالغ اللازمة لمشروع كبير، صحيح صار لدي مبلغ جيد من خلال عملي، لكن هذا المبلغ لا يكفي لسد ما يحتاج إليه المشروع، هذا عدا عن أنني لن أغامر به كله وأهدر ما شقيت لأجله، لا بد أن هناك فرصة راح حمد يقنع نفسه بها، لكن السؤال الأهم كيف يمكن استغلالها قبل فوات الأوان؟، واتته فكرة عارضة، لماذا لا يشترك مع أحد التجار الموجودين في السوق، هكذا لن يغامر بماله وسيجد ممولاً جاهزاً بعد إقناعه، ربما لو نجح المشروع حينها يمكن لحمد أن يستقل بنفسه، غير هذا فإن الشريك سيعطيه الفرصة لكي يبقى عاملاً في الشركة على الأقل في البداية، بعدها يمكن التفكير حسب واقع الحال.

في اليوم التالي ركب السيارة الشاحنة كالعادة ليجلب المؤن اللازمة، كانت تبدو عليه أمارات النشاط والحيوية، قبل أن يغادر طلب إذناً من رئيس المخزن لكي يتأخر

بعض الوقت في السوق، ادعى أن هناك شخصاً من ديرته قد وصل وسوف يقابله لمعرفة الأخبار، لم يبخل عليه رئيس المخزن بهذا الإذن، فهو يثق به ويشجعه ويعرف أن طلباته قليلة، لكن حمد في الحقيقة لم يكن في نيته أن يرى أحداً من ديرته، لأن أحداً لم يصل من هناك، بل كان الأمر تغطية لنيته في لقاء التاجر عبدالله الذي يثق به.

استغرب التاجر عبدالله عندما رأى حمد يطلب منه الكلام على انفراد، سرعان ما صرف العامل من المحل ليساعد زملاءه العمال في تحميل الشاحنة بالمؤن، وراح حمد على الفور يشرح موضوعه للتاجر عبد الله بطريقة مجملة لأن الوقت ضيق، بينما كان التاجر عبدالله يستمع باهتمام، أفهمه أن القضية غير قابلة للتردد، لأن هناك من ينتظر لاستغلال هذه الفرصة، شرح له المكاسب التي يمكن تحقيقها، عدد له بعض الخدمات التي تحتاج إليها الشركة الآن بشكل عاجل، وما دام حمد يستقي كلامه من مسؤولي الشركة لم يكن هناك داع لمزيد من الإقناع بالنسبة للتاجر عبدالله، قال له أخيراً: إنني أعرض عليك الأمر بشكل مختصر، فإذا اهتممت للأمر وقررت أن نشترك سوياً سوف نجتمع مرة ثانية على سعة من الوقت من أجل التفاصيل، لم يتردد التاجر عبدالله، بل وافق على الفور كي يلتقي حمد مساء الغد.

في ذلك المساء بدأ البحث في التفاصيل بتحديد نوعية المشروع الذي سيعرضانه على الشركة، وهو تفريغ وتحميل المعدات والأغراض التابعة للشركة من السفن الكبيرة وإيصالها إلى الميناء، هذا المشروع يلزمه كبداية سفينة عادية لتحميل الأغراض والأمتعة، وكذلك صندلاً يستطيع أن يحمل المعدات الثقيلة مثل السيارات وما شابه، تعهد حمد بتأمين السفينة مع عدد قليل من البحارة من ديرته بسعر مناسب، أما هو فعليه أن يذهب إلى البحرين لتأمين أحد الصنادل المستعملة، لم يبق بعد أن وافق التاجر عبدالله سوى أن يقدم عرضه للشركة للموافقة عليه، قال له حمد: إننا يجب أن نرفق هذا العرض بمبلغ نقدمه كهدية في السر لرئيس المخزن كي يساعدنا في هذا

العرض أمام مسؤولي الشركة، لأن كلمته مسموعة جداً، والأجانب يثقون ببعضهم، فوافق التاجر عبدالله على ذلك.

بدأت الخطوات العملية بأن فاتح حمد رئيس المخزن بالمشروع بعد أن قدم له المبلغ وهو يأمل أن لا تهب ريح مفاجئة من الكرامة حتى لا تضيع آمال حمد معها، سُر رئيس المخزن لبادرة حمد الذي وعده بأنه سيستمر في ذلك إذا ساعدهما في إرساء المشروع عليهما، قال له رئيس المخزن: أحسست منذ البداية يا حمد بأنك لا تسأل عن شيء دون قصد، أنت داهية، ستكون رجل أعمال كبير في المستقبل، ثم وعده رئيس المخزن خيراً.

في هذه الفترة ذهب التاجر عبدالله إلى البحرين واتفق مبدئياً على شراء صندل بسعر مناسب حتى يكون جاهزاً عند الموافقة على المشروع للبدء في العمل، لم تتأخر الموافقة، بل جاءت سريعاً، لأن الشركة كانت بأمس الحاجة إلى من يتطوع لهذه المهمة، فخصصت لهما سعراً تشجيعياً خاصاً، هنا كان على حمد أن يذهب في إجازة إلى الديرة ليرجع مع المحمل الجديد بعد أن حضّر المبلغ المناسب.

الغائب من جديد

كان يوماً جديداً في حياة حمد عندما وصل إلى الديرة بعد سنوات من الغياب، تبدو عليه رزانة رجال الأعمال، كانت عودته مفاجأة للجميع، راح الداني يبلغ القاصي، أصبح حكاية تشغل الناس، هذا الحمد الذي يفلق الصخر بحظه، من كان يصدق أنه عندما ذهب طريداً مقهوراً من الفريج سيعود إليهم بهذه المهابة؟. لم يهتم حمد بزيارة أحد في الفريج غير المطوع الذي يقدره ويحترمه ضمناً، أما باقي أوقاته فكان يقضيها في السوق باحثاً عن ضالته في شراء المحمل والاتفاق مع عدد من البحارة الذين كانوا في أمس الحاجة للعمل، وللنكاية بأبي محمد كان يتعاقد مع بحارته ليفكون ارتباطهم به، مستعداً لدفع السلفة التي ارتبط بها البحارة مسبقاً بأبي محمد، لم يتبع في ذلك أسلوباً مباشراً، بل جعل البحار يتعذر أمام أبي محمد بأسباب مختلفة لفك ارتباطه دون أن يذكر حمد، لكن أبا محمد لا تنقصه التجربة مع حمد، كان يعرف أن ثمة مشكلة سوف تحدث في الفريج ما دام حمد موجود فيه، لكن بكبريائه وتعاليه المعهودين لم يظهر أي قلق بهذا الشأن، بل كان يصطنع اللامبالاة ويزدري دائماً أمام أبي حسين محدثي النعمة الذين يحاولون تقليد الأكابر ومد رقابهم إلى الأعالي، لكنها ستنكسر في النهاية ويرجع كل إنسان إلى أصله، أما أبو حسين فلم يكن أمامه إلا أن يساير أبا محمد في تعليقاته على حمد وزرايته عليه، رغم أنه كان يتوق في سره للاتصال به بشكل مباشر من باب الفضول وحب الناس الذين يمتلكون الثروة، سواء أكانوا وضعاء أم أصلاء، لكن حمد لم يتح له هذه الفرصة، بل ظل يتعالى عليه ويتجافاه، لأنه لا يثق به، كذلك يود لو انتقم منه، فأبو حسين أحد أبرز الناس الذين يكرههم.

استطاع حمد أن يحصل على عروض كثيرة ومغرية من أصحاب السفن الذين يعانون الكساد، أخذ معه خميساً الذي أشار عليه بشراء الأصلح لخبرته بالسفن فأعطاه إكرامية مجزية واشترى لابنته نورة الجميلة ثوبين جديدين بعد أن بهرته

تلك الطفلة، لم يبق أمامه سوى أن يرجع إلى الشركة بعد أن جهز كل شيء جاء من أجله.

في إحدى الأمسيات في بيت المطوع التقى خالداً الذي أصبح شاباً، كان خالد متحمساً لرؤية حمد بعد أن بهرته الأخبار التي تناقلها الناس عن حكاياته عن الشركة وركوب السيارة ورؤيته الطائرة التي تعمل من ذات نفسها كأن بها شياطين، وكذلك عن فرص العمل المتوافرة هناك بعد أن ضاقت بخالد السبل في إيجاد عمل يناسبه، أما حمد فقد عانق خالداً الذي تركه طفلاً، كان منذ البداية يتوق لزيارتهم والسلام على أم خالد وخالد لتقديره الشديد لهم، لكنه كان يخشى الاصطدام بأبي محمد وكلام الناس في حق أم خالد التي تعيش لوحدها في البيت، لم يتصور أن خالداً هو من يجالسه الآن، شاب لا يخلو وجهه من طفولة لكن لا تنقصه المهابة والجاذبية، بادره حمد: لماذا لا تعمل يا خالد في الشركة، إن هناك فرصاً كثيرة للعمل لأمثالك، سأقف إلى جانبك وأزكيك عند رؤسائي.. ساعتها لم يصدق خالد ما يسمع، فالتفت إلى عمه المطوع يستنجد به لأنه يعرف واقعه مع أمه، كان حمد على عجلة من أمره، فاعتذر منهما وهو يقول لخالد فكّر في الأمر وسأمر بك غداً لمعرفة قرارك النهائي، أما خالد فقد أحس أنه لو فوّت على نفسه هذه الفرصة فسوف يقتل حياته إلى الأبد، ربّت المطوع على كتف خالد، كان يشعر تماماً بما يعتمل في نفسه الشابة:

– ما عليه يا ولدي خالد، إن شاء الله يصير خير.

– أحب راسك يا عمي بو جاسم، حاول تقنع أمي تخليني أسافر ويّا حمد، انت شايف وعارف بحالتنا، أنا مهب قادر أوايه أمي، ما أبيها تشعر إني جاحد بفضلها عليّ، لكني ما أقدر أتم مثل المسجون عندها طول عمري.

كانت الكلمات تتفجر على لسان خالد الذي يكافح من أجل أن لا يهزم هذه المرة على يد أمه، لأول مرة يشعر المطوع أنه أمام رجل حقيقي يريد أن يقطع الأسباب التي

تربطه بطفولته المدللة، ضمه إليه بقوة، بينما راح خالد ينتحب على صدره..

- عيّن خير يا ولدي ولا يضيق خاطرك.

في بيت أم خالد راح المطوع يحاول بكل ما أوتي من كياسة القول إقناع أم خالد بالسماح لولدها كي يسافر برفقة حمد للعمل في الشركة، بينما راحت دموعها التي نفرت من عينيها الوالهتين بغزارة تسابق كلمات المطوع، تحاول الاستنجاد بأم جاسم التي أشارت إليها بأن لا حيلة في الأمر، لم تجد أم خالد عذراً لموقفها سوى أن قلبها لا يطاوعها على رؤية ولدها بعيداً عنها، لكن المطوع واجهها بحسم:

- انتي تبين تخسرين ولدج يا أم خالد ولّا شلون؟

- أنا...؟!

- إيه، انتي، عيل ليش توقفين في طريجه؟ لو ان ولدج لا سمح الله ماشي بطريج شين كان كلنا وقفنا معاج، لكن ولدج خالد يدوّر الرزق اللي الله سبحانه بارك فيه، يا ليتج شفتيه وهو يصيح جدامي.

- خالد يصيح؟

- إيه يصيح من قلة الحيلة، ما يقدر يتصرف في نفسه، كله خايف تزعلين عليه، عاد انتي لازم تاخذين بخاطره وتوافجينه في اللي يبيه يا ام خالد، والمثل يقول اكرام النفس هواها، إيه، وانتي ما تنقصج المعرفة.

تضع أم خالد يدها على رأسها بينما تمكسها أم جاسم:

- يا ويل قلبي من اللي اسمعه.

- تصبري بالله يا أم خالد.

- كلها سنة وسنتين ويرد لج بالسلامة، وحمد تعهد جدامي إنه بيحط باله عليه وبيضمن له الشغل، اشتبغين بعد؟!!

لم يعد لدى المطوع ما يتكلم به، ترك معها أم جاسم لتهدئتها وذهب إلى المسجد لإقامة الصلاة، كان خالد ينتظره هناك بفارغ الصبر، فهم من عينيه أن عليه أن يتريث، في ذلك اليوم تأخر خالد في الرجوع إلى البيت كمن يؤجل موقف المواجهة بينه وبين أمه التي لا يحتمل ضعفها أمامه أبداً، عندما دخل من باب البيت بهدوء في تلك الليلة وجد أمه جالسة لوحدها على المصطبة المواجهة لباب البيت، لأول مرة في حياته يواجه عيني أمه اللتين تعاتبانه بعمق الحزن الذي تمتلئان به، لكنه داس على خشيته وخطا نحوها:

- مساء الخير.

ودون أن تتطلع إليه، بل ظل رأسها منكساً وصوتها تخنقه العبرة:

- متى تبغي تسافر يا خالد؟

لم يصدق ما يسمع، أصابته الصدمة والذهول حتى جاءه صوت أمه مرة ثانية:

- أقول متى تبغي تسافر يا خالد؟

وجد نفسه منساقاً بالجواب:

- عقب باكر يا يمه..!!

- يمه خالد، توعدني يا ولدي خالد وعد..؟

- آمري يمه.

- إذا شفت في شغلك مشقة أو ما يجوز لك توعدني انك ترجع البلاد ولا تغصب نفسك عليه..؟

وباستسلام:

- أوعدج يمه...

وكمن تقتلع كبدها من جوفها:

- اللّه يوفقك يا ولدي.

عانقته وهي تبكي على صدره بحرقة كأنما تودعه إلى الأبد.

سمع العم أن ابن أخيه خالداً سيسافر مع حمد في الغد للعمل في الشركة، جُن جنونه، لم يحتمل فكرة أن يسافر ابن أخيه مع حمد بالذات، تصور أنها طعنة أخرى يسددها له حمد بابن أخيه، كان عليه أن يمنع ذلك، إذا كانت حجته المال فسوف أعطيه.

لم يطل الأمر، بعث لابن أخيه أبا حسين كواسطة في السر ليقول له إن عمه مستعد لإعطائه مبلغاً مناسباً على أن يترك فكرة السفر مع حمد، غير أن خالداً خيب ظن عمه ولم يعر وعوده أي اهتمام، كانت المغامرة في المجهول - الشركة - هي ما شده ليترك كل شيء وراءه.

عند السفينة في الصباح الباكر، كان وداع حار بين الأم وولدها خالد بعد أن استحلفت حمد أن لا يسهو عن ولدها طرفة عين، لم تنس أم خالد أن تدس قرآناً صغير الحجم في صرة أغراضه التي هيأتها له، وعندما امتلأت أشرعة السفينة بالهواء وأخذت تبتعد عن الشاطئ لم تعد الأم تحتمل الوقوف على قدميها فجلست على الأرض وهي تنتحب، وزاد بكاؤها وهي ترى السفينة تغيب وراء الأفق، واستندت إلى أم جاسم وفاطمة اللتين قادتاها إلى البيت، أما خالد فقد كان يغطي مسامعه بيديه ويضغط عليهما بكل قوة حتى لا يصل إليه صراخ أمه وبكاؤها، بينما حمد يجلس إلى جانبه، وحين غابت بيوت الديرة عن عينيه المحمرتين راح رذاذ الموج الذي يضرب جوانب السفينة ينعش قلبه الذي يتوق للمغامرة والسفر، وسرعان ما دبت فيه الروح ليشارك البحارة أعمالهم وغناءهم الذي أزاح عن صدره ثقل الهم الذي تجمع لحظة الوداع.

في الشركة بدا كل شيء غريباً على عينيه، استطاع حمد أن يجد له وظيفة بعيدة عن متاعب الحفر ومد الأنابيب بواسطة رئيس المخزن، عينوه معاوناً لسائق سيارة الشحن التابعة للمخازن، ولشد ما كانت فرحته وإحساسه بالتفوق عندما أخبروه أن هذه الوظيفة تتيح له أن يصبح سائقاً في المستقبل، ربما يواتيه الحظ أيضاً ويدخل دورة للميكانيك فيصبح عاملاً محترفاً ذا راتب جيد في الشركة، في تلك الليلة رغم تعب النهار الذي أجهده ظلت أحلام المستقبل تراود خاطره، هل صحيح أنني سأصبح سائقاً لهذه البلية التي تقودها الشياطين؟ كيف تصور نفسه وهو عائد للديرة بهذه السيارة؟، سوف يهرب الجميع من أمامه، لن يصدقوا هذه الأعجوبة، لكن ما معنى ميكانيك..؟ لم يتعب نفسه كثيراً في حل هذا اللغز، كان هناك ما يشغل ذهنه عن كل شيء، وراحت عيناه المتعبتان تغفوان على صورة أمه التي أصبحت مثل أحلام المستقبل الموعود لديه، بعيدة عنه قريبة، ترددت هذه الكلمات الأخيرة كصدى عميق في كيانه ولم يدر بعدها سوى أنه استسلم لحلم غائم الصورة، بعيد، قريب، لكنه لا ينبئ بالخوف أبداً..!

تمنى أبو حسين لو أن الأرض انشقت وابتلعته قبل أن يرى ظنونه القديمة تتحقق أمام عينيه، لأول مرة يشعر أنه كالأبله لا حول له ولا حيلة، في الماضي اكتشف ضياع بعض الفلوس من صندوقه فرد الأمر لنسيانه، ومرة اتهم ابنته سلمى معتقداً أنها تحاول مساعدة أخيها صلاح فضربها يومها كعادته ضرباً مبرحاً دون أن يصدق حلفانها له وتوسلاتها..!، المصيبة تكمن في نومه الثقيل، لو انهد البيت فوق رأسه ما شعر بشيء وهو نائم، كاد الغيظ أن يفتك به، فهذه المرة لم يكن المبلغ المسروق يعبر عن حياء اللص أبداً، لأن صندوق نقوده أفرغ تماماً، لم يكن هناك من يتهمه غير أخي زوجته عتيق، لا بد أن زوجتي متعاونة معه أو تتستر عليه، ما الفرق..؟ أوجعه هذا الاكتشاف مثلما أوجعه ضياع النقود، لكن ما هو أمر من هذا الوجع هو شماتة الناس به وبحاله الذي آل إليه بعد تنكره لأولاده، كم وقف إلى جانب زوجته ضدهم وأدار

ظهره لنصائح الناس؟، بل سخر منهم، هذا المتكبر على جميع الضعفاء، المداهن لجميع الأقوياء، جاء الوقت الآن لكي يتعرى تماماً مفضوحاً بالحقيقة المرة، لا، لن تفلت مني مع أخيها، سأسترد فلوسي ثم أطردها من البيت معه، لكن ماذا لو أنكرت، أشكوهما للقاضي، أي نعم للقاضي..!، صار لها مدة تضجر مني، ترفع صوتها علي بعد أن كانت طيعة كالكلبة، تغيرت بعد مجيء أخيها، تعتقد أنه سيحميها مني، خاب فألها، لم يستطع المضي أكثر في غيظه، راح إلى زوجته يصرخ بالحقيقة التي اكتشفها، رغا وأزبد، بينما انبرت له متحدية صراخه، حين هددها بالقاضي اتهمته بافتعال القصة من أجل تطليقها والبحث عن زوجة جديدة، وعندما وجد أن صراخه يفتك به ولا يؤثر فيها حاول معها بالسياسة، لكن ما حاوله كان عبثاً، هنا خرج من البيت مصمماً على استشارة المطوع في الذهاب إلى القاضي.

هز المطوع رأسه أسفاً لما يسمع، بينما أبو حسين يترقب نصيحته في هذه القضية:

- ها اشقلت يا مطوع..؟

- الله يهديك يا بو حسين، مشكلتك صعبة علشان ما عندك دليل تثبت فيه من باق الفلوس، والقاضي ما يقدر غير يحلفهم اليمين.

- يعني فلوسي ضاعت خلاص؟

- الفلوس تتعوض يا بو حسين، لكن اللي ما يتعوض هو خسارتك لعيالك.

لا يحتمل أبو حسين هذا الحديث:

- ردينا على طير ياللي يا مطوع، أنا وين وانت وين؟

نهض أبو حسين مغضباً كأنما لا يستطيع مواجهة هذه الحقيقة، لا يستطيع لأنه لا يتصور نفسه نادماً يلهث وراء أولاده كي يشفقوا عليه، كان أول شيء قاله لزوجته حين وصل إلى البيت إنه لا يريد أن يرى رقعة وجه أخيها في بيته مرة ثانية، لم يكن أخوها

بحاجة إلى ذلك، لأنه ترك البيت فعلاً منذ أن ضاعت الفلوس.

بقي أبو حسين أكثر من عشرة أيام مقاطعاً زوجته، لكنه كان يعاقب نفسه أكثر مما يعاقبها، إنها تعلم أنه لا يستطيع عنها صبراً، مرده إليها في الآخر، تصنعت المسكنة، عزلت نفسها في حجرتها، بينما هو راح يستسيغ خلق الأعذار لها، ربما ظلمتها؟ لماذا تسرعت باتهامها؟، ازدادت لهفته إليها بقدر أيام القطيعة، لم يعد يستطيع الصبر أكثر من ذلك بعيداً عنها، لم يدرِ كيف استرضاها، بماذا وعدها؟ لكن الذي يعرفه مؤكداً أن الأمور عادت إلى طبيعتها تماماً تلك الليلة.

المعرس

في صباح أحد الأيام الماطرة بعد أيام من الجفاف والبرد الشمالي القارس، كان أبو حسين يجلس في دكانه واضعاً على موقد الحطب الصغير إبريقاً للشاي، مقرباً أقدامه الباردة منه لكي يشعر بالدفء، وقد راح في نصف إغفاءة لذيذة ريثما يغلي الماء في الإبريق، جاءه زائر لم يتوقعه قطع عليه إغفاءته، ما الذي جاء بأبي محمد إلي في هذا الصباح؟ إنه لا يفعلها بالعادة، تردد هذا السؤال في رأسه بينما كان يرحب بأبي محمد ويدعوه للجلوس، لا بد أن أمراً وراء مجيئه عساه خيراً. كان أبو محمد في ذلك الصباح ودوداً غير متجهم كعادته، راح يحدث أبا حسين في أمور متفرقة دون تركيز على أحدها، ثم أبدى عتبه الشديد عليه لأنه لم يطلعه على قصة السرقة منذ البداية، عارضاً مساعدته، مما جعل أبا حسين يضطرب وهو يسمعه يتكلم عن المساعدة، فراح يطري نخوته وشهامته، شارحاً في الوقت نفسه ضيق الحال حتى يبقي خط المبادرة متصلاً، لأنه كان فعلاً بحاجة إلى المساعدة.

بينما كان يقدم له كأس الشاي، جاءه صوته هذه المرة جاداً وبتركيز:

- أقول يا بو حسين، شخبار بنتك سلمى هالأيام؟

لم يتوقع السؤال، لكنه أجاب بلا مبالاة واضحة:

- شخبارها يعني، قاعدة في بيت أخوها صلاح وولدها ملعوزها، مسكينة حظها طايح.

- مهب ناوي تزوجها يا بو حسين؟ ولّا تبيها تتم قاعدة جذي في بيت أخوها؟

- ودي أزوجها اليوم قبل باكر، لكن محد تقدم لها من عقب ما توفى ريلها.

- أنا يايّك علشان أخطب سلمى يا بو حسين، شقلت؟

لم يصدق أبو حسين ما يسمع:

- ياي تخطبها حق من يا بو محمد؟

- حقي أنا يا بو حسين، في عندك مانع؟

كان أبو حسين يهم برشف الشاي حين سمع كلمات أبي محمد الأخيرة، فترك الكأس وقد زاد اضطرابه:

- العفو، من قال عندي مانع؟ هذا يشرفني.

- عيل على بركة الله، شرايك باكر..

هنا تذكر أبو حسين أمراً فقطع على أبي محمد كلامه:

- أنا من رايي يا بو محمد نأجل الموضوع شوي.

وقد فوجئ أبو محمد:

- نأجل الموضوع.. شالسبب؟

- السبب الله يسلمك أخوها صلاح، ما ابيه يسوي لنا مشكلة، أنا أشوف نخلي الاتفاق بينا لحين يسافر صلاح عقب اسبوع ولّا اسبوعين، وساعتها نتمم الأمر بأمان وسلام، شقلت؟.

لم يكن أمام أبي محمد ما يقوله رغم أنه لا يستسيغ أية فكرة للمعارضة على شخصه، هز رأسه متفهماً ونهض ليعود إلى البيت بعد أن نشر البشت فوق رأسه ليحميه من المطر، أما أبو حسين فقد عاد البشر إليه من جديد، رجع إلى جلسته، مدد ساقيه باتجاه الموقد فاركاً يديه وهو يتأمل المطر، من قال إن المطر لا يأتي بالخير؟.

كانت سلمى فتاة رقيقة تحب الانطواء على نفسها، تتوجس خوفاً من أي شيء يخطر لها، زادتها وفاة زوجها المبكرة إحساساً بحظها السيء في هذه الدنيا، ورغم ما عانته في هذا الزواج إلا أنه كان أفضل حالاً من عيشتها في بيت أبيها، لعل انتقالها للعيش في بيت أخيها صلاح أشعرها بمعنى الأمان لأول مرة في حياتها، لعطفه عليها

ووقوفه دائماً لجانبها لو تعرضت زوجته لها.

أتعبها ولدها محمد الذي لا يشبه الأطفال، ورغم وسامته ووداعة وجهه إلا أنه لا يضحك ولا يناغي، تأخر في الكلام، صارت تضجر منه، أحست كأنما هو جزء من مأساتها التي تريد الهرب منها ونسيانها، أراحها كثيراً أن جدته أم جاسم تمسكت به وأبقته عندها حين غادرت سلمى لبيت أخيها، لم يكن متعلقاً بها، على أي حال كانت تزوره مرة أو مرتين في الأسبوع، لتعود بعد ذلك بالانطباع نفسه، ليته ما عاش، ما معنى حياته؟.

لم تدر سلمى يوم ودعت أخاها صلاحاً كعادتها أنها ستلقاه مرة أخرى في بيتها الجديد، بيت أبي محمد، لم يخطر ببالها ذلك حتى جاءها والدها بعد يومين من سفر أخيها ليبلغها كي تجهز نفسها لتزف إلى أبي محمد، توسلت سلمى لعمها المطوع وأم جاسم كي يقفا في وجه أبيها، على الأقل أن ينتظر رجوع أخيها من السفر، لكن أبا حسين كان مصمماً بعد أن اتفق مع أبي محمد على كل شيء، انصاعت في النهاية، ذهبت منكسرة إلى بيت زوجها الجديد، هناك توافر لها كل شيء، إلا الحنان الذي افتقدته طوال حياتها، حولتها هذه الخيبة الجديدة إلى كيان انطفأت فيه جذوة الحياة، انعدم لديها كل إحساس، كل شيء صار أكبر منها وأقوى، وهي مقهورة إلى درجة الموت.

كم كانت صدمة أخيها كبيرة بعد عودته من السفر، أدرك أن أباه قد باعها دون أن يسأل عن أحد، راح من فوره ليرى أخته، وهناك انفجرت أخته بالبكاء بحرقة أمامه كأنها لم تبك من دهور، راحت تشكو له قهرها وانكسارها، بينما هو غير قادر على الكلام، حبست الغصة كل الكلمات في حلقه، تركها مسرعاً إلى دكان أبيه، لم يعد قادراً على سماع المزيد، وهناك كان يجلس أبو حسين متوجساً مع المطوع، وحين رأى ولده قادماً إليه والدم يكاد ينفجر من وجهه حاول مكابراً أن يسكته بصوته القوي قبل أن ينطق، لكن صلاحاً كان لديه الكثير ليقوله، لم يدر عن نفسه كيف وقف للمرة

الأولى متحدياً أباه وصراخه وهو يسأله والدمع ينفر من عيونه:

- ليش يا يبه سويت جذي، ليش؟

هجم أبو حسين رافعاً عقاله ليضرب صلاحاً:

- مب قاصر غير انت تحاسبني يا الكلب..!!

لكن المطوع أمسك به وأخذ صلاحاً بعيداً بعد أن تجمهر الناس، وعلى صدر المطوع راح صلاح يبكي بحرقة..

- تعوذ من إبليس يا صلاح، هذي أبوك حسابه عند رب العالمين مهب عندك، واللي صار صار ما تقدر ترده الحين.

يلتفت إليه صلاح منفعلاً:

- لكن المسكينة شذنبها يا عمي؟ شذنبها؟!.

- اللّه يعينها، شنسوي يا ولدي، الحين خلاص ما عاد ينفع هالكلام.

كان صلاح في هاجس آخر:

- عمري كله ما أسامحه.

- لا يا ولدي، لا تقول هالكلام، انت عاقل، أبوك له حق عليك ومحد يوافجك لا الشرع ولا الناس إذا تخليت عنه.

- حسبي اللّه على الظالم، حسبي اللّه.

كان صلاح كما يعرفه الجميع طيب القلب، لين العريكة، عاقلاً محباً لأهله، ترضيه أي بادرة، وأكثر ما كان يؤلمه إدراكه أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لأن الظروف أقوى منه، ورغم اندفاعه وحماسه في البداية، إلا أنه سرعان ما يعود إلى طبيعته بعد أيام راضياً بحظه حتى لو كان مراً علقماً، وسرعان ما تأخذه دوامة العمل لتنسيه

همومه الشخصية من أجل لقمة عيشه.

أين أنت الآن يا خالد لترى أفراخ الحمام الجديدة، كنت تحبها كثيراً، تقعد إلى جانبي ترقبها بشغف وهي تمدّ مناقيرها الطرية من العش منتظرة وجبتها الطرية المعجونة بريق أمهاتها، يا الله... المنظر نفسه يتكرر أمام عيني ها هنا، لكنك هذه المرة لست إلى جانبي لتراه، كيف تعيش بعيداً عني، آه لو تعلم بحالي في غيابك، أنا لا أصدق نفسي كيف سأراك عندما تعود إلي، لا أصدق أنني سأكون قادرة على الوقوف أو الكلام، لأن قلبي سينخلع وقتها من مكانه، وإذا عدت لا تحلم بالسفر مرة أخرى بعيداً عني، لأنك ستحكم بموتي وتكون جاحداً لحبي وأمومتي.

رسالتك التي بعثتها وصلت إلي منذ يومين يا نظر عيني، قرأها لي عمك المطوع، كلماتك حفظتها في قلبي، لكن لماذا بعثت كل هذا المبلغ؟ لا تضايق نفسك يا ولدي فنحن بخير والحمد لله، لكن الأمر الذي لا تدريه يا خالد هو مرض أختك حصة، منذ شهر وهي عليلة تذوب يوماً بعد يوم، عجزت معها، لم أترك دواء عند أبي حسين إلا جربته لها: ورد لسان الثور، العنزروت، الصبر، بنت الذهب، علك البان، السدر، لكن دون فائدة، لا تذوق طعم الأكل حتى لو كان من يد فاطمة، أنا خائفة عليها من مرض الجدري، يقولون إنه دخل الديرة وأصاب بعض الناس، الحمد لله أنك بعيد في هذا الوقت، الجميع لا يخرجون من بيوتهم إلا للضرورة خوفاً من هذا المرض يا كافي الشر..!

ما أقول لك عن فاطمة التي لا تفارقني مع ابنتها، معروفهم لا أنساه في حياتي، وخميس الطيب يجلب لنا كل الأغراض التي نحتاج إليها، فاطمة دائماً تعتني بأختك، المسكينة عنيدة حتى في مرضها، يا ليتها تعرف كم حرقت قلبي وأنا أراها على هذه الحال لا أقدر أن أفتديها بشيء.

خالد يا حبيبي تقول لي في رسالتك إنك تعلمت السواقة، وأنا خائفة عليك، من

يدري، ربما كان في هذه السيارة جان كما يقولون، أنا لا أنام الليل من خوفي عليك.

انتبهت أم خالد للطفلة نورة تأتي إليها بسرعة والفزع في عينيها:

- ها شفيج يا نورة..؟

- عمتي، أمي تقول إن حصة تزوع دم!!

- تزوع دم؟!

انطلقت أم خالد إلى الحجرة مروعة حيث ترقد ابنتها وإلى جوارها فاطمة تبكي بصمت، لم تكن تعلم أن هذا هو آخر عهدها بابنتها التي بدأت بالاحتضار، من أول نظرة عرفت الحقيقة القاسية حين رأت عينيها وقد تحولتا إلى مكان آخر، أخذت تصرخ، بينما راحت أختها تبكي لصراخ أمها، وفاطمة تحاول تهدئتها، ونورة مذعورة لا تعرف أين تختبئ، ورغم أن مرض الجدري لم يكن هو السبب في وفاة حصة، إلا أن الناس اعتقدوا ذلك، أخذوا الجثة بسرعة ودفنوها بعيداً وأحرقوا ثيابها وجميع متعلقاتها حتى لا ينتشر المرض، وشُطف البيت بالماء المغلي وبُخّرت الحجرات.

في الليل كان صوت أم خالد الصارخ الملتاع يحرق العتم الذي أرخى سدوله على الفريج، لم يكن بمستطاع أحد أن يخفف عنها هذه اللوعة، كان أبو حسين يتململ كلما سمع صراخها الباكي ويتحوقل من طبع النساء اللواتي لا يتصفن بالعقل والتسليم لأمر الله، بينما كانت مخاوفه المرضية تجعله حريصاً على اقتناء دوائه الذي أعده بنفسه من السبع الموصوفات، وفي كل مناسبة وأخرى يبلع قليلاً منه ليطمئن هواجسه المتشائمة.

هناك بعيداً في الشركة حدث أمر غريب بالنسبة للعمال حين أعطاهم الطبيب والممرضون حقناً في أذرعتهم لحمايتهم من مرض الجدري كما قالوا لهم، يضحك لذلك حمد ساخراً أمام خالد:

- أنا عمري ما سمعت إن الدوا ينعطى قبل المرض، صج هالأجانب عقلهم

عجيب!

لكن خالداً ينتبه لأمر آخر:

– لكنهم قالوا لنا إن عقب الحقنة بتصيدنا سخونة، وعلشان جذي خففوا علينا ساعات العمل، والحين أحس بتكسر في جسمي.

– وأنا بعد أحس مثلك جذي!!.

كان هذا الإحساس دليلاً على صدق أطباء الشركة، ألا يكفي أنهم توقعوا ذلك قبل حدوثه؟، لكن المقارنة ظلت الدافع الذي يبعث سخرية حمد الظريفة حين كان يتصور ما سيقوله أهل الديرة عندما يسمعون بذلك، أما خالد فكان قلقاً على أخبار الديرة من شر هذا المرض، يوافقه حمد على ذلك، لكنه أبعد عنه المخاوف بأنه سمع أن انتشار المرض محدود هذه المرة، ليس كالمرات السابقة التي اكتسح فيها جميع المناطق، يسترخي حمد على الفراش راوياً قصة ذلك البدوي الشاعر الذي كان مشهوراً بعزفه على الربابة كيف أصيب بمرض الجدري فاضطر أهله لكي يبتعدوا عنه حتى لا يصابوا بالمرض، تاركين له جملاً مذبوحاً وكلبه الوفي الذي أبى أن يفارقه، ويقدر له أن يشفى من هذا المرض بعد أن تشوه وجهه، ثم كيف عاد إلى أهله فلم يعرفه أحد، فقام بالعزف على الربابة فعرفوا نغمته المميزة، كان خالد سارحاً في هذه القصة، غير أن حمد قطع عليه سرحانه بتعليقه الساخر:

– لو الحين معاي الربابة كان غنيت شوي.

– للحين تعزف على الربابة يا حمد..؟

– أي ربابة الله يهديك يا خالد، الحين وقت الطرب وطق العود والمراويس.

لا يفهم خالد هذا المغزى الذي يشير إليه حمد في كلامه، لكنه لم يكن مرتاحاً لسماع كلمات مثل العود والمراويس، لأنه تذكر تشنيع المطوع بأصحاب هذا الكار، لم يكن حمد مازحاً في ذلك، لأنه بدأ فعلاً بالترويح عن نفسه في تلك الجلسات الخاصة

التي يلفها الليل وتحميها البيوت المستورة عن أعين الرقباء، غير أنه ما كان مسرفاً في ذلك، فطموحه وأعماله الناشطة هي ما يهمه بالدرجة الأولى، أما خالد الذي تعلم السواقة بأسرع مما كان يتصور، فقد أصبحت هذه المهنة هي رهانه على المستقبل الذي يحلم به، بدأ يعد نفسه للخطوة الأكبر، وهي تعلم الميكانيك، حينها يصبح عارفاً بكل قطعة حديد داخل السيارة، والواقع أنه وجد رعاية خاصة من مسؤولي الشركة لصغر سنه وذكائه وحبه للعمل وأمانته، فكان أن وعدوه بإشراكه في أول دورة ميكانيك تقيمها الشركة للسواقين.

لأول مرة يشعر خالد أن حلمه بركوب البحر واكتشاف مجاهيله قد تحول إلى حلم بعيد ومنسي في أعماقه بعد أن أصبحت خواطره وآماله معلقة بالسيارة، هذا العالم الجديد الذي سيكون أول من يقتحم مجاهيله في ديرته كلها.

بدأ حمد يعد العدة لتوسعة أعماله الناشطة، فلم تكد تمضي سنتان على التعاقد مع الشركة حتى أحس أن ضغط العمل والطلبات الكثيرة يعطيانه فرصة كبيرة لشراء المزيد من الصنادل والسفن لتغطية هذه العملية المربحة التي أدارها بنجاح، صار لزاماً عليه أن يترك العمل في الشركة ليتفرغ لأعماله الجديدة بعد أن ازدادت علاقاته وأرباحه وصار قادراً على الاستغناء عن الراتب الذي لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى مرابحه، وفي اليوم الذي عقد فيه النية على ذلك نصحه أحد أصدقائه في الشركة أن يؤجل هذا القرار، لم يكتف بهذه النصيحة التي فاجأت حمد، بل أشار عليه بتجميد مشروع التوسعة لأعماله وعدم الارتباط أو التعاقد على شراء أي شيء حتى لا تحل به خسارة مؤكدة جسيمة، كان هذا الكلام محبطاً تماماً لآمال حمد التي أوشكت على الازدهار، لكن كيف..؟، لم يبخل عليه ذاك المسؤول بإعطائه التبرير الذي لم يخطر على باله إطلاقاً، هناك احتمال لنشوب حرب كبيرة تمتد آثارها إلى المنطقة، والشركة قد توقف أعمالها وتصرف العمال في فترة الحرب. رغم أن حمد كان يهز رأسه متفهماً، إلا أنه في الحقيقة لم يكن يعي هذا الكلام تماماً، ما علاقة

هذه الحرب البعيدة بهذه المنطقة..؟، غير أنه واثق من هذا المسؤول الأجنبي لأنه مطلع على أمور مؤكدة، واثق منه لأنه سبق له مساعدته مرات ومرات، إذن ما العمل برأيك؟.. أشار عليه بأن يبيع الصندل قبل أن يكسد سوقه ويبقي على السفينة، وكم تستمر هذه الحرب..؟، لا أحد يعلم، الحرب الأولى استمرت أربع سنوات، سبق لحمد أن سمع بعض حكاياها، لكنها كانت كالخرافة بالنسبة إليه، تحسر حمد على آماله التي ستضيع بسبب هذه الحرب، لا تكن متشائماً يا حمد، كن رجلاً ذكياً كما عرفتك تستطيع أن تستغل فترة الحرب لصالحك، كيف؟، اسمع.. في الحرب تقل المواد التموينية وترتفع أسعارها بشكل جنوني، ما عليك الآن سوى أن تضرب ضربة كبيرة قد تكون أكبر بكثير مما كنت تبنيه على أعمالك التي تتحسر عليها الآن..

الآن اتضحت الصورة أمام حمد، ستكون هناك مغامرة أخرى، لكنه لن يخسر بها كثيراً فيما لو لم تنشب الحرب، إن لديه من المال ما يكفي، خاصة بعد أن يبيع الصندل الذي له حصة فيه، من المؤكد سيكون سعره مرتفعاً، في هذه الفترة عليّ أن أتصرف بسرعة قبل أن تسبقني الحرب وتصل إلى مسامع الناس.

في اليوم التالي كان حمد ينسحب من شراكته بلا تردد ويبدأ بتصفية أعماله متعللاً أمام شريكه بغير الأسباب الحقيقية، لأنه في الواقع لا يريد أن يشرك أحداً معه في مشروعه القادم، غير أنه رأفة بشريكه وحتى لا يخرب بيته نصحه أن لا يوسع أعماله، دون أن يقول له عن السبب سوى أن يثق بكلامه.

في الشركة وجد فعلاً أنها بصدد تقليص أعمالها ومشاريعها من خلال الهمس الذي يدور هنا وهناك، لم ينتظر طويلاً، كان يعرف أنه سيكون من أوائل الموظفين الذين ستستغني عنهم الشركة، فقال في نفسه سأكسب الوقت في ديرتي بدل أن أضيعه هنا، وفعلاً قدّم استقالته لينال تعويضه المقرر، وجاءته الموافقة مع كتاب شكر إضافة إلى التعويض الجيد.

فوجئ خالد بنية حمد الرجوع إلى الديرة قريباً بعد أن صار له فترة لم يره فيها لانشغاله بدورة الميكانيك التي انخرط فيها، كان يعرف أن قرارات حمد المفاجئة لا تأتي هكذا، لا بد أنه حسبها جيداً، غير أن أحداً لا يعرف ما الذي في نيته تماماً، إنه لا يكشف نفسه أمام أحد مهما كان قريباً له، لم يكن أمام خالد إلا أن يوصيه برؤية أمه ليطمئنها عليه ويعطيها المبلغ الذي سيرسله معه، قل لها إنني سأذهب لرؤيتها بعد انتهاء الدورة، لم يلمح خالد وجه حمد الساخر الذي علته نصف ابتسامة، لم يدر أنه يقول في سره: إنها ستنتهي قريباً..!!.

في أيام قليلة استطاع حمد أن يشتري كميات كبيرة من المواد التموينية بعد أن تخالص مع شريكه بشأن السفينة واشترى حصته فيها، كان اهتمامه مركزاً على المواد الجافة التي يمكن تخزينها لمدة طويلة، في وقت كان فيه بعض التجار في السوق ينعتونه بالجنون لأنه ترك مهنة تدر عليه الذهب.

حين أبحرت السفينة أخيراً صوب الديرة متخمة بالحمولة، تميل جوانبها مع الأمواج، كان حمد يشعر بأنه سيبدأ رحلة غوص جديدة في تاريخ الديرة، هذه المرة ليست في الهيرات، بل في حاجات الناس المتزايدة إلى مخازنه العامرة بالمواد التموينية، فليأتِ وقت الكساد إذن، فهذا هو وقت ازدهاري وضربة حظي الجديدة.

شغلت عودة حمد بسفينته الناس، أما هو فقد بادر إلى استئجار مخزن كبير بأجر ضئيل وراح يرسل من يشتري له المواد من أنحاء الديرة حتى يظل هو بعيداً عن التعامل المباشر، كان خميس أول من سحبه ليعمل عنده بأجر مغرٍ ومستقر، استطاع شراء كميات كبيرة من المواد المتوافرة دون ضجة بعد أن اشترى أتباعاً مخلصين له، ليبقى حمد شخصية مريبة وغامضة في نظر المتطفلين.

بكت أم خالد كثيراً وهي ترى حمد بعد أيام من وصوله لأنها لم تر خالداً معه، تغيرت كثيراً بعد صدمتها بابنتها حصة، صار وجهها قاسياً أكثر منه جميلاً، طمأنها

حمد على ولدها وهو يبشرها بالمستقبل الذي سيجنيه من مهنته الجديدة، لم ينس أن يعزيها ويقول لها إنه بالخدمة في أي أمر، كان صادقاً في هذا، فحمد يكن لها كل التقدير والاحترام، دعت له أم خالد بالتوفيق بعد أن بشرها أن عودة خالد باتت قريبة، قد لا تمر شهور إلا ويدخل عليك من باب البيت، لقد تغير كثيراً مع الشارب، قد لا تعرفينه الآن يا أم خالد.

في ذلك اليوم راحت أم خالد تمني نفسها بعودة ابنها بعد سنوات من الغياب، تمني نفسها بعودة ذلك الرجل الذي جعلت عوده الأيام أكثر صلابة وأنبتت شارباً مهيباً في وجهه، هل سيعود أبوه في إطلالته..؟ كيف سألقاه؟، لأول مرة سألت ربها بصدق أن تعيش لذلك اليوم.

راح حمد يتحدث للمطوع عن بيته الجديد الذي بدأ العمال في بنائه من الحجر بدلاً من الطين في موقع بيته القديم، خلال ذلك خرج أبو محمد من بيته متحاشياً المرور من جانب السدرة لأن حمد جالس تحتها متابعاً سيره إلى دكان أبي حسين، رغم أنه لا يحب الجلوس هناك لرائحة الدكان الثقيلة التي اختلط فيها الغبار بالبهارات، بدا على المطوع أنه يهم بحديث خاص، لكنه تريث ريثما يبعد خميس..

- خميس..

- لبيه.. آمر عمي.

- أبغيك تودي هالادوا حق عمتك أم جاسم، تشكي من عيونها توجعها، قول لها هاذي ادوا بو حسين اللي سواه لج مخصوص.

- إن شاء الله عمي.

ينصرف خميس بعد أن أعطاه المطوع الدواء الذي كان في جيبه، وينتبه حمد الذي لا تفوته هذه الأساليب فيبتسم للمطوع:

- الظاهر ما تبغي خميس يقعد معانا..

يربت المطوع على كتف حمد بأبوّة:

- فيه لي كلام معاك يا حمد وأبغيك تسمعني زين قبل لا تجاوبني على كلامي.

- إن شاء الله يا عمي، تفضل.

ينتقي المطوع الكلمات بعناية:

- يا ولدي حمد، الله سبحانه أعطاك ورزقك من فضله، وما أنت بحاجة حق أحد، وانت ولد هالديرة وما يهون عليك يتم فيها زعل، أنا كل اللي أبغيه تكون القلوب متصافية مع بعضها، والكلمة الطيبة حسنة يا ولدي، واللي يبدأ بها هو راعي الطيب، عاد اللي بينك وبين بو محمد ما يسوى يصير حكوه بين الناس، وبو محمد أنا أدرى الناس به، صح إنه راسه حار، لكن قلبه طيب.

يضغط حمد على الكلمات حتى لا ينفجر غيظه أمام المطوع:

- تبغيني أروح له بنفسي وأعتذر له يا عمي من عقب كل اللي سواه معاي؟!.

- بو محمد أكبر منك.

- ما لاحظت يوم شافني قاعد معاك تحت السدرة سوى روحه كنه رايح دكان بو حسين، ابي أعرف ليش يرفع خشمه عليّ، زمان أول تحول يا عمي، إذا كان ينطر أروح له البيت وأسلم عليه ابيبطي.

- شها الكلام يا حمد الله يهديك، انت عاقل ولا ينبغي منك تقول جذيه، انسى اللي فات وخلنا نبتدي من جديد اخوان على يد واحدة.

- أنسى اللي فات! بهالسهولة يا عمي؟، أنسى إنه قهرني وقهر أمي وأبوي، انت يا عمي غالي علي الله يشهد، لكني ما أقدر على هالطلب لأنه فوق طاقتي، لكني باوعدك في شي واحد أقدر عليه..

- شنهو يا حمد؟

- قول لـه يكف لسانه عني وأنا باكف لساني عنه، هو في صوب وأنا في صوب والسلام.

كان هذا كافياً لكي يقطع الحديث، ويتعلل حمد بأسباب من الشغل لكي يمضي إليها، بينما كان المطوع يهز رأسه كعادته متأسفاً على محاولته إصلاح الموقف، لم يعد هناك من يستمع للنصيحة في هذه الأيام!، من قال إن الصلح لا يتضمن في طبيعته تنازلاً، وأحياناً خسارة، لكنه صلح، وفي النهاية يبقى سيد الأحكام!!.

• • •

فضلت أم خالد أن تجلس على المصطبة قدام حجرتها بعد أن ملّت الفراش الذي لازمته ليومين كاد فيها رأسها أن ينفجر من الصداع المؤلم مع إحساس بتكسر في جسمها، استندت إلى الحائط برأسها المعصوب بالمنديل، بينما حضرت لها فاطمة منقوعاً من العشب وجاءت به إليها، أما نورة فراحت تكنس الحوش وقد بدا عليها أنها أصبحت على أبواب الصبا، كانت ترد شعرها الذي ينسدل بين الحين والآخر عن وجهها، رشفت أم خالد المنقوع بحذر من يكره الدواء، لكنها استمرأته:

- أشوى، تسلم يدج يا فاطمة، ادوا بو حسين يلوع الجبد.

- والقايل، تصدقين أنا من يعورني راسي يا أم خالد أشرب هالمنقوع.

- هالعوار بغى يذبحني في أول وثاني يوم، لكني الحين أشوى.

راحت فاطمة تتحدث عن خميس المنشغل مع حمد هذه الأيام، بينما أم خالد ترقب برضى نورة، تتأمل حركاتها المتأنية، تبتسم أم خالد فتلحظها فاطمة:

- تطالعين نورة.

- ما شاء الله عليها، نورة صارت مره ما في مثلها في الفريج!!.

تتنهد فاطمة:

- شالفايدة يا أم خالد ما دام الناس تقول إنها بنت خميس وفاطمة.

تنتفض أم خالد بإنكار:

- شفيها لو كانت بنت خميس وفاطمة؟، منهو يقدر يقول عليها كلمة..؟

- انتي تدرين، الناس ما يهمها غير الظاهر.

- ما عليج من نورة يا فاطمة!، نورة عليّ أنا جدام الناس كلهم وأنا المسؤولة عنها.

- هذا من طيب اصلج يا أم خالد، الله يبارك فيج ويخليج لنا ذخر.

لم تفرح فاطمة كما فرحت عندما سمعت كلمات أم خالد القوية والواثقة في حق ابنتها نورة، منذ زمن بعيد كانت أم خالد هي التي تشتري وتعطي ابنتها نورة أجمل الثياب، لا تكاد تفارقها يومين إلا وتبعث في طلبها، لكن كلمات أم خالد الأخيرة كان لها معنى آخر بعيد يشفي حسرة فاطمة العميقة على ابنتها التي سيذبل جمالها عند من لا يستحقها، يكفي أن أم خالد تقف إلى جانب ابنتها بهذه القوة التي وصفتها كلماتها حتى لا تخشى بعد ذلك على ابنتها شيئاً من الاستهانة على ألسنة الناس من أمثال أبي حسين الذي لا ينكر دهشته، كيف يستطيع ذلك الأبله خميس وتلك العرجاء فاطمة أن ينجبا هذه الفتاة الجميلة، ذلك ما لم يستطع فهمه أبو حسين ولا كثير غيره ممن أعجبتهم هذه المقولة، ربما يستطيع حظك يا ابنتي بقدرة الله أن يتعالى عليهم جميعاً، من يدري؟!.

في هذه السنة الكئيبة بدأت بوادر الكساد والقحط تلوح في الأفق، تنذر رجال البحر بعطلة مفتوحة من البطالة لا يعلم غير الله مداها، اللؤلؤ الطبيعي الذي يعد مورد الرزق الأساسي لأهل الديرة لم يعد له سوق بسبب الصناعي، كذلك ما زاد الطين بلّة انعدام المواد التموينية الأساسية كالعيش والتمر والسكر، مما هدد البلاد بمجاعة تصيب الكبير والصغير فيها دون رحمة، حتى بلغ سوء الحال بالناس أنهم

كانوا يأخذون أوعية التمر ويبلونها بالماء ليذوب ما علق بقاعها وأطرافها من بقايا التمر ليكون من ذلك عصير باهت يعين بعض الشيء على الجوع.

كثرت الخلافات بين كبار التجار والطواويش لعجز البعض عن الوفاء بحقوق الآخرين، إضافة إلى انتشار الأوبئة كالملاريا والجدري، راح بعض التجار يحاولون كسر الطوق لجلب المواد التموينية إلى الديرة من أسواق بعيدة، لكن الذي كان يصل لا يكفي أبداً لسد الحاجة، عدا عن ارتفاع الأسعار الذي بدأ يتصاعد دون أن يمتلك الناس تلك السيولة النقدية التي تمكنهم من الشراء، كانت الأزمة معقدة بشكل رهيب كنسيج مشتبك الخيوط لا يمكنك أن تفك خيطاً من جهة إلا وتواجهك عقدة من جهة أخرى.

في هذه السنة نفسها سرى خبر أنعش البلاد من أقصاها إلى أقصاها كإيماض البرق الخاطف في قلب العتم الرهيب بعد أن وصلت إلى البلاد شركة أجنبية لاستخراج البترول، ذلك الاسم الجديد الغريب الذي ألهب الآمال اليابسة سابقاً في السعودية والكويت والبحرين ها هو الآن ينعش الآمال في قطر وينبئ بدخول عصر جديد، راح الناس يتحدثون عن ضخامة المعدات التي أنزلتها الشركة في الفرضة، سيبدأون الحفر في منطقة دخان، لأول مرة شاهد الناس طائرة تهبط على الماء، تعجّب الناس البسطاء لهذه الظاهرة الغريبة التي أعجزت عقول الجميع، لكن الخيبة الأولى بالنسبة إلى العاطلين عن العمل الذين كانوا يتوقعون أن تشغلهم الشركة بعد أن سمعوا عن الأجور التي كان يتقاضاها العمال في السعودية والبحرين والكويت من الشركات، كانت راجعة إلى أن الشركة لم تتعاقد مع أكثر من مائتين وخميس عاملاً مضافاً إليهم بعض العمال الأجانب التقنيين، هذا العدد كاف بالنسبة لأعمال الشركة، لكنه غير كافٍ بالتأكيد ولا يساوي شيئاً بالنسبة لعدد العاطلين عن العمل في البلاد، غير أن الناس احتملوا أوجاعهم على مضض، انتظروا ذلك الأمل الذي سيعوضهم عن كل ما احتملوه من شقاء، ألا وهو ظهور البترول، لم يكن لديهم من

زاد من أجل هذا الأمل إلا الانتظار بعد أن تصور أكثرهم أن البترول سيظهر بين يوم وليلة، لكن الانتظار طال، وبقي ذلك الأمل يبرق في عتمة البؤس والشقاء التي رانت على البلاد.

بعد الغياب

هدأت الضجة في ساحة الفريج بعد أن ذهب الناس إلى بيوتهم كعادتهم عند غروب الشمس، سكنت الحمائم في أعشاشها، أجيال من الفراخ ولدت في غياب خالد عن البيت، هكذا كان يدور في خاطر الأم التي ما برحت منذ أشهر تنتظر عودته مقابل الباب على مصطبتها، هل كان حمد يضحك على عقلها عندما بشّرها بأن ولدها سيعود بعد أشهر، ها هي الأشهر مرّت وما زالت تنتظر، الناس يتحدثون عن الحرب الكبيرة التي نشبت في بلاد بعيدة، يا كافي الشر!، لماذا ينشغلون بحديث الحرب التي لا تخصهم ويتركون مصيبة الجوع الذي يهدد أهل الديرة!..

- كل يوم اتّراوالي شكل يا نظر عيني، الحين استويت ريال وخط شاربك، جني ماني بمصدقة روحي لو ماانت بجدامي، أبغي أيودك عندي ولا أخليك تروح مكان، وأتم أنا بروحي في البيت.

انتبهت أم خالد لصوت عربة يأتي من الشارع، يتوقف عند باب البيت، استغربت أن تسمع ذلك الصوت في هذا الوقت، بدأ قلبها يخفق، وصل إليها صوت رجل يأمر أحدهم بإنزال الأغراض، لم يكن هذا الصوت غريباً تماماً، لكنها لم تتعوده، لم تجرؤ على توقع شيء، خافت من خيبة جديدة، لكنها أحست أن الأمر يخصها، ربما كان مرسالاً من طرف خالد، تمنت أن لا يكون كذلك حتى لا تعد نفسها بأشهر جديدة من الانتظار.

أخيراً سمعت صوت قرع على الباب، كاد قلبها أن يتوقف، اقتربت من الباب وقربت رأسها منه وهي تقول:

- من بالباب؟

جاءها صوت رجل واثق من نفسه، لكنه يكلمها بلا تكلف:

- بطلي الباب وانتي تعرفين!

استندت إلى الباب خشية أن تقع، لم يشأ الرجل أن يجعلها تنتظر طويلاً، فجاءها صوت ما عرفت أعذب من وقعه في حياتها:

- بطلي الباب، أنا ولدج خالد، رديت لج يمه!!.

- لم تستطع أن تكتم صرختها «يمه خالد» وهي تفتح الباب، وقفت لتراه واقفاً يضحك لها، يندفع لها معانقاً، بينما هي ترفع وجهها الباكي وتتملاه مرة بعد أخرى، تعود إلى صدره تغمر وجهها فيه، تمنت لو تبقي رأسها مدفوناً في هذا الصدر بعدد الأيام والليالي التي قطعتها وحيدة في غيابه.

في تلك الليلة اضطرت الأم إلى إخباره بالحقيقة المرّة عندما افتقد أخته «حصة»، وراح خالد يجدد أحزان أمه ببكائه الحار عليها، جلس يسحب الهدايا والأغراض التي جلبها لتفرح بها أخته، يا للمفارقة المؤسفة، هال الأم أن تجد هذا الرجل الذي تعلقت به وحلمت بعودته يرجع طفلاً صغيراً باكياً بلوعة فقدان أخته، ولأول مرة في تاريخ حزنها وجدت نفسها تتجلد وتنهر ولدها لكي يكف عن البكاء بصوتها المتهدج الذي تملؤه الغصة:

- لا يا ولدي، الحين ما يجوز عليها غير الرحمة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، الله يرحمها.

ثم رقّت قليلاً وتوسلت إليه أن لا يندبها ببكائه، يكفيها الذي عانته من أجلها في عزلتها المريرة، جمعت الأم الأغراض التي بعثرها خالد وهي تمسح دموعها وتتطلع إليه..

- قم يا ولدي وارتاح من تعب السفر، باكر بتجيك الناس تسلم وتخلّف[1] عليك،

(١) وتخلّف عليك: تعزيك.

أنت الحين رجال البيت ولا هو بزين لك البجا.

كان خالد فعلاً بحاجة إلى النوم بعد طول الطريق الذي قطعه في عودته، راحت أمه ترقي له رأسه بأدعية طالما رددتها له وهو صغير، استسلم لحنوّها، ثم بدأ صوتها المشغول بالدعاء الهامس يغيب عن مسمعيه ويتلاشى حتى لم يدر عن نفسه شيئاً إلا وهي توقظه في الصباح كي يفتح مجلس أبيه للناس.

قام خالد يغسل وجهه، بينما أمه ترقبه من بعيد وهي تشكر اللّه وتحمده في قلبها، لم تنسَ أم خالد أن تبعث منذ الصباح الباكر بعض الصبيان لكي يخبروا المطوع وحمد وخميساً وأبا حسين وغيرهم بعودة خالد إلى الديرة.

لم ينتظر أبو حسين لدى سماعه الخبر، بل جاء من فوره حتى لا يسبقه أحد في معرفة أحوال خالد الجديدة، وقبل أن يذهب خالد إلى المجلس سمع صوت أبي حسين من خارج البيت وهو يصرخ عليه، فخرج له خالد ليفاجأ به أبو حسين:

- ما شاء اللّه على ولدي، ما شاء اللّه عليه، الحمد للّه على السلامة.

- يا هلا عمي بو حسين، تفضل، حياك.

لا ينسى أبو حسين أن يرفع صوته لتسمعه أم خالد:

- أول عليج يا أم خالد، قرت عينج بردة ولدج خالد.

- أول علينا وعليك يا بو حسين، الفال لك إن شاء اللّه بردة ولدك محمد.

كان ذكر ولده كافياً لكي يثير كوامنه الهاجعة، لكن وصول خميس قطع عليه استرساله عندما راح يعانق خالداً ويقبله على كتفه وهو يراه وقد غدا أطول منه، ويبتعد عنه غير مصدق أن هذا هو خالد، امتعض كعادته أبو حسين من خميس:

- شفيك أذّيته وأنت تحبب فيه، اقعد عاد خلنا نسولف معاه.

يضحك خالد لخميس الذي تصدى لأبي حسين:

- لين حببتك لك حق اتّكلم.

- لا إن شاء اللّه.

تنادي أم خالد خميساً الذي تملؤه الفرحة بعودة خالد لكي يجلب دلة القهوة إلى المجلس، تلتمع عينا أبي حسين عندما تذكر القهوة التي أصبحت نادرة الوجود هذه الأيام..

- عساك كثرت الكمية!!. يا زين القهوة وريحتها، من شهر ما ذقتها.

- لا يهمك يا بو حسين، أنا حاسب حسابك.

- أعرفك رجال ولد بو خالد اللّه يرحمه، من أصل طيب اللّه يخليك.

ثم لا يستطيع أبو حسين أن يصبر أكثر على سؤاله الرئيسي:

- أقول خالد، عساك وفرت فلوس وايد مثل حمد.

يضحك خالد محرجاً، لكن أبا حسين يلكزه:

- قول عاد أنا أبغي مصلحتك!.

- ما هب وايد، لكن الحمد للّه.

يدخل خميس بالقهوة فيقطع على أبي حسين استرساله، بينما تنفس خالد الصعداء..

- هات عنك يا خميس القهوة.

- لا واللّه محد يصبها غيري.

يصب خميس القهوة لأبي حسين، لكن أبا حسين يشير إلى خميس أن يملأ الفنجان طمعاً في المزيد، ويشربه بسرعة ليملأ له خميس فنجاناً آخر، يأخذه على مهل هذه المرة كمن اطمأن لنصيبه، ثم ينهض أبو حسين متعللاً بفتح الدكان، لكنه لا

ينسى سخريته فيلتفت إلى خالد:

- تدري ليش أبغي أبطّل[1] الدكان؟ علشان الناس ما تظن اني مب صاحي ولّا صاير فيني شي لا سمح الله.

- والبيع والشرا يا بو حسين؟

- شلي عندي أبيعه؟ لا عيش فيه، لا سكر لا شاي لا قهوة لا دهن، كله سلامتك، مهب باجي في هالدكان غير عشبة الإدوا، وان شفت حمد قول له على لساني إني زعلان عليه وايد، معقول أترجاه علشان يعطيني كيس عيش ويتدلل عليّ، وما عنده غير كلمة إن شاء الله والله كريم، بس ما أقول غير يا حسافة على أيام أول.

يذهب أبو حسين بعد أن أفرغ ما في جعبته، ويسأل خالد خميساً:

- شلونها عمتي فاطمة يا خميس عساها بخير..؟

- يسرك الحال..

- أقول خميس، قم خلنا نزور العم بو جاسم، من حقه عليّ انشد عنه واسلم عليه.

ينهض خميس مع خالد الذي أخبر أمه أنه سيذهب بنفسه للسلام على المطوع، هناك بكى المطوع لرؤية ذلك الطفل المدلل وهو يعود إليه الآن شاباً يملأ العين للوهلة الأولى، يكتشف المرء أهم الملامح الجديدة في شخصية خالد، الهدوء والرزانة والكلام القليل والبسمة التي لا يبخل بها في مجاملة أي إنسان أمامه، فيوحي بأنه ممن يخفي في سره أكثر مما يعلن. كان يجلس إلى جانب المطوع حفيده الصغير محمد الذي لا يوحي بأنه تعدّى الثامنة رغم أنه في الثانية عشرة من عمره، كان هذا الفرق واضحاً عليه، لم يشأ خالد أن يسأل المطوع عنه حتى لا يجرح مشاعره، بادره المطوع بالسؤال

(١) أبطل: أفتح.

عن عمله وأحواله هناك، كان هذا أول سؤال يرتاح له خاطر خالد لأنه لم يكن يهدف إلى معرفة ما معه من فلوس أو ما ينوي عمله من مشاريع كما أحرجه بذلك قبلاً أبو حسين:

- الحمد لله يا عمي، أنا الحين أسوق سيارة وعندي شهادة تصليح مكاين، مهب معوّد للشركة لأنها وقفت عن الشغل بسبب الحرب.

- الله يستر من هالحرب، ما من وراها غير الجوع والفقر والمرض، لكن ليش وقفت شركتكم عن الشغل بسبب الحرب وهني يات عندنا الشركة تدور على البترول؟

ويفاجأ خالد بهذا الخبر:

- تقول عندنا شركة تدور على البترول؟

- إي يا ولدي في منطقة دخان، اسأل حمد وهو يعلمك.

- زين والله.

- الظاهر هالشركة ما يهمها الحرب.

- ما ادري، كل شركة ولها ظروفها.

- تدري الناس أول ما سمعوا عنها عبالهم إنهم بيشتغلون كلهم فيها، لكن الشركة ما وظفت غير ثلاثمية نفر، بس ثلثهم أجانب، والحين ننطر لين يظهر هـ «البرتول».

- (مصححاً) البترول يا عمي.

- المهم نشوف آخرتها شبيصير!!

- البترول ثروة كبيرة يا عمي، وكل البلادين الكبيرة تدور عليه لأنه تحتاجه.

- أحسن من القماش؟[1].

- وايد، وانت تدري سوق القماش اخترب يا عمي هالأيام.

---

(١) القماش: اللؤلؤ الطبيعي.

- اي صج والله، هالبترول أمره عجيب، عندنا تحت الأرض وحنا ما ندري به، سبحانك يا ربي.

قام خالد ليرجع إلى البيت، تبعه خميس كظله، بينما كان المطوع يتأمل خالداً من بعيد وهو يقول في سره: «سبحان الله، اللي خلف ما مات».

في طريق العودة إلى البيت وجد خالد أن خميساً كمن يريد دعوته إلى بيته لكنه يخشى اعتذاره، فبادره خالد قائلاً:

- عيب أمر من جدام بيتكم ولا أسلم على عمتي فاطمة..

لم يصدق نفسه خميس من الفرح، فشبك يده بلا مبالاة بيد خالد وراحا باتجاه البيت، فلاحظ خالد أن البيت قد تغير قليلاً بعد أن زاد فيه خميس حجرة أخرى في الحوش ساعده فيها حمد، صرخ خميس من الباب على فاطمة بأن تحزر من جاء معه ليسلم عليها، لم تصدق نفسها إلا حين رأته يدخل من الباب، بينما هربت نورة إلى الداخل قبل أن يراها خالد، كادت فاطمة أن تقبل يده لفرط حبها له وتأثرها، لكنه ابتعد وأخذ رأسها وقبله:

- شلونج خالتي فاطمة.

- بخير الله يسلمك ويبجيك.

جلس على كرسي يتفقد أرجاء البيت من حوله كمن يبحث عن شيء يتذكره جيداً لكنه لا يعرف كيف أصبح الآن بعد كل هذه السنوات، نادت فاطمة على ابنتها نورة لتسلم على خالد، فجاءت وقد وضعت على رأسها ما تغطيه به، حين رآها كان يتوقع كل شيء إلا أن تكون نورة قد بلغت هذا المبلغ من الصبا والجمال، كانت في حدود الثالثة عشرة وقد نضجت واكتملت أنوثتها، نهض خالد مرتبكاً وسلم عليها، بينما ردت عليه باستحياء، أراد خميس أن يعلق لكن امرأته لكزته بكوعها حتى يطبق فمه فالتزم الصمت، لم يستطع خالد الجلوس طويلاً خيفة أن ينكشف إعجابه بنورة

فاعتذر وقام يودعه الجميع عند باب البيت، في الطريق إلى بيته لم تفارقه صورتها التي سلبت لبه بفتنتها الأخاذة، عاتبته أمه لأنه تأخر لأن بعض الناس جاؤوا ليسلموا عليه بينما هو خارج البيت، لكنها عندما علمت أنه مر ببيت خميس أشرق وجهها وراحت تصف له ما قاموا به من معروف تجاهها في غيابه وأنها لن تنسى لهم هذا المعروف ما دامت حيّة، ثم كمن انتبهت إلى أمر:

- شفت نورة يا خالد؟!

وباختصار مقصود:

- اي يمه.

ابتسمت الأم كمن دخلت في وجدان ابنها متابعة بتركيز:

- نورة فاهمة ونشيطة ما في مثلها!..

لم يعلق خالد بشيء على هذا الكلام الذي كان استدراجاً واضحاً في غير أوانه، فقد تعود أن يكتم مشاعره ويصوغ عالمه الخاص بعيداً حتى عن أمه أعز الناس على قلبه، عودته الغربة أن يتروى في جميع الأمور، أن لا يغريه الانطباع الأول مهما كانت درجة حضوره في النفس، أما أمه فكان ما يشغل بالها أن تعرف بالدرجة الأولى هل سيتركها مرة ثانية ويسافر أم أنه سيستقر في البيت، وحين علمت على لسانه أن الشركة أوقفت العمل وأنه لن يعود لم تصدق نفسها، كانت مؤمنة أن الله استجاب لدعائها وأقفل أبواب تلك الشركة من أجل أن يعود إليها ولدها، ضحك خالد لذلك كثيراً وهو يستحلفها أن لا تدعو على الشركة الجديدة التي جاءت إلى الديرة لأنه ينوي العمل بها، لم تعجبها هذه الفكرة أيضاً:

- ردينا على سالفة الشغل بالشركة يا ولدي، الحين عندك فلوس وايد وما انت بحاجة للشغل! .

- أنا ما أبغي اشتغل علشان الفلوس وبس.

- وش علشانه؟!

- أنا تعودت على الشغل وأتضايق لو قعدت من غير شغل، الحين صار عندي مهنة جديدة تعبت الليل والنهار حتى تعلمتها، شلون تبيني أهدها وأرتاح في البيت؟!!، غير جذي شغل الشركة هذي قريب، وأنا أوعدج من اليوم وساير ما أخليج بروحج، ها.. شقلتي يمه؟

- أنا ما أبغي غير جذي يا ولدي، أبغي أجوفك دوم يمّي يا بعد طوايفي!!.

- خلاص يمه، اللي راح راح وكان غصب علينا كلنا، ولكن من اليوم وساير بتملّين من قعدتي في البيت.

عند العصر جاء حمد ليسلم على خالد واعتذر له عن تأخره لأنه لم يكن في الفريج، جلس الصديقان يسترجعان تلك الأيام التي قضياها معاً بعيداً عن الديرة، يضحكان لبعض الطرائف المشتركة، لم ينسَ خالد أن يلمّح لحمد أنه كان يعرف أن الشركة ستجمد أعمالها ومع ذلك لم يخبره يوم قدم استقالته، لكن حمد كان سريعاً في تغطية الأمر عندما ادّعى أن ذلك لمصلحته حتى لا يترك دورة الميكانيك فتضيع من يده.. لم يكن خالد في وارد الشك بحمد، لأن ظرفه وقربه من نفسه كانا يبعدانه عن كل شك، ألا يكفي أنه فتح له أبواب العمل في وقت كان بأمس الحاجة إلى من يمد له يد المساعدة؟، يسأله حمد باهتمام عن مهنته الجديدة فيقول له خالد إنه أصبح فاهماً بماكينة الديزل، لكنه بحاجة إلى الخبرة والمران في ذلك، وأظن الشركة الجديدة ستفتح لي هذا المجال، وافقه حمد لأنه اتصل بهم، يسأله خالد بسذاجة:

- انت قدمت لهم طلب للعمل معاهم؟، أكيد بيستفيدون من خبرتك في المخازن!..

باستعلاء واضح:

- لا لا، أنا ما أبغي أشتغل عندهم، أنا خلاص اكتفيت من الوظيفة، اللي بغيته

إني أتعاون معاهم وأييب لهم الأغراض اللي تلزمهم.

- واتفقت معاهم؟

- إي اتفقت ، أموّن مطعم العمال بالعيش والسكر والشاي والدهن.

- زين والله، بس هاذي كله متوفر عندك يا حمد؟

لم يكن حمد من النوع الذي يكشف نفسه تماماً حتى لو كان أمام خالد:

- لا لا، أنا عندي شوي، لكني بادبّر الباجي من تجار السوق، كل الموضوع وما فيه عمولة بسيطة، واسطة خير، من رجعت البلاد والناس ما تصدق، يحسبون عندي مخازن متروسة تموين.

- شعليك يا حمد من كلام الناس ما دام انت تشتغل باللي يرضي ضميرك؟

- الحرب هذي خوفت الناس وخلت كل واحد يخش اللي عنده، والتجارة صارت مغامرة محد يقدر يضمنها هالأيام.

- والغوص شخباره؟!

- خلاص الناس هونت عنه، والطواويش دوبهم يوفون ديونهم، والبحارة يدورون شغل، شيسوون، الفقر شين.

- وعمي بو محمد شخباره؟!

- سمعت انه رهن سفينته علشان يوفي ديونه، ويقولون إنه مريض، تدري ما حد حسب حساب هالأيام العسرة لا هو ولا غيره.

يلمح حمد من وجه خالد الانزعاج فيقطع استرساله ويغير الموضوع:

- تدري يا خالد، باكر تلقى مسؤولين الشركة عندنا في الدوحة وتقدر تراجعهم عن الشغل وما فيه حاجة تروح لهم دخان، وأكيد بيضمونك.

قبل أن يذهب حمد يتواعد مع خالد على لقائه غداً في السوق ليلتقي مسؤولي الشركة، وعند الباب همس له:

- أقول خالد، إذا لزمك شي حق البيت ترى انا حاضر، إحنا أخوان، من ناحية التموين لا تطلب من أحد غيري، أنا أخوك.

- مشكور يا حمد ما تقصّر.

بعد انصرافه وجد خالد نفسه وقد امتلأ بالهم، كان يعذبه كثيراً أن يسمع أخبار عمه على لسان حمد الذي يخفي شماتته، كان مهموماً لأنه لا يدري ما الذي يتوجب عليه فعله تجاه عمه رغم أنه يحس بأن عليه أن يفعل شيئاً ما لا يستطيع تحديده ما دام أنه لم يسأل أمه، تلك كانت قضيته الأساسية وهمه الكبير، تمنى في أعماقه أن تدفعه أمه إلى ما يرجوه دون أن يضطر إلى سؤالها ذلك، لأنه كان يعلم تماماً أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ورائها، فهو يحتمل كل شيء إلا إحساسه بهذا الذنب. على العشاء لاحظت الأم أن ابنها يخفي كلاماً في قلقه الواضح على تعابير وجهه:

- شفيك يمه.

هنا أحس خالد أنه لا يستطيع تأجيل الموضوع أكثر من ذلك:

- يمه أنا أجوف إن الواجب ازور عمي واسلم عليه.

تنقبض ملامح الأم، لكنها تمسك انفعالها:

- إذا تشوف جذي روح عنده، أنا ما أمنعك!.

لكن خالداً يطمع في أكثر من ذلك:

- يمه أنا قصدي مب جذي، أنا يهمني إنج ما تزعلين وتحطين في خاطرج.

هنا لا تستطيع الأم أن تكتم انفعالها أكثر من ذلك فتبدأ دموعها تنفر من عينيها والحشرجة تمسك بكلماتها:

- شلون ما تبيني أزعل وأنا أشوفك تروح بيت عمك بعد اللي سواه فينا، احنا يا ولدي نعرف الواجب ونوصي عليه، بس ليش هو ما عرفه يوم أنه يشوفني أبيع الحلال وانت غايب، ما كلّف نفسه يسأل عن بيت أخوه ان جانهم محتاجين حق شي، ليش..؟ صغير ما يعرف الواجب أو فقير ما يقدر حتى نعذره، أكا هو قاعد يتمتع في ثروة أبوك اللي جسمها لنا ظلم، زين خل هذي، ويوم ماتت أختك، تصدق أنه ما يا مثل ساير الناس يعزيني فيها، محّد قعد معاي يواسيني غير فاطمة ونورة وام جاسم، بعد اي واجب يلزمك حق عمك بعد هالواجب النبيل اللي سواه معانا؟، إيه.. الله يرحم أبوك، لو كان حي ما صار لنا اللي صار، لكن الله يمهل ولا يهمل.

أغلقت الأم على خالد جميع المنافذ بعد أن أثارته عندما راحت تذكر له الماضي، حتى أنه ندم من نفسه لأنه فتح هذا الموضوع، لم يكن يطيق أن يرى دموع أمه، كانت هذه الدموع كافية لتفجيره، كان يؤمن بقدسية أن كل أمر بعيد عن رضاها هو أمر لا قيمة له مهما بدا مغرياً في أوله، راح يستعطفها ويستسمحها ويطلب أن تزيل شكوكها في ولائه لها كولد لا يجد بعد رضاها رضى، حتى ولو وقف أما الناس أجمعين، وقبل أن ينام كان قد نسي تماماً موضوع عمه وغسل من قلبه كل إحساس بالذنب تجاهه.

استلم خالد عمله الجديد سائقاً لإحدى سيارات الشركة التي توصل العمال من الدوحة إلى دخان كل أسبوع، وتنقل الأغراض والمعدات ولوازم الشركة التموينية في الأيام العادية، كان مشهد وصول السيارة بالعمال كل خميس مشهداً احتفالياً يخرج فيه الناس لاستقبالهم، حتى غدا وكأنه بديل عصري لمشهد استقبال السفينة العائدة بالبحارة في موسم القفال، ورغم أن هذا العمل الجديد أتاح لخالد النزول يومياً إلى الدوحة ربما مرة أو مرتين، إلا أنه سرعان ما تضايق منه لكثرة التعب والإرهاق الذي ناله، كان الطريق يأخذ أكثر من خمس ساعات، عدا المشاكل الطارئة، مما حداه إلى أن يطلب أن يكون متفرغاً لمهنته كميكانيكي في الشركة رغم أن ذلك لن يتيح له الذهاب إلى بيته يومياً كما في السابق، فعينته الشركة عاملاً فنياً تحت إمرة أحد

مهندسيها الأجانب، وبدأت أم خالد تعتاد عمل ابنها الجديد رغم امتعاضها لأنه أصبح يتغيب عن البيت يومين أو ثلاثة، عدا عن بذلته الزرقاء التي تفوح منها رائحة ثقيلة حين يعود إلى البيت، أكسبه هذا العمل مراناً وخبرة في مهنته نفسها، كما صار يطمع إلى معرفة المزيد في مجالها، وكان عليه أن يخطو الخطوة التالية، وهي إصلاح جميع المكاين التي تعمل بالديزل، كانت نقلة طبيعية بالنسبة له، وساعده في ذلك أن المبدأ في مكاين الديزل واحد، والاختلاف فقط في مسألة البساطة والتعقيد، وبدا خالد بعد ستة أشهر من عمله هذا إنساناً أكثر ثقة بنفسه، وقد أحسّ الجميع ممن يعمل معه مدى لهفته لمعرفة المزيد واحترامه لمواعيد العمل.

لم تضايقه العزلة في الشركة، نفسيته الانطوائية نوعاً ما تساعده على احتمالها، لكن أمراً آخر بدأ يلح عليه في الآونة الأخيرة ويجعل عزلته هذه نوعاً من القلق المحموم، لكنه من النوع المخفي والمستور الذي لا يظهر بقوة على تعابيره، هذا الأمر هو نورة، نورة بنت خميس وفاطمة، أخذ تفكيره بها يلح عليه وينتشر في أنحاء نفسه، كان في كل مرة يراها يشعر أن الخناق يضيق عليه، لم يعد يستطيع الهرب من صورتها التي أصبحت تلاحقه في الفترة الأخيرة في صحوه ومنامه، رغم ذلك كان يحاول المكابرة على نفسه التائقة إلى هذا الجمال حين يتجاهل تلميحات أمه المتكررة وأسئلتها التي تحاول سبر وجدانه، كان هناك أمر يعكر عليه استغراقه في مشاعره المخفية نحو نورة، ألا وهو كونها ابنة خميس وفاطمة، لم يكن يستطيع أن يتجاهل ذلك بكل بساطة، فهو ابن بيئة تحكمها أعرافها وتقاليدها، صحيح أنه يحب خميساً ويعطف عليه ويقدره، وكذلك فاطمة التي ربّته، ولا يزال يذكر كم كان في طفولته متعلقاً بها، لكن هذا شيء وأن يصبح صهراً لهما شيء آخر. إن حمد نفسه ليس بالغبي الذي لا يقدر جمال نورة وفتنتها، وعندما كلمه أبو حسين ونصحه أن يتزوجها عدّ حمد ذلك إهانة في حقه، رغم أنه لا يفضلها بكثير من الناحية الاجتماعية، فعائلته ليست أفضل أصولاً من عائلة خميس، فهل يرضى خالد لنفسه ما رفضه حمد وهو من هو في أصله

وشأنه العائلي؟!.

إن أمي بكل تأكيد تقف إلى جانب نورة، إنها تقول ذلك صراحة، لكن خالداً لا يخفى عليه بتاتاً ما تريده أمه وما لا تريده، لماذا لا أتزوج ابنة عمي فيكون ذلك الزواج فاتحة لدفن الخلافات؟.. رغم أن هذا السؤال مجرد خاطر مرّ في رأسه إلا أنه لم يجرؤ على إعادته في نفسه لعلمه الأكيد أن أمه ستقف في وجه هذه الفكرة من أساسها وتفجّر أحزانها التي لا يحتمل مواجهتها، ما الذي تريده أمي حقيقة عندما تشجعني على الزواج من نورة ابنة خميس؟ ربما كانت تريد توجيه طعنة أخيرة إلى عمي المهدود الذي أفلسته الديون وأعجزه المرض، هل أكون أنا ضحية كل ذلك؟ لكن ما ذنب نورة أيضاً في أن تكون ابنة عائلة فقيرة طيبة؟، فالفقر لم يكن في يوم من الأيام عاراً في سيرة أحد من الناس وإلا لتساوى الناس في هذا العار، إن عائلات كثيرة كانت تتعالى بكبريائها تعاني الفقر في هذه الأيام.. هل أنسى معروفهم تجاه أمي طوال تلك الأيام التي عانتها في غيابي؟ إنني لا أستطيع أن أتصور أمراً بعيداً عن رضاها حتى لو سخط عليّ الناس، أنا نفسي لا أعرف لماذا أضعف هكذا في حضرتها رغم ما أعانيه من تعلقها بي ولهفتها التي تأسرني وتجعلني حبيس أمانيها، ما زالت تراني طفلها المدلل، أنا رجل فقط خارج البيت.

يا ليت لدي مبرراً واحداً لأهرب به من هذا القدر الجديد.. نورة، يا ليت!، إنني لا أستطيع أن أكذب على نفسي وأقول إنها لم تسلب عقلي يوم رأيتها الخميس الفائت وهي تلبس ذلك الزري الأحمر، أحسست وقتها أنها لا تحتاج إلى عائلة ولا غنى ولا حتى رضى أمي حتى تكون قريبة إلى قلبي، من ذلك اليوم كان هناك سؤال واحد يحسم كل شيء في قراري سألت نفسي إياه بصدق: هل أستطيع احتمال فكرة زواجها من أحد غيري؟، هل أتركها تفلت من بين يدي لأضل متحسراً عليها طوال حياتي؟، ألا تكفيني حسرة البحر التي دفنتها في أعماق وجداني فدى لعيني أمي المفجعتين؟..

لم يعد خالد يستطيع التفكير في هذا الأمر أكثر من ذلك ، يعلم الله كم قضى

من الليالي وهو يعذب نفسه، عندما عاد إلى البيت كان قد جهز نفسه بإجازة أسبوع من الشركة، وبعد الغداء جلس يشرب الشاي إلى جانب أمه التي لحظت البوادر في عينيه الباسمتين:

- شفيه يمك.

- يمه أنا خذيت إجازة أسبوع من الشركة أبي ارتاح فيها هني بالبيت.

- بس جذي؟، ريح قلبي يمّك ولا تخش عني الكلام.

- يمه بصراحة أبغي أتزوج في هالأسبوع، شرايج؟

تلتمع عيناها بالفرح:

- هذي الساعة المباركة يا ولدي، أنا أنطر تطلع هالكلمة منك قبل لا أنا أقول لك.

- عاد عرفتي منهي اللي أبغي أتزوجها؟

- اللي تبغيها أخطبها لك، أنا من لي غيرك أفرح فيه، بس أنا حاسّة إن هي نورة، مب جذي؟

- ما خاب ظنج يمه، إي نعم نورة!..

- أحمدك يا رب، اليوم المغرب نسهر عندهم ونودي معانا بو جاسم علشان نخطبها، خير البر عاجله.

- يا ليت يا يمه.

- كل شي بارز حق العرس، ومن فضل الله ما نحتاج حق أي شي.

- عيل على بركة الله..

في ذلك المساء عمّت الفرحة الجميع، كانت نورة تعيش أحلى أيامها، أهدتها أم

خالد مصاغها الثمين وحُدّد يوم الاثنين للملكة والعرس، كان على خالد أن يذهب باكراً إلى السوق في اليوم الثاني ليشتري الأغراض والثياب اللازمة والتوصية على الذبائح، واتفق على أن تكون الدخلة في بيت خالد لعدم لياقة بيت خميس، ورغم أن حمد تعجب لهذه البادرة غير المتوقعة من خالد، لكنه لم يقصر في أن يقوم بالواجب، فأرسل من يخبره أنه سيبعث بثلاثة أكياس من «العيش» وكيس سكر ودهن ولوازم أخرى على الرغم من ندرتها في تلك الأيام، عمّ الخبر الديرة كلها، ولم يستطع أحد أن يعلق إلا في سره ما دام أن أم خالد تقف إلى جانب هذا الزواج، راح أبو حسين من فوره ليوصل الخبر إلى العم أبي محمد بعد أن ذهب خالد إلى السوق في الصباح.

حين رجع خالد من السوق قبل الظهر بقليل وجد عمه بانتظاره يرقب الطريق من فترة طويلة في دكان أبي حسين، عندما أراد خالد أن يتجاوزه ناداه العم، فجاءه خالد حتى لا يضطره إلى المشي الذي يؤلمه، بينما راح أبو حسين يتشاغل في أنحاء الدكان كأنه لا دخل له فيما يجري، بأدب يلقي خالد السلام فيغمغم العم بالجواب مختصراً بينما وجهه يطفح من الغيظ والحنق، استعد خالد لمواجهة موقف عاصف مع عمه، مرّت لحظات حسبها دهراً اضطرت خالد لأن يبادر عمه:

- تبغي مني شي يا عمي؟

- جوف يا خالد، أنا ما عليّ من أمك، أنا عليّ منك، صحيح فيه زعل ما بينا وأنا ما يخصني فيكم من سنين، لكن هالأمر ما ينسكت عليه.

- أي أمر..؟

- يصير ولد أخوي بو خالد الله يرحمه يتزوج نورة بنت خميس؟ شفيكم؟، انتوا استخفيتوا ولّا شلون..؟!

- خل عندك خبر يا عمي إني أنا وأمي شي واحد وما أقبل أي كلمة في حقها، ولا في حق الإنسانة اللي اخترتها لي زوجة.

يصدم العم وهو يسمع هذه الكلمات تخرج من فم ذلك الصبي المدلل الذي كان يخشاه ويهرب من طريقه..

- أنا تقول لي هالكلام يا خالد؟

- اي نعم، والعرس يوم الاثنين.

- يا حسافة عليك والله.

قالها العم وهو يهز رأسه غير مصدق، لكن خالداً الذي كان يمسك كلماته حتى الآن لم يستطع الصبر أكثر من ذلك، فراح يذكر العم بأنه آخر إنسان يحق له أن يتأسف من أجل أمر يخصه، لم يستطع العم أن يسمع أكثر من ذلك، بل راح يشير بيده لكي يكف خالد وينصرف عنه، مما اضطر أبا حسين للتدخل ومعاتبة خالد لأنه لا يقدر حالة عمه الصحية.

انصرف خالد بطريقة توحي بأنه لم يشعر بالندم على شيء قاله في وجه عمه، بينما راح أبو حسين يهدىء من خاطر العم الجريح الذي أحس تماماً أنه لم يعد هناك من يخشى سطوته في الفريج، تمزق الشراع وراحت السفينة تحت رحمة الأمواج إلى حيث لا يعلم غير الله، أما خالد فإنه تعجب من تصرفه وانطلاقه في وجه عمه وهو الذي كان يشك في ذلك، لقد ذهب إليه متردداً محرجاً حين ناداه، لكنه سرعان ما انقلب إلى ذئب جريح لا يقربه أحد، وكلما أحس بينه وبين نفسه أنه كان قاسياً عليه وبدأت مشاعر الندم، كانت تهب في وجه هذا الإحساس عاصفة من السخط والغضب، لقد انتقم لأمه التي راحت في ذلك اليوم تبارك ولدها لأنه أثبت أنه ولدها الذي لا يجبن أمام أحد.

راح الناس يتحدثون عن الهدايا والأغراض والمصاغ والذبائح الكثيرة، فقد بدا العرس لوناً من ألوان الترف لم تعهده الديرة من سنين طويلة، كان كل هذا متعمداً من قبل خالد وأمه، لا لأنهم يحبون الإسراف أبداً، بل لأنهم أرادوا بذلك إكرام خميس

وفاطمة تحدياً لمن يستصغر وضعهم، كان العم يعتقد أن بعض العائلات لن تحضر العرس إكراماً له، لكن ظنه خاب، إذ حضر الجميع عرس خالد دون أن يتخلف أحد، كانت ليلة من الليالي التي ظلت الديرة تذكرها لسنين.

نورة كان كل شيء يجري أكبر من تصورها، ازداد جمالها بهاء بملابس العرس الجميلة، راحت كلمات الإعجاب والإطراء تصل إلى مسامعها، لكن أجمل كلمة تعلقت مسامعها بها تلك الكلمة التي ترددت كثيراً على ألسنة النساء بأن حظها من السماء، ولا تنسى أبداً أن أمها فاطمة ظلت إلى جانبها في الأيام التي سبقت العرس توصيها بين الحين والآخر..

- يا بنيتي خالد رفع رأسنا كلنا وأبيج تكونين عاقلة ولا تخالفين له رأي طول عمرج، وسمعي كلام أم خالد وحطيها على راسج.

لم تكن نورة بحاجة إلى هذه الوصية من أمها، فهي متعلقة بطبعها بأم خالد من طفولتها، وأم خالد تبادلها ذلك، أما خالد فكان حلماً بعيداً، كيف وقد أصبح ملكها الآن؟، كيف يمكن أن تفرط بهذا الحلم العزيز؟، بنات الديرة حسدنها عليه وهو فضلها على الجميع، كيف لا يكون ملكها الذي يأمر فيطاع؟!.

الكساد

مر عام آخر كئيب من سنوات الحرب العالمية وأصبحت شواطئ الخليج الدافئة الجميلة التي تعج بالحياة كأنها مصابة باختناق، طوت السفن أشرعتها وتراصت في الموانئ «الفُرض» صامتة يخيم عليها السكون بعد أن تعطلت مواسم الغوص، وراح البحارة يبحثون عن أي عمل آخر يجلب لهم لقمة العيش التي أصبحت أعز المطالب وأغلاها على الإطلاق، في فترة بائسة ارتفعت فيها أسعار المواد التموينية ارتفاعاً جنونياً لندرتها في الأسواق بعد أن عطلت أخطار الحرب التجارة في البلدان، وعرف الناس لأول مرة في حياتهم ما يسمى «البطاقة»، تلك الرخصة التي تسمح للفرد بكميات محدودة جداً لشرائها بالسعر الذي تفرضه السلطة في ذلك الوقت، وهذه الكميات لم تكن تغني شيئاً، لأن أغلب المواد كانت تفقد بسرعة من الأسواق لأسباب يرجع أكثرها إلى تلاعب التجار.

عند العصر كان النسيم لطيفاً، لم يكن ينقص تلك الجلسة تحت السدرة غير متعة تلك الأيام الخوالي التي كان فيها أبو محمد النوخذة يجلس متربعاً لا تعكر صفوه آلام الركب ولا تخفض رأسه الديون..

رغم أن أبا حسين والمطوع وأبا محمد كانوا جالسين منذ فترة غير قليلة، إلا أنه نادراً ما كانوا يتبادلون الأحاديث في جلستهم سوى بعض الكلمات، ربما انضم إليهم خميس أو أحد العابرين دون أن يكترث أحد منهم إلا لما يشغله في داخل نفسه، كان أبو محمد ينظر بأسى إلى العمال الذين يشتغلون في بيت حمد الجديد ويضيفون اللمسات الأخيرة إليه، أين ذلك البيت الطيني القديم من هذا البيت الذي بني بالحجر الأبيض؟، من أين لحمد كل هذا المال في الوقت الذي لم يبق أحد إلا وشكى الفقر الذي خيّم بظله الثقيل على الديرة؟، هل صحيح أن ذلك كله من أموال الشركة؟، غير معقول، أصبح حمد حديث الجميع، كلهم يتحدثون عن مخازنه العامرة بالمواد

التموينية في هذه الفترة الضيقة، بينما هو يشكو ويدّعي عكس ذلك، لا أحد يعرف أين يخبئ المواد، لكنها تظهر في الوقت المناسب الذي يحقق فيه ضربته، حتى صار الجميع يتقربون إليه وينافقونه من أجل أن يزودهم بين الحين والآخر بما يحتاجون إليه من هذه المواد، كأن الحرب قامت من أجل حظه حتى يرتفع نجمه أكثر فأكثر ليصبح الرجل الأول في السوق، كيف؟!، لم يستطع أبو محمد أن يجيب عن هذا السؤال سوى أن الناس ضاعت بينهم القيم، أصبحت الفلوس هي كل شيء، لقد أُعطي أبو محمد مهلة ستة أشهر ليتدبر أموره وإلا فإن دائنيه سيحجزون البيت، من يصدق ذلك؟!، لم يتعب أبو محمد رأسه كثيراً بهذا الهم الثقيل، لم يكن قادراً أصلاً على احتماله، أسند رأسه إلى جذع السدرة وراح يحلم بعيداً في تلك الأيام الخوالي.

أما أبو حسين فكان يشغله أمر آخر هو كيف سيستوفي الديون التي له على أبي محمد، إنه يخشى أن يوسط المطوع في ذلك لأنه سينهره حتماً ويذكره بأفضال أبي محمد عليه في الأيام السابقة، صحيح.. لكن ذاك وقت وهذا وقت، إنه لا يريد أن يكون مستغلاً لظروف أبي محمد الصعبة، لكنه يرى أن له أفضلية بين الدائنين فيما لو حُجز البيت، لقد حاول أبو محمد أكثر من مرة أن يستدين من أبي حسين في الفترة الأخيرة، لكن أبا حسين كان يتهرب بالأعذار المناسبة، لماذا يساعده ما دام ابن أخيه خالد يتهرب منه؟!!.

لماذا وافقت على تزويج أبي محمد من ابنتي؟، ما الذي جنيته من وراء ذلك؟!.. كرهتني ابنتي سلمى، حقد علي ولدي صلاح، كل ذلك من أجل رجل سوف يحجز بيته قريباً بسبب ديونه، ما الذي ينفعني فيه الآن؟، ماذا أعمل بحسبه ونسبه وأيامه الماضية التي كان لا يعيد فيها كلمته مرتين؟، ذلك الماكر حمد كان يدرك أن أبا محمد سيتحطم وإلا لما جرؤ على مجابهته، كيف فاتني ذلك؟، لقد خسرت حمد، إنه لا يطيقني، أعرف ذلك من «خشمه» الذي يرفعه أمامي كلما حاولت التودد إليه، لاحظ أبو حسين أن المطوع بدأ يتململ في جلسته فعرف أنه على وشك الذهاب إلى البيت فكان

عليه أن يذهب قبله متعللاً بأي سبب حتى لا يستفرد به أبو محمد ويحرجه بطلب المساعدة كالمعتاد، أحس أبو محمد بما يقصده أبو حسين من ذهابه المفاجئ، فمنعه كبرياؤه أن يلح عليه بالجلوس، انتبه أبو محمد للمطوع وهو يربت على ساعده قبل أن يذهب قائلاً:

- بتهون يا بو محمد بعون الله!.

هز أبو محمد رأسه متفهماً وقد منعه الضيق من الكلام، فغيّر وجهة الموضوع لأنه لا يحتمل التفكير به:

- شلونها أم جاسم الحين؟

- الله يعينها يا بو محمد، ما تقدر تقوم من الفراش، والأدوية ما نفعت معاها.

- الله كريم، الحي ما ييأس.

يذهب المطوع تاركاً أبا محمد وحده تحت السدرة، حاول أن يثني ساقيه الممدودتين لكنه أحس بألم شديد يتركز في ركبتيه منعه من المحاولة، كانت رحلة العودة إلى البيت رغم قصرها رحلة عذاب، مع ذلك لم يكن باستطاعته أن يسجن نفسه في الفراش دون أن يجالس الناس ويرى نفسه متوسطاً لهم على الرغم من شعوره بأن الناس تغيرت من حوله، لم يعد أحد يهتم بزيارته كالسابق أو التسابق إلى الجلوس إلى جانبه، هل هذه هي النهاية؟!، لم يكن يخشى الموت كفكرة، روّض نفسه منذ البداية على تحملها كبحار عنيد وصبور، لكن الذي يخشاه حقاً في قرارة ضميره أن يرى نفسه بائساً مهاناً يخشى أن يموت والغصة تملأ وجدانه، لأنه لم يستطع أن يثبت للآخرين أن الناس تكبر بنفوسها لا بفلوسها، ويتحسر في أعماقه لأنه لم ينجب ولداً ذكراً، ابتلاه الله بالبنات، لو أن بكره ولد لكان الآن شاباً يقف إلى جانبه في محنته، ربما كان الآن مع ابن أخي خالد في الشركة يكسب مثله الفلوس في هذه الضائقة!!!، لا يستطيع أن يبعد صورة خالد عن ذهنه، لو أن به نخوة أبيه لما رضي أن يصيبني ما

أصابني، لكنه ابن أمه الحقودة التي خرّبته علي وعلى أهله، حين قبل أن يتزوج ابنة خميس أصبح فاسداً لا نفع فيه.

عند باب البيت يجد امرأته أم محمد في استقباله كعادتها بعد أن مرض لتساعده في صعود درج المصطبة، تقوده للحجرة التي رتبتها له بكل صبر ووفاء، إن زوجته سلمى لا تكترث له، بل لا تكترث لأحد على الإطلاق حتى نفسها، لا تسمع شيئاً إلا إذا ناداها وطلب منها أن تقوم بأمر ما، يستند على زوجته الطيبة أم محمد، كم قسوت عليها دون أن تحاسبني على شيء؟، أصيلة.. يا ليتني أستطيع أن أعوض لها تلك الأيام التي هجرتها فيها، لكن كيف؟!، «لا ينفع الصوت عندما يفوت الفوت»، تتركه لتجلب له الطعام، طبخوا اليوم «الجريش»، ولماذا اليوم؟!، منذ شهور لم يدخل الأرز بيت أبي محمد، وكذلك بيوت الناس، ما عدا بعض البيوت التي ما زال لها نفوذها، تمنى لو كان يستطيع أن يقول لامرأته شيئاً مما يشعر به نحوها، تمنى لو يستطيع أن يطلب منها السماح، لكنه يعلم أن ذلك مستحيل، لأنه لا يريد أن يرى نفسه ضعيفاً أبداً، لا يحتمل ذلك، لكن أم محمد كانت تفهم مشاعره دون أن يعبّر عنها صراحة بلسانه، كان الرضى المنبعث من عينيه كفيلاً بإقناعها، عندما جاء الطعام تناول لقيمات من الجريش الذي بلعه بمساعدة الماء، حمد الله مكتفياً بذلك، كانت نفسه تجيش بالهموم، ما الذي بقي لديه ليبيعه؟، ومن الذي بقي من الأصحاب كي يستدين منه؟، لو كان شاباً أو يملك صحته على الأقل لرحل مع الذين رحلوا أو طلب العمل في أي مكان، لكن ذلك كله لا ينفع التفكير فيه الآن، إن عليه أن يتدبر وسيلة من هنا وحتى الأشهر القادمة كي يمنع الحجز على البيت، فليحجزوا نصفه على الأقل ويحتفظ هو وأسرته بالنصف الباقي، لكنه على أي حال مهما كانت الظروف لن يكسر نفسه أمام أحد من الشامتين حتى لو أصبح مسكنه في العراء، انتبه لزوجته أم محمد وهي تقول له ليرتفع إلى الفراش بعد أن جهزته له، أخذت بيده لتساعده وهو يتمدد عليه، أصلحت الوسائد تحت رأسه وسألته إذا كان يريد حاجة أخرى، فهز

رأسه بالنفي، لأول مرة منذ أن تزوجته بادرته بالكلام قبل أن تترك الحجرة:

- لا تحاتي يا بو محمد، ربك كريم.

لم يقدر على الجواب، بل أطرق برأسه والغصة تملأ قلبه، هز لها برأسه واعتدل قليلاً ليواجه نافذة الحجرة التي تطل منها بعض النجوم المتلألئة، في صفحة السماء غيوم تعبر بيضاء مع نسائم الليل، ما أجمل هذا الليل مع الفروة فوق المحمل، كأنما خيّل إليه أنه يسمع صوت نهام حزين يأتي من بعيد متسللاً في سكون الليل، ارتاحت نفسه إليه، واستسلم للنعاس الذي بدأ يراود أجفانه المتعبة، أودع همومه تلك الغيوم الراحلة عبر النافذة ولم يدر بعدها عن شيء إلى الصباح.

كل شيء تم بسرّية تامة في تلك الليلة الشتائية، نقلت أكياس «العيش» والسكر ومختلف المواد الأخرى إلى السفينة من مخازن حمد دون أن ينتبه أحد من الناس، حتى البحارة أخبروا نساءهم أنهم ذاهبون إلى جزيرة قريبة لصيد السمك، كان الهواء ملائماً للسفر إلى سواحل الأحساء وما جاورها، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها سفينة حمد إلى تلك المناطق سراً، بل كانت الثالثة التي يغامر فيها بسفينته وبحارته وبضاعته المهرّبة بين شطآن الخليج، الربح هو الدافع لهذه المغامرة، فهذه المواد تباع وقتها بأسعار مضاعفة في تلك المناطق، والحظ هو وسيلة الأمان الوحيدة، بالإضافة إلى عاملي الجرأة والخبرة، كانت السفينة تُملأ بالمواد بعيداً عن «الفرضة» الرسمية، تتظاهر في رحلتها أنها تصطاد السمك إلى أن تصل إلى نقطة متفق عليها، حينها يتم التسليم في عرض البحر بعيداً عن الشاطئ، في حال ظهور سفينة مطاردة - وهي من النوع الحديث التابع للبحرية البريطانية أو لسلطات المناطق المختلفة التي كانت تحرض على تفتيش السفن والضرب بيد من حديد لمكافحة ظاهرة التهريب بين الشطآن - كانت السفينة تلجأ للفرار معتمدة على معرفة مناطق «الفشت»[1] المتعددة التي لا يعرف منافذها إلا بحارة الخليج، أو يعتمدون على ظاهرة

(١) الفشت: صخور ناتئة تظهر خلال الجزر.

المدّ والجزر التي يعرفون مواقيتها، كل ذلك يوضع في الحساب قبل بداية الرحلة، وقد وجد حمد في شخص النوخذة «خلفان» بحاراً خبيراً يمكن الاعتماد عليه في مثل هذه المهمة، كان النوخذة خلفان فتياً في الخامسة والثلاثين من عمره، يشكو البطالة بعد أن تعطل موسم الغوص كسائر البحارة الآخرين، وقد أحبطت سنوات الكساد في فترة ما قبل الحرب آماله كنوخذة شاب يمتلئ بالطموح لكي يكون خير خلف لأبيه النوخذة على سفينته، فالمواسم الضعيفة أعجزته بالديون، مما اضطره إلى بيع السفينة التي لم تفِ بنصف الدين، ووجد أخيراً فرصته للعمل مع حمد الذي تفاهم معه تماماً بعد أن تكفل بباقي ديونه وأعطاه سهما مجزياً من أرباح الرحلات التي كان النوخذة خلفان وبحارته المختارون مستعدين نفسياً للمغامرة من أجل اللقمة العزيزة في تلك الأيام.

في المرات الثلاث لم يسافر حمد مع السفينة رغم حبه للمغامرة، كان يغامر بأمواله وحسب، ربما بدأ يحس بنوع من الخوف الشخصي في قرارة نفسه على ما بناه وحققه، فلم يكن من السهل عليه أن يتحمل شماتة الناس بعد أن بدأوا يتعلقون به وينافقونه، لكن دوره لم يكن سهلاً، كان يخطط لكل شيء من ترتيب الاتفاقات والإشراف على التحميل وإخفاء الأمر عن عيون المتطفلين، كل ذلك بالإضافة إلى تفاصيل أخرى معقدة كان على حمد تسهيلها قبل بداية الرحلة.

بدأت السفينة تتسلل إلى عرض البحر مستعينة بالمجاديف وسرعان ما اختفت في ستار الظلام، ورجع حمد يتعثر برمال الشاطئ وطين السكة ممنياً نفسه بعودتها سالمة غانمة بعد أيام ثلاثة سوف يقضيها بقلق وترقب، لكن بعد عودتها سوف يريحها من المغامرة لمدة أشهر قبل أن يعاود الكرة، فالطمع أكثر من اللازم قد يورد التهلكة، ثم إن حمد مقدم على مشروع جديد في حياته بعد أن شارفت أعمال البناء في بيته الجديد على الانتهاء وجهز له الفرش الأنيق مسبقاً الذي يعبر تماماً عن حال صاحبه في فترة بدأت بعض الوجوه الكريمة ببيع فرشها ومقتنياتها العزيزة من أجل لقمة

العيش.

بعد عودة السفينة سوف يقيم وليمة كبيرة في بيته الجديد يدعو لها وجوه الديرة وأصحابه، لا لشيء إلا لأن العزائم هي طريق الناس إلى الوجاهة، في مثل هذه الليلة منذ سنوات كان حمد يتعثر في طريقه مقهوراً، لا لأنه ضُرب ضرباً مبرحاً قبلها بليلتين، بل لأنه رأى بأم عينيه كيف تستطيع القوة والنفوذ أن تجعل من أبيه المسكين الخائف على ولده متحمساً لتلك اليد التي ضربت بلا رحمة، مستعداً لكي يجعل من ولده مذنباً ظالماً فاجراً من أجل أن يحفظ البقية الباقية منه، في تلك الليلة خرج حمد من البيت لا يلوي على شيء، يبكي دموعاً لا تزال جروحها تكويه في وجدانه، لكنه رأى في النهاية بصيص نور في بيت البحارة فمشى إليه، وتلك كانت البداية في طريقه الجديد نحو القوة والنفوذ.

• • •

الصدمة

لاحظ خالد على امرأته نورة أمراً كدّره تماماً، لم يكن ليسطيع أن يتنبأ به حين بهره جمالها في بداية الزواج، كانت تفضل الصمت والاستماع له دون أن تشارك من جانبها في شيء من الحديث، سوى بعض الكلمات التي تنفي أو تؤكد على استحياء منها شديد، كانت تبدو كأنما تنفذ درساً تعلمته من أمها دون أن تحيد عنه، ورغم أن ذلك أعجبه في البداية، إلا أنه بطبعه كان يحتاج إلى امرأة تأخذ معه في جوانب الحديث، كان بحاجة لأن يبوح لها بمشاعره المدفونة التي لا يستطيع أن يقولها أمام أمه، لكنه حين شجعها على أن تنطلق بالكلام معه أحسّ من فوره أن هناك مسافة شاسعة تفصل بينهما، خاب أمله تماماً في أن تفهم ما يعنيه وهو يتحدث عن مشاعره وأحلامه، ليس هذا وحسب، بل طريقتها بالدخول في جو الكلام تعبّر عن سذاجة واضحة وبساطة ما بعدها بساطة، فكثيراً ما دخلت في كلام ليس له أية مناسبة، أو أن تضحك بعفوية لأية بادرة، خيل إليه في البداية أن صمتها ومتابعتها لكلامه هو دليل على حسن تفهمها، لكنها في الواقع كانت تتمتع بكلامه لمجرد أن قائله هو زوجها خالد دون أن تفهم أحياناً كثيرة ما يعنيه هذا الكلام، بدأ خالد رويداً رويداً يجف ويجمد وجهه تجاهها، بينما هي حائرة في نفسها لا تعرف سبباً لتصرف زوجها الجديد نحوها، كانت مستعدة لكل شيء من أجل رضاه عنها، والحقيقة أنه لم يصرخ عليها مرة أو يحاول ضربها كعادة رجال ذاك الزمان، بل كل ما فعله هو أنه بدأ ينزوي عنها ويبتعد بأفكاره وما يدور في رأسه عن مشاركتها، يئس منها تماماً بعد أن تيقن من سذاجتها، يئس أن يرى فيها تلك المرأة التي يستطيع أن يفضي إليها بمكنون قلبه، في الوقت نفسه كان يملؤه العجب من تصرفات أمه نحوها، كانت تقربها إليها ولا تقبل أية إشارة من نقد لنورة، تدافع عنها بأكثر مما تدافع عن ابنتها، لذلك لم يجرؤ خالد على مصارحة أمه بمشاعره نحو زوجته لأنه كان يعلم أنه سيصطدم بها ويخسر في النهاية، فكان أن كتم كل شيء في قلبه كما هي عادته، لكن ما كان يخشاه حقيقة أن

تكون زوجته نورة نسخة عن أبيها خميس الطيب الساذج، فبينه وبين نفسه بدأ شيئاً فشيئاً بعد زواجه يتحرج من عمه خميس أمام الناس، صار يتعمد أن لا يجتمع معه في مكان عام، فقد حدث حادث آلمه جداً، فعندما كان ذاهباً لزيارة حمد صديقه سمع الضحكات تتعالى في المجلس على عمه خميس الذي كان يضحك ببلاهة مع الضاحكين دون أن يدري شيئاً، كانت عادة الناس دائماً أن يجدوا رجلاً ضعيفاً ليكون نكتة المجالس وهدف المقالب، تلك الضحكات أجفلت خالداً وأرجعته من الباب دون أن يعتب على أحد سوى حظه، ولم يجد حلاً لهذه القضية الجديدة سوى أن يستقيل خميس من خدمة حمد أو غيره من الناس ويكتفي بمهنة القلافة، وفي حال تعطله فسوف يعوضه من جيبه عن كل يوم يتعطل فيه، لكن المهم أن يترك خدمته التي اعتاد عليها للآخرين حتى لا يصير مضغة على كل لسان، لا، خالد لا يستطيع أن يحتمل ذلك أبداً، فهو لا يقبل أن يهان عمه خميس في حضوره أو في غيابه، فكرامته من كرامته، ولكن على خميس أن يساعده في ذلك، هو لا يريد أن يجرح نورة بهذه القضية التي لا ذنب لها فيها، لأنها رقيقة المشاعر رغم عفويتها، وهو يعرف أنها لن تقدر على شيء سوى أن تنزوي بنفسها وتأخذ في البكاء، كان خالد من النوع الذي يحتمل كل شيء إلا أن يجرح إحساسها بهذا الأمر، فرغم كل شيء تبقى نورة زوجته التي يحبها، حتى وإن كان مضطراً لإخفاء مشاعره عنها، فهو يعرف تماماً أنه لن يجد امرأة تتعلق به وتفني نفسها في سبيل راحته مثلها، لذلك ذهب إلى أمها فاطمة التي تعاني كثيراً من مشكلة خميس هذه ويعرف أنها ستقدر كلامه حق التقدير وتتعاون معه في هذا الأمر، فهو لا يستطيع أن يذهب مباشرة إلى خميس، لأنه لن يفهمه بتاتاً، وسيظل خميس في وادٍ وخالد في وادٍ آخر.

بكت فاطمة كثيراً أمام خالد الذي لم يكن يقصد ذلك، كان يهمها أن لا تصل إساءة إلى خالد بسبب خميس، لأنها تخشى على مستقبل نورة، فهي تعرف أن ذلك عاجلاً أم آجلاً سيؤثر، اعتذرت لخالد لأنها يجب أن تذهب لرعاية أم جاسم المريضة

كما تعودت في كل يوم، لكنها وعدته بأنها ستفعل المستحيل من أجل إقناع خميس.

لم تقل فاطمة أمام خالد وربما لا تدري أن خميساً بات معانداً بداخله لكل أمر أو نصيحة تصدر إليه منها رغم تعلقه بها، حتى صار يهرب من وجهها عندما يحس أنها تريد توجيهه لموقف جاد، فثمة أمر لا يستطيع خميس بحال من الأحوال تفسيره وهو: لماذا يعجز دائماً عن اتخاذ موقف جاد؟، ورغم حماسه أحياناً للبداية في اتخاذ المواقف، لكنه يفشل دائماً ويحس في النهاية أن ما تعوّده هو أفضل ما لديه، حتى وإن نغص عليه ذلك في بعض الأحيان، فذلك أفضل من تنغيصه عليه وهو يحاول القيام بعمل لم يتعوده في حياته.

أنكر خميس أمام فاطمة أن أحداً يضحك منه، قال لها إن حمد يرعاه أفضل من رعاية أبي محمد له، وهو (حمد) لا يرضى أن يضحك منه أحد في مجلسه، وهو مورد رزقه في فترة لا يجد فيها أحد الرزق، ثم إنه يعمل عنده قلافاً على سفينته، إنه لن يتنكر لحمد أبداً، سوف يخدمه بعيونه وهو راض عن ذلك، حاولت فاطمة أن تفهمه الأمر بطريقة غير مباشرة حتى لا تؤذيه لأنها تعرف مبلغ حساسيته وصعوبة إرضائه فيما لو أخذ على خاطره، فوجدت أن لا سبيل إلى ذلك ما دام أنه لا يفهم عليها إلا من خلال الكلمة المباشرة:

- زين يا خميس، انت تبغي تكدر عيشة بنتك نورة..؟

- أنا؟، أنا ابغي جذي؟! من يقول؟!.

- اسمعني للآخر..

وقد نفد صبره:

- زين قولي شعندج؟!

- شرايك لو خالد رد بنتك نورة للبيت؟!

- ليش يردها؟

وتلحظ فاطمة أن المغزى لم ينفذ إليه تماماً:

- علشان خالد ما تهون عليه نفسه احد يعايره ويقول له عمك خميس مقهوي عند حمد..

يطرق خميس برأسه إلى الأرض بينما راحت أصابعه تعبث بطرف البساط، كان هناك أمر لا يفهمه تماماً، وهو أن خالداً كان يعرف أن خميساً يقوم بخدمة الناس من أبيه إلى عمه وأبي حسين والمطوع وحمد في كل الأمور التي يطلبونها منه، كما أنه كان يعمل بالإضافة إلى ذلك في مهنته الأساسية عندما يتاح له ذلك، لماذا تزوج من ابنتي إذن..؟، كان يستطيع أن يذهب إلى عمه ويطلب ابنته، لماذا الآن يريدني أن أقف في وجه الناس وأغير من طبيعتي؟، أنا لا أتضايق من ذلك، فلماذا يتضايق هو عني؟، هل من المعقول أن يرد ابنتي إلي وأكون أنا السبب في طلاقها؟!، هل تقبل أم خالد بذلك؟!. أقلقه ذلك كثيراً، وبدا خميس لأول مرة متخوفاً من المستقبل، أخذ بنصيحة زوجته فاطمة بأن لا يحضر المجالس التي يكون خالد موجوداً فيها بالرغم من حب خميس لخالد وشعوره العفوي بالاعتزاز عندما يكون إلى جانبه. لمس حمد تغيب خميس المفاجئ عنه، كان بحاجة إليه لاقتراب موعد وصول السفينة، فهو يحتاج إليه في إفراغها من شحنتها قبل مجيء الصباح وانكشاف أمرهم، بعث له حمد من يطلبه إليه، لم يكن لديه وقت ليضيعه في السؤال عن حال خميس حين جاءه، كانت السفينة ووصولها سالمة هو ما يقلق حمد في تلك الآونة..

جهزت العربات وبعض الجمال والعمال الأشداء ليساعدوا بحارة السفينة، وفي الوقت المحدد أشعلوا الفنرات[1] لتضيء للسفينة وترشدها إلى المكان المعين في الظلام، لم يطل انتظارهم، فقد وصلت السفينة بخير سالمة غانمة، وراح الجميع

---

(١) الفنرات: أجهزة إنارة بالجاز.

يتعاونون في إفراغ حمولتها التي رجعت بها وإيصالها في عتمة الليل إلى المخازن الخاصة بحمد، وبعد أن فرغ الجميع من مهمتهم انصرفوا إلى بيوتهم وقد أرهقهم التعب على أن يجتمعوا في بيت حمد اليوم التالي ليأخذوا حسابهم.

راح حمد في تلك الليلة يستند إلى خميس في طريق رجوعهم إلى البيت حتى لا يتعثر، بينما خميس يمشي غير عابئ بشيء، وفي الطريق تذكر حمد أن يسأله عن سبب انقطاعه عنه، لم يكن لدى خميس ما يجيب به، بل غمغم بطريقه غير مفهومة، ولم يعبأ حمد كثيراً بجوابه رغم استغرابه، كان مرهقاً بما فيه الكفاية، لكنه أوصاه عند باب البيت ألا يفتح فمه لقريب أو بعيد بخصوص السفينة حتى لا يغضب منه، راح خميس يكمل طريقه إلى البيت وهو يحسب أن حمد ما أوصاه بذلك لولا أنه يثق به دون الجميع.

السعيدة

كيف خطر لأبي حسين أن يزور ابنته سلمى ويطمئنّ عليها بعد طول انقطاع عنها؟، فبعد زواجها لم يرها إلا مرة أو مرتين، وكان للصدفة الفضل في ذلك، أما الآن فقد قصد رؤيتها بنفسه، هل كان أبو حسين يخفي عطفاً في ثنايا مكابرته وقسوته ولا مبالاته؟، فها هو يحمل إليها في زيارته بعضاً من الحلوى التي أرسلها إليه ولده محمد من البحرين مع أخيه صلاح رغم أنه لم يعتد أن يشارك أحداً فيها أو في غيرها، اللهم إلا زوجته أيام الرضا وأوان الوئام، لعل البشرى التي حملها له ولده صلاح عن أخيه محمد هي التي جعلته يهادن صلاحاً رغم إحساسه بثقله على قلبه، فقد افتتح محمد محلا خاصاً به بعد أن تزوج ابنة معلمه في مهنة الصياغة، ليس هذا وحسب، بل إنه دعا أباه لزيارته في البحرين في بيته الجديد.

«محمد طالع عليّ أنا بو حسين»، هكذا كان يردد أمام نفسه حين يخطر له بقية أولاده صالح وسلمى، «صلاح وسلمى طالعين على أمهم، ايه»..

كان ذلك كافياً لإقناعه بجفائه وقسوته نحوهم، أصبحت سلمى شبحاً رقيقاً، تعيش في حجرة أقل ما فيها الفوضى والقذارة التي تعبر عن لامبالاتها وذهولها عن أي شيء بعد أن صدمت في جميع أحلامها وصار الناس بالنسبة إليها وحوشاً، كان صوتها يرتجف وهي تتكلم كأنما أصيبت بالبرد أو الحمى..

غريبة تلك الظروف المعقدة التي اشتبكت بها سلمى دون ذنب منها سوى أنها وجدت نفسها مطوقة بها، فبعد صدمتها بوفاة زوجها المبكرة وجدت نفسها مصدومة بأبيها الذي باعها إلى أبي محمد طمعاً بجاهه ونفوذه، تاركة ولدها الذي تلوح عليه معالم الإعاقة منذ طفولته ليتربى في كنف المطوع وزوجته، وصدم بها زوجها الثاني بعد أن وجدها مهزومة لدرجة فقدت معها كل إحساس كقطعة جلد لا يهمها ما تصير إليه، ثم ما لبث أبو محمد أن اكتشف أنها لم تعد قادرة على الإنجاب بعد مضي أكثر

من سنتين دون أن تحمل منه، ويبدو أنه أشفق عليها لحالتها المزرية فتركها تعيش لوحدها في الحجرة دون أن يضغط عليها بشيء، وأعجبه أن زوجته الأولى تعاملها بكل عطف دون أدنى بادرة لكراهية.

لم يكن يتوقع أبو حسين حقيقة أن يراها على هذه الحال، فحين فتحت له باب الحجرة كادت لا تعرفه، لماذا جاء إليها بعد كل هذه السنوات؟، هل جاء ليتفرج على مصيبتها؟، أخذت الحلوى منه وقد أخذتها الدهشة والاستغراب، كانت دائماً متحسبة حين تقف إلى جوار أبيها، فهي لا تعرف متى سينهال عليها ضرباً أو يصرخ عليها، لم تستطع بسمة أبي حسين المفتعلة في وجهها أن تجعلها مطمئنة إليه، مع ذلك أخذ أبو حسين يكلمها بود ظاهر لم تألفه من قبل من أجل أن تكون لطيفة مع زوجها وتتقرب إليه حتى يثق بها، إنه مريض ومديون، أقنعيه كي يرضى ببيعي واجهة بيته، وستكون ديوني التي عليه عربوناً من ثمنه، إنه سيبيع نصف بيته وأنا أولى من الجميع، كانت سلمى تأكل من الحلاوة دون أن تعير انتباهها لما يتكلم به أبوها، وانتبه بعد قليل إلى أنه يكلم الجدران، فانقلب إلى رجل غاضب ساخط أجفل سلمى وقطع سكينتها وأخذت ترجف خائفة مذعورة، لم ينس وهو يخرج من عندها أن يدعو عليها بالسمّ بعد أن ابتلعت الحلاوة، هذه المرة كان أبو حسين مصدوماً بابنته سلمى التي خيبت آماله تماماً، فرغم إحساس العطف الذي بدأ ينتابه تجاه أولاده في الفترة الأخيرة، الذي حركته مشاعر الندم العميق، إلا أنه لا يملك إلا أن يكون نفعياً، فذلك أمر محفور في طبعه لا يستطيع تغييره.

مسكينة سلمى، حالتها لله، لكن ما ذنبي..؟، كنت أحسب أنني عملت خيراً بتزويجها من أبي محمد بدل أن تبقى أرملة تعيش في بيت أخيها، صحيح أنه يكبرها بسنوات كثيرة، لكنه كان في عزه وجاهه وكثير من الناس يتشرفون بمصاهرته، ما أدراني أنه سينقلب حظه بين يوم وليلة ويصبح عالة عليّ أنا أيضاً؟، حظي المشؤوم جعلني أطمع فيه وفي وجاهته، من المؤكد أنه لولا ذلك لما تورطت بهذا الأمر.

كان أبو حسين يجد المبرر للموافقة، فولده صلاح هو رأس الحية بين أولاده، يظهر نفسه أنه طيب ومسكين بينما هو خبيث ويعمل بشكل سري، كنت قاسياً عليه، يتذكر أبو حسين، لكن ماذا يعني ذلك؟!، كل آبائنا كانوا قساة ولم نحقد عليهم، هل يتصور ذلك الخبل أنني سأطلب السماح منه؟، خاب ظنه!.

ليس لي بين أولادي غير محمد، هو الوحيد الذي يشبهني منهم، لذلك وفقه اللّه في عمله، متى يعود إلى الديرة؟، اشتقت إليه، سأجعله يسكن في بيتي حتى يرى صلاح بنفسه أنني أحب أولادي عندما يحبونني، لكن زوجتي سترفع صوتها عليّ أمامه، إنها لم تعد تخافني، تجرأت عليّ تلك الكلبة بعد كل الذي فعلته من أجلها، أنا أبو حسين تحتقرني امرأة في آخر عمري..؟ لا.. أعوذ باللّه، من قال إنني في آخر عمري؟، ما زلت شاباً، كل الناس تتحدث عن صحتي.. يسند رأسه إلى المخدّة وهو يشعر بخدر في جميع مفاصله، بينما امرأته جالسة غير بعيد عنه تتسلى بتمشيط شعرها غير عابئة به يتنهد بحسرة قبل أن يذهب في نومه.

• • •

صاحب الشأن

انتهت أعمال البناء في بيت حمد الجديد، أزال العمال بعد ذلك آثار البيت القديم المتبقية حول البناء الجديد، لم يبق شيء يذكر أحداً بذلك البيت الطيني القديم ذي الباب الخشبي العتيق المخلّع، حتى الأحجار القديمة لم تستخدم في البيت الجديد، فقد جلب العمال الأحجار البيضاء المنحوتة، وبدل الباب الخشبي العتيق الذي أصبح طعاماً للمواقد ركّب الباب المزخرف الخشبي الذي يرمز لعز صاحبه ورفعته.

غداً تقام الوليمة الموعودة في البيت الجديد، كل الناس تعلم أن حمد هو الوحيد الذي يملك في هذه الفترة أن يقدم الخراف المطبوخة و«العيش» لضيوفه، لذلك فدعوته لكثير من الناس ستكون مبهجة ومناسبة لتغيير طعم الفم الذي أجبر على الصوم عن الدسم، ستكون مناسبة كي يظهر حمد أمام الناس كأحد الوجهاء الكرماء الذين يشرعون أبواب بيوتهم للضيفان، لكن الحقيقة في مسألة الكرم هذه هي أن حمد كان يلبس هذا المظهر لأنه سبيل للوجاهة التي يطمح إليها، ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن حمد في طبعه ليس كريماً، بل على العكس، فقد عاش حياته مغامراً لا يعبأ بشيء، لكنه منذ بدأ بتحقيق ثروته نذرها لتكريس قوته التي يحلم بها ووجاهته بين الناس.

قد تكون تصرفات حمد مفاجئة أحياناً، لكنها مسبوقة بحسابات عميقة وبعيدة، ذلك هو شأن تلك الأمسية التي سبقت الوليمة حين اتخذ فيها قراراً حاسماً ومناسباً، لمعت فكرة ذلك القرار في رأسه بينما كان يجلس في الشرفة الصغيرة لوحده، متأملاً تلك السكة غير البعيدة في تلك الليلة الشتائية حين هاجمه الرجال بالعصي وضُرب ضرباً مبرحاً، تلك الليلة لم تنته آلامها بعد، فقد قهرته تماماً، ولا بد أن يشاركه في ذلك القهر كل من داسوه في تلك الليلة، ولكن أنّى له أن يعرفهم وهم ملثمون والعتمة تلفهم جميعاً، ألا يكفي أنه يعرف تماماً من كان يقف وراءهم رغم إنكاره ذلك؟، لماذا لا أدعوه غداً إلى وليمتي ليكون على رأسها؟!، ألن أسجل بتلك المفاجأة نصراً جديداً

يتحدث به الناس إلى ما شاء الله؟، سوف يقولون إن ابن أخيه خالداً تخلّى عن عمه، لكن حمد الذي يعاديه وقف إلى جانبه، وبعد ذلك ماذا يا حمد؟.

التمعت عينا حمد الشرستان، لن أترك الظروف تقهر أبا محمد، سأقف إلى جانبه من أجل أن أقهره أنا بنفسي!!، لكن كيف..؟! لم يستعجل حمد الجواب، كان عليه أن يبدأ بالخطوة الأولى.

في فجر اليوم التالي تعجب المطوع عندما رأى حمد ينتظره بعد صلاة الصبح قريباً من المسجد، أحس المطوع بفطرته أن هناك أمراً جاء بحمد إليه في مثل هذا الوقت، واستبق الكلام المطوع بأسلوبه الظريف:

- ها حمد، لا يكون هونت عن العزيمة؟!

- لا شدعوه يا عمي، الخرفان مذبوحة والجدور بيبرزونها وأنت أول المعازيم.

- الله يبارك فيك ويبجيك .

- الحقيقة أنا يايّك في موضوع مهم يا مطوع، وهقوتي[1] إنه يفرّحك.

- شنهو هالموضوع؟! بشر!!

- مثل ما يقولون يا عمي، من سعى للخير لاقاه، أبغيك تروح معاي بيت النوخذة بو محمد علشان نتصالح وأعزمه مع المعازيم.

- الله يبشرك بالخير يا حمد.

راح المطوع يهز رأسه إعجاباً ببادرة حمد:

- يا سلام، صج إنك ولد أصل ولا تنسى المعروف، وهاذي وأنا عمك ما يسويها إلا كل رجال كريم.

وبخبث يتصنع حمد التواضع، بينما راح المطوع يطري بادرته..

---

(١) وهقوتي: ظنّي.

- شقلت يا عمي؟

- على بركة الله يا ولدي.

لم يصدق أبو محمد وهو راقد في الفراش حين جاءت ابنته تبلغه أن المطوع ومعه حمد في المجلس، ساعدته ابنته على ارتداء ملابسه بعد أن أذهلته المفاجأة، وعندما دخل مستنداً إلى الجدار من باب المجلس نهض حمد مسابقاً المطوع ليمسكه من يده ويقبله على رأسه وأبو محمد لا يدري ما يفعل، بينما راح المطوع وقد هزه الموقف ينظر إلى أبي محمد بعينين محرورتين وباسمتين، لم يترك حمد الفرصة لأحد كي يبدأ بالكلام:

- أنا بيتك البيت يا بو محمد وأبغيك تسامحني وتقبل دعوتي لك على العزيمة اليوم في بيتي.

راح أبو محمد ينظر إلى حمد وإلى المطوع الذي يحثه على إجابة حمد، وبلا تردد عانق أبو محمد حمد بينما راح حمد يتصنع التأثر، ودعاهما أبو محمد للجلوس وهو يقول لهما بمرارة مكبوتة:

- ما عليه، سامحوني ما عندي قهوة ولا شاي نقدمها لكم.

- لا هنت يا عمي بو محمد، الشاي والقهوة واللي تبغيه تحت أمرك.

- كفو يا حمد.

يهز رأسه حمد متأسفاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، شكثر فرقت بينّا الأيام، حقك عليّ يا بو محمد.

ويتدخل المطوع:

- المهم الأيام اليايّة، ولّا اللي فات ما ينحسب.

يلتفت أبو مجمد لحمد قائلاً:

- ييتك هذي للبيت ما أنساها لك يا حمد، وعزيمتك مقبولة، لكن أنت تشوف حالتي شلون!!.

يلمس حمد بسرعة سرّ هذه الكلمات المتدللة من أبي محمد فيجيبه بنخوة مفتعلة:

- العزيمة ما تكمل بليّاك يا بو محمد، وأنا مستعد أشيلك على ظهري جدام كل الناس.

يبتسم أبو محمد بارتياح كأنما اطمأن في داخله إلى حمد:

- تسلم يا حمد، خلاص الله يعينّي على هالمسافة.

لم يترك حمد الموقف يهرب منه قبل أن يطرح مفاجأته الأخرى:

- الحقيقة يا بو محمد اسمح لي الحين أتكلم بصراحة..

- خير يا حمد، شعندك؟

- أنا ما يهون علي أجوفك في ضيقة واخليك إذا كنت أقدر.

وقبل أن يقاطعه أبو محمد محتجاً:

- اسمع كلامي للآخر يا بو محمد وعقب قول اللي تبغيه، الحقيقة أنا عارف أحوالك والديون اللي عليك، واللي أبغيه إنك تسمح لي أسددها عنك، وهالشكل تصير مديون لي أنا بدل ما تكون مديون حق تجار السوق.

- ومتى تبغيني أسددهم لك يا حمد.

- وقت ما تقدر.

كان المطوع عاجزاً عن الكلام، فأخذ يربت بكفه على كتف حمد وهو يبتسم له ويهزه.

لم يستطع أبو محمد أن يسأل نفسه عما وراء هذا الأمر كله، فقد جاءه كمنقذ في وقت يحتاج فيه الغريق فعلاً إلى القشة التي تنجيه، ومدّ أبو محمد يده مرة ثانية إلى حمد الذي أخذها بقوة ضاحكاً، وضحك الجميع بعد أن بدا لهم وكأن غيوم الماضي قد انجلت إلى الأبد.

انتشر الخبر في الديرة بعد ما رأوا أبا محمد يتصدر الوليمة التي أقامها حمد، كان أكثر المدعوين حرجاً في هذا الأمر هو خالد الذي فوجئ بحضور عمه للوليمة وإكرام حمد المبالغ له، وأحسّ تماماً من خلال المديح الناس لبادرة حمد أن ذلك يعني لوماً ضمنياً له، بل تقريعاً، لأنه كان الأولى بأن يبادر بمثل هذه البادرة، لم يستطع أن يرفع رأسه باتجاه عمه الذي كان يملأ الانشراح وجهه، بل بقي مطرقاً، ولم يصدق متى يبدأ الآخرون بالانسحاب ليكون أول المنسحبين، نسي في غمرة ذلك ما استفزه حين رأى عمه خميساً يذهب ويجيء بالطعام فرحاً مبتهجاً بسذاجته، بينما راح الآخرون يتبادلون الضحكات والتعليقات عليه دون أن يعبأ بشيء من ذلك، معتقداً أنه مدعوّ مع القوم للوليمة، بينما هو مجرد خادم، لم يلحظ أن خالداً يتجافاه في الجلسة، بل راح يحشر نفسه معه كلما سنحت له الفرصة، ناسياً ما تعبت من أجله فاطمة زوجته لإفهامه أن يبتعد عن خالد أمام الناس وأن لا يكون مهزأة للآخرين.

وكأن عينيّ عمه اللتين راحتا تعاتبانه بعمق بينما هو يحاول التهرب منهما خلال الجلسة، كأن عينيه كانتا تذكرانه بذلك الموقف الذي واجه فيه خالد عمه دون رحمة بكبريائه من أجل نورة بنت خميس، كانت عينا عمه تعاتبانه بقوة أيضاً وتقولان له إنه كان الأولى من حمد بهذا الموقف.

اختلطت على خالد المسائل في رأسه ولم يصل إلى البيت إلا ورأسه يكاد ينفجر من الصداع، ربطت له أمه عصابة لتشد رأسه حتى يخفّ الألم، وراحت الأم تتساءل وقد أقلقها هذا الألم المفاجئ، في الصباح كان عادياً مبتهجاً، فمن أين جاءه هذا «العوار» الآن..؟، أما خالد فكان كل ما يهمه هو أن يذهب في نوم عميق ينسيه آلامه،

وفعلاً ما إن جلست أمه إلى جانبه تلمس رأسه براحة كفها الدافئة حتى راح في إغفاءة أبعدت عنه كل تلك الهموم الثقيلة التي أوجعت رأسه.

في المساء جلس خالد على المصطبة التي تواجه البحر وراح ينظر بعينين حزينتين إلى أمواجه المضطربة وزبده الذي يرغي ولا يلبث أن ينطفىء على الرمل، لم يكترث كثيراً لكأس الشاي الذي جلبته له نورة، لم يكترث حتى لمجيئها، لم ينتبه إلى نظرة عينها الحائرة في لامبالاته بها، لماذا تغير خالد هكذا فجأة صوبي؟!، هذا ما كان يشغل بال نورة، بل ما يثير مخاوفها!!.

حظي متعثر، آه يا القهر، هكذا كان يردد خالد بينه وبين نفسه، يا للمفارقة!، الناس تحسده على مهنته التي تعلمها في الشركة وحفظت له عيشة لائقة في فترة يسود فيها الجوع بين الناس، لكنه كان يرمي إلى قضية أبعد من مسألة الجوع والشبع، مصالحة حمد لعمه حين دعاه ليشهر هذا الموقف، فعلاً كنت أولى من جميع الناس بهذه القضية، لكن ماذا ينفع الآن هذا الكلام، ماذا يعني أن ترضى عني أمي ويسخط عليّ جميع الناس؟! إنها تعلم أنني لا أستطيع مواجهتها في شيء لا ترغب فيه!!، لولا أنها كانت ترغب بزواجي من نورة لما استطعت أن أقدم عليه، نورة ليس لها ذنب، وأنا أحبها وأحب أمها أيضاً، لكنّ أباها خميساً هو المشكلة، كيف أتفاهم مع رجل لا يعي شيئاً..؟ المصيبة أنه يغضب من نفسه كثيراً إذا أحس أن أحداً يتطاول عليه بنصيحة!!، إنني لا أحتمل مشهده بين الناس لحظة واحدة، صرت أرى عيونهم تنظر إلي بإشفاق حين ترى خميساً بجانبي!!، ربما كان عمي على حق يوم جاءني ليعترض على زواجي من نورة، ربما كان يتطلع إلى هذه القضية التي غابت عن ذهني ويشفق علي منها وعلى العائلة، بينما كنت أتطلع أنا إلى جمال نورة الذي سحرني وإلى رضى أمي!، كان عليّ أن أكون أكثر تعقلاً وروية في هذا الأمر!! لكن ما الفائدة الآن من هذا الكلام..؟ فات ما فات ولم يعد يجدي الندم!!.

من المؤكد أن حمد لم يفعل ذلك لعيون عمي، أنا أعرفه قبل كل الناس، إنه يحقد

عليه، وحتى لو أقسم على القرآن أمامي فلن أصدقه، لا بد أن هناك ما يخفيه حمد في ضميره الغامض، لكن ماذا يهم الآن لو صدقت حمد أو لم أصدقه، لقد كسب رضى الناس ومديحهم، حتى لو تكلمت فلن يصدقني أحد، كان الواجب أن أفعل ما فعله ثم بعد ذلك فلأتكلم وأقول ما أشاء، أحسّ باقتراب أمه التي نبهته إلى أنه لم يشرب الشاي وهي تنظر إليه بعينين ملؤهما التساؤل، جلست إلى جانبه:

- خالد، شلونك يمه الحين؟!

- أشوى من أول.

- الحمد لله.

هذا ما كان يهمها بالدرجة الأولى، أن لا يصيبه المرض، أن لا تراه متألماً.. وكأنما أراد استفزازها يلتفت إليها:

- يمه، دريتي ان حمد كان عازم عمي بو محمد في بيته اليوم؟!

- اي دريت يمك.

- تصدقين يمه إني حاس بالخجل جدام الناس، كان الواجب..

لكن أمه تنظر إليه بغضب وتقطع عليه كلامه كأنما تستخف به:

- أي واجب؟، تحمّل تقول ان الواجب هو انك تصالح عمك قبل لا يصالحه حمد لأنك أولى به، كل وله اسباب، مهب قاصر غير تتهمني إني أنا اللي منعتك من هالواجب..

يحاول تهدئتها:

- لا يمه، أنا...

- جوف عاد، أنا امّية مرة قايلة لك لا تييب طاري عمك جدامي ولا طاري البحر.

ينظر إليها وهو يعلم أن لا شيء يدعوها للهدوء غير أن يعدها باستسلام ويقول ممتثلاً:

- إن شاء الله يمه، بس لا تزعلين، كل شيّ يهون إلا زعلج.

ينهض خالد متعذراً بالتعب لأنه سيصحو باكراً من أجل الذهاب للشركة، والحقيقة أنه كان منكسراً تماماً، شيء ما يتحطم في داخل أعماقه، شيء ينهار عليه من كيانه دون أن يستطيع دفعه بعيداً، عندما دخل حجرته وجد نورة قد سبقته إلى النوم، لم يكترث لذلك، بل اندسّ في فراشه وشبك يديه تحت رأسه وبقي محدقاً في السقف لفترة طويلة ثم ما لبثت أن تراخت أجفانه. في اليوم التالي فوجئ تماماً عندما وصل إلى الشركة بأنها قررت إيقاف عملها بسبب الحرب وسيعطى ما بقي له من أموال مع شهادة التقدير ويحتفظ بحق الأفضلية عندما تعود لممارسة أعمالها من جديد، وبقدر ما كان منزعجاً لذلك كانت فرحة أمه حين عاد وأخبرها بأنه سيبقى إلى جانبهم ليل نهار بعد اليوم، لم يكن ينقصه المال ولا المؤونة، لكنه كان قد تعود الانتظام في العمل في مهنته التي يمارسها بحب، والآن ما الذي سيعمله بعد اليوم؟، هناك بعض المحركات دخلت البلد لكنها قليلة جداً ولا تيسر له مصدر دخل حتى يفتتح لأجلها محلاً، لم يكن أمامه إلا أن يستمع لنصيحة أمه بأن يعمل في التجارة، وعندما قال لها إن التجارة فيها سفر أجابته على الفور إنها تريد له التجارة التي لا يحتاج فيها إلى السفر.. «غامرتُ مرة بأن سمحت لك بالسفر وقضيت ما قضيت في غيابك ولن أغامر مرة أخرى ما دمت حية»، وحتى لا تتعقد المسألة قال لها إنه يريد أن يرتاح أياماً من التفكير بأي عمل لأنه متعب بما فيه الكفاية، لكن الأم لم يهدأ بالها إلا بعد أن طلبت منه وعداً ألا يفكر بعمل فيه سفر، وأجابها إلى ذلك كمن يتخلص من الموقف:

- خلاص يمه على أمرج، ما فيه سفر!!.

توقفت الشركة عن العمل بسبب الحرب وصرفت عمالها القلائل وانطفأ ذلك البصيص من النور الذي كان يتخلل العتمة، أصاب اليأس جميع الناس، حتى أخبار الحرب والعالم كانت تصل إلى البلاد بعد ثلاثة أشهر وربما سنة من وقوعها من خلال بعض الصحف العربية القليلة التي تصل إلى البلاد عن طريق المسافرين، لكن الذي أدهش الجميع في الديرة هو الراديو الذي حصل عليه حمد، فكان ينقل الأخبار من هنا وهناك ويقدم الأغاني، كان الراديو كبير الحجم مثل الصندوق وله بطارية كبيرة وراءه معلقة به، قبل ذلك جلب حمد البشتختة[١] التي توضع عليها الاسطوانات وتدار باليد، كان حمد يحاذر من تشغيلها في حضور المطوع لأنه سيغضب من ذلك غضباً شديداً، وليس من المبالغة القول إن مجلس حمد أصبح منتدى لوجوه الديرة، كان أبو محمد النوخذة يداوم على الحضور إلى المجلس بعد أن تحسنت صحته نسبياً وخفت عنه الآلام التي كانت تحرق مفاصله حين توسط له حمد عند دكتور الشركة الذي نفعه كثيراً بالحبوب والمراهم، ورغم أن أبا حسين قد تضايق كثيراً لأن أبا محمد قبِل أن يعالجه طبيب غيره، إلا أنه رضخ أخيراً معللاً لنفسه: إذا كان هؤلاء الحمر قد اخترعوا الراديو والسيارة والطيارة فهل يصعب عليهم مرض أبي محمد..؟، ربما كان عندهم دواء ينفعني أنا أيضاً..!.

صار من الملاحظ انقطاع خالد عن الذهاب إلى بيت حمد حتى لا يلتقي عمه هناك، هذا عدا عن الحساسية التي أثارها خميس بينهما، ورغم أن حمد قد أحس بذلك لكنه بقي مترفعاً عن مكاشفة خالد بالأمر، أما خالد فهو بطبعه انطوائي، لذلك لم يؤثر فيه ابتعاده عن مجلس القوم، فالناس تعرف عنه أنه لا يحب التدخل في مشاكل الآخرين، حتى إن بعضهم أخطأ في وصمه بالتعالي والغرور، وفي نظر الناس هو لا يشبه أباه، أين أبو خالد رحمه الله الذي كانت تربطه الصلات العميقة بكل الناس في ديرته من ولده الذي لا يكاد يعرفه أحد..؟!.

---

(١) البشتختة: جهاز قديم لسماع الاسطوانات.

المفاجأة

لم يكن أبو حسين من رواد مجلس حمد، لأنه كان يشعر بنفور حمد وكراهيته له رغم محاولات أبي حسين المتكررة للتودد له التي زادته تعالياً، لا أحد يدري ما السر في تقريب حمد لعتيق أخي زوجة أبي حسين وتشغيله في سفينته، فقد طرده أبو حسين من بيته أكثر من مرة لاتهامه بسرقة أمواله، لكنه كان يرجعه بتأثير أخته.

كان عتيق صغيراً نسبياً عندما احتضنه أبو حسين وصار يرعاه بمزاجه المتقلب، فيوم يكون راضياً عن أخته فهو مدلل لديه، أما حين يسخط عليها فهو قاسٍ ولا يمت له بصلة، كل ذلك دعا عتيقاً مع الأيام إلى أن لا يهاب سطوة أبي حسين مثلما كان في البداية، لكن الذي حدث منذ أيام هو المفاجأة بحق وحقيقة، فبينما كان عتيق يأكل من الطعام الذي وضعته له أخته دخل أبو حسين، فأخذ على خاطره أن تضع زوجته الطعام لأحد قبله، كان الواجب أن ينتظر أخوها ليتغدى مع راعي البيت كما هي العادة، من راعي البيت: أنا أم هو..؟ لم تكترث زوجته، فهي تعلم أنه سيجعجع بالكلمات ثم يسكت، لكن هذه المرة وقف عتيق متحدياً أبا حسين ومهدداً إياه أن لا يسب أخته قدامه مرة أخرى، ولم يستطع أبو حسين أن يحتمل أكثر من ذلك حين رأى عتيقاً وللمرة الأولى يضع إصبعه بتحذير على فمه ويقول له «شب»، فرفع أبو حسين يده ليضربه، لكنه أحسّ بصفعتين قويتين على وجهه من عتيق أوقعه بهما أرضاً ومشى عنه إلى خارج البيت.

دارت الدنيا بأبي حسين، حاول أن يتكلم لكنه عجز عن نطق الأحرف، ولأول مرة يمسك غترته التي وقعت على الأرض ويغطي وجهه بها ويأخذ في نحيب حار، بينما راحت زوجته ترفع أطباق الطعام عن الأرض كأنها لم تشاهد ما حدث.

لم يدر أحد بما حدث لأبي حسين، لأنه أطبق فمه تماماً، فما الذي سيقوله للناس، وكيف سيقول ذلك لهم..؟!، رأى من الأفضل له أن يبلع الموقف ويختنق به وأن

لا يظهره للآخرين، ما أصعب نظرة الشفقة التي سيصطدم بها في وجوه الناس.

بخبث حاول عتيق بتحريض من أخته أن يعتذر لأبي حسين بعد أيام قليلة عما بدر منه، لكن أبا حسين أشاح عنه بوجهه دون أن يرد عليه بكلمة واحدة، لم يهتم عتيق، بل انصرف إلى أخته، بينما أبو حسين ذهب إلى حجرته المستقلة التي بظهر الدكان، ولخشيته زوجته وعدم ثقته بها لم يعد يذوق منها طعاماً أو شراباً ، لأنه كان يشعر أنها لن تتورع عن إيذائه بأي طريقة، بدأ يعد لنفسه طعامه وشرابه دون أن تهتم بالأمر، صار كلامه أقرب للهمس، بات يقطع أغلب الوقت في دكانه المقفر من البضائع، الذي لم يستقبل زبوناً منذ أشهر، أو يرافق خالداً في المشي على سيف البحر بعد صلاة العصر، تغيرت طبيعته تماماً وانقلب إلى رجل مهموم كامد الوجه دائماً دون أن ينطق بحرف عن سبب ذلك.

في صباح يوم استيقظ أبو حسين من نومه ولديه إحساس بالعطش ويشعر بدوار في رأسه، فأخذ الماء ليشرب لكنه شعر أن الماء يسقط من جانب فمه بغزارة دون أن يبلع منه إلا قليلاً، فتحسس بكفه وجهه وقد أخذه الرعب، نهض من فوره ليرى وجهه في المرآة، وسرعان ما اكتشف الحقيقة المرة، لقد أصيب بنوع من أنواع الفالج، فجلس متهالكاً وهو يسند فكه المرتخي بيده، لم يسعفه صوته للصراخ ونداء زوجته، فأخذ غترته وربط بها رأسه وشد فكه إلى الأعلى، لكن شيئاً لم يتغير في شكل وجهه، فقد ظل معوجاً، زاد الألم في رأسه الذي كان يحسه منذ الصباح، فأسند رأسه إلى الحائط وهو ينفخ زفيره كأنما يشخر، وظل على تلك الحال إلى أن دخلت عليه زوجته الحجرة لتفاجأ به وتصرخ على أخيها عتيق الذي جاء وحمله معها إلى فراشه، كان أبو حسين يشير إليهم خلال ذلك بأنه يريد المطوع، فذهب عتيق ليخبر المطوع بحال أبي حسين، فأسرع إليه بعد أن أوصى حفيده محمداً ألا يغادر البيت لعل جدته المريضة أم جاسم تحتاج شيئاً.

في حجرة أبي حسين ضرب المطوع كفاً بكف أسفاً وهو يراه على هذه الحال،

فأشار إليه أبو حسين أنه يريد الكلام..

- قول يا بو حسين، شلي تبغيه مني وأنا حاضر.

وبلغة مكسرة كأنما تتشبث الكلمات بالحلق قبل أن تخرج من الفم:

- يا مطوع أبغي عيالي.!

عند ذاك تخرج زوجته من الحجرة، فيلتفت وراءها أبو حسين وبصعوبة يحاول الكلام لكنه يعجز..

- زين ما عليك يا بو حسين، خلك صبور وأنا خوك، الحين بابيب لك صلاح.

ويشير أبو حسين بحزن إلى بعيد يفهم منه المطوع أنه يريد ابنه محمداً..

- إن شاء الله في أقرب فرصة نطرش خبر حق ولدك محمد، شتبغي بعد..؟

يمسك أبو حسين بيده طرف ذقن المطوع تحبباً وهو يكاد يبكي..

- ولا يهمك يا بو حسين، أزمة وتعدّي بعون الله، الحين باروح وبارجع لك بالعجل ويا ولدك صلاح.

ويخرج المطوع مسرعاً لطلب صلاح، بينما تدخل على أبي حسين زوجته:

- ها شلي ناوي..؟ عبالك عيالك ينفعونك؟

تحاشى أبو حسين النظر إليها وأشار بيده فقط لكي تخرج من عنده..

- زين على هواك يا بو حسين.

تخرج الزوجة حانقة، ولا تمضي لحظات حتى يصل صلاح ومعه المطوع، ويبكي صلاح لدى رؤيته والده بتلك الحال، انهار ذلك الرجل القاسي وأصبح عاجزاً مستضعفاً، لم يدرِ صلاح كيف انطلق لسانه المنفعل أمام والده الذي لم يحاول للمرة الأولى أن يقاطعه معنفاً كعادته، قال كلاماً كثيراً وهو يحاول أن يعبر لأبيه عن حبه

وولائه لعله يقتنع أخيراً بذلك ويرضى عنه، وللمرة الأولى يأخذ أبو حسين رأس ولده ويقبله وهو يبكي متأثراً، بينما أدار المطوع رأسه لجهة أخرى تأثراً بالموقف، وأشار أبو حسين لولده من أجل أن يبعث وراء أخيه محمد ليراه..

- خلاص يبا ولا يهمك، أنا باروح له باكر الصبح، بس أبغيك تسمح لي قبل كل شيّ انقلك بيتي علشان أسافر وأنا مطمّن.

تدخل الزوجة في هذه الأثناء صارخة بصوتها الحاد في وجه صلاح دون أن ترعى لأحد كرامة:

- ويش علشانه تبغي تطمّن يا صلاح؟، خايف على أبوك مني أنا اللي باريته يوم انكم قاطعينه؟!

وقبل أن يستدير لها صلاح الذي انفجر من الغيظ يشير إليه والده أن لا يجيبها بشيء، ويلتفت أبو حسين للمطوع منبهاً بينما يشير بيده نحو امرأته:

- طالق.. طالق.. طالق..

خرجت من فمه بصعوبة، حاول المطوع أن يسكتها بعد أن وصل أخوها عتيق الذي وقف إلى جانبها..

- أبغي حقوقي كلها.

راح المطوع يحاول تهدئتهم وطلب من عتيق أن يأخذ أخته خارجاً، بينما ذهب صلاح ليجلب عربة لينقل بها أباه إلى بيته.

كان يوماً ثقيلاً على الجميع، وأخيراً ارتاح أبو حسين على فراش نظيف في بيت ولده صلاح وقد جلس أمامه حفيده سالم الصغير لينادي أمه في حال طلب جده أبو حسين أمراً ما، وبمعونة خميس استطاع صلاح أن ينقل أغراض أبيه بالعربة إلى بيته، بينما كانت زوجة أبيه تصرخ وراءه وتقول إن البيت من حقها ولن تخرج منه إلا

ميتة!!.

كانت رعاية صلاح لوالده مبالغاً بها، لعله كان يريد أن يثبت لأبيه شيئاً لم يكن متيقناً منه فيما مضى، ولأول مرة رغم آلام رأسه وارتعاده من فكرة النهاية، قضى أبو حسين ليلة تختلف كثيراً في مغزاها عن سابقاتها، كان الواجب أن تكون مبكرة بكثير عن موعدها الذي جاء متأخراً، لكنه ما زال يحمل المعنى نفسه.

مضت أيام ووصل محمد إلى الديرة بعد سنين من الغياب بعد أن أخبره صلاح بما جرى لأبيه، وكم كان اللقاء مؤثراً حين لم يعرفه أبوه في البداية، تعانقا وراح الأب يبكي على صدر ولده محمد ويشكو له ما قاساه، وللمرة الأولى يعترف أمامه بأن عتيقاً تطاول عليه وضربه، فأثر ذلك كثيراً في نفس صلاح، ودون أن يشعر أحد أثر فيه كثيراً أن لا يخصه أبوه بهذا الخبر، لكنه تغافل عن كل ذلك، فليس هناك مجال للعتب، وصمم على الانتقام من عتيق بحماس يبرد عادة بعد يومين، فهذه عادة صلاح، مندفع في البداية ويتمهل الطريق فيما بعد.

راح أبو حسين يتملى ولده محمداً بعينين لا تشبعان، كان يلبس ثياباً أنيقة مع حذاء لامع ويضع خواتم ذهبية في أصابعه وله شارب رقيق وعينان لا تبتسمان، كان من النوع الذي تعلم كيف يختار كلماته مهذبة غاية التهذيب، ورغم أنه تأثر بحكاية أبيه، إلا أنه ليس من النوع الحماسي والمنفعل، ربما يسكت في البداية عن الإساءة، لكنه ضمناً لا ينساها أبداً.

لعل أطيب ما سمعه أبو حسين في ذلك اليوم هو عزم ولده محمد على العودة نهائياً مع عائلته إلى الديرة، بالتأكيد سيبني بيتاً جديداً ويفتتح محلاً للصياغة في السوق بعد أن أصبح أستاذاً في المهنة، كان أبو حسين متلهفاً لمعرفة الموعد، فأخبره محمد بأنه لن يطول أكثر من شهر حتى يستطيع تصفية أموره.

راقت شخصية محمد لحمد كثيراً، ولم يتأخر حمد عن الواجب، فدعاه إلى غداء

في بيته مع وجوه الديرة، وبالغ في إكرامه والاحتفاء به، وقد ارتاح محمد لشخصية حمد، وبسرعة وجدا بينهما خيطاً مشتركاً هو المستقبل، فقد كان محمد متفائلاً بالمستقبل بعد أن سمع في البحرين أن الحرب اقتربت من نهايتها لأن جيوش الألمان تندحر في الجبهات.

على العكس من حمد كان خالد، فلم تعجبه شخصية محمد كثيراً، لأنه وجده متصنعاً مبالغاً في أناقته وليس من ذلك النوع الذي تنطلق معه بعفوية وبلا تكلف، كان من النوع الذي يرسم نفسه كأنما يقلد شخصية أخرى بدقة، لا يترك السبحة المذهبة من يده، ويتكلف كثيراً قبل الإجابة عن أي سؤال، مما يوحي لسامعه بأنه يتقن موضوعه تماماً، في ظاهره أخلاقي من الدرجة الأولى من خلال تأكيده الدائم على واجبات الرجل نحو بيته وأهله وذمه لأولئك الناس الذين يشوهون صورة المجتمع بحياتهم الخليعة المتهتكة، يسبق الآخرين إلى موعد الصلاة ويتصدر الصفوف، لكنه في باطنه يعتقد أنه يجوز له أن يفعل كل شيء في الستر، فهو يشرب الخمر ويحب الطرب وليالي الأنس.

بعد عشرة أيام قضاها محمد في الديرة رجع إلى البحرين مع أخيه صلاح لتحميل أغراضه وحوائجه بعد أن استأجر محلاً في السوق وقرر النزول في بيت أخيه الذي يتسع لهم جميعاً، كان حمد قد أوصى محمداً بشكل خاص ليجلب له بعض صناديق الشاي التي تنقصه، لم يكن هناك من يشك في مركب صلاح، وقد لفت صناديق الشاي بالبطانيات وحملت مع الأغراض إلى المركب، كل ذلك وصلاح يتظاهر أنه لا يدري بالأمر، إذن أخي محمد لا يثق بي أيضاً ويتفاوض مع حمد بعيداً عني، هل هذا معقول ..؟! لو كشفت الصناديق سيخرب بيتي، لأنني المسؤول عن ذلك علمت أم لم أعلم!!.

حين عاتب صلاح أخاه لم يعطِ الأمر أي أهمية، واعتذر له بطريقة لا تخلو من الافتعال، وجرى الأمر دون أي مشاكل، لكن صلاحاً لم يبرأ صدره أبداً بعد ذلك

الموقف، هل وصل بحمد الأمر إلى أن يستعلي علي أيضاً؟! إذن ماذا يعني أن يخفي عني ما اتفق عليه مع محمد!!، تلك المسألة أثارت حزناً عميقاً لدى صلاح، ذلك الإنسان الطيب الذي يندفع بحماس تجاه الآخرين، لكنه يكتشف أنه مهجور في النهاية.

عاد محمد إلى الديرة في الوقت الذي وصلت فيه أخبار نهاية الحرب، فرأى الناس عودته بشارة وفألاً طيباً للديرة، كيف لا وقد ارتبطت سنوات الحرب هذه في أذهان الناس بالجوع والبطالة والأمراض، وكأنهم لبساطتهم يعتقدون أن كل ذلك سينتهي مع إعلان نهاية الحرب، فلم يضعوا في حسبانهم أن الآثار التي تنتج عن الحرب قد لا تقل أضرارها عن الحرب ذاتها!!.

سعد حمد كثيراً بوصول صناديق الشاي إليه سالمة، وكعادته أرسل بعضاً منها كهدايا للمطوع وأبي محمد، وباع أربعة صناديق بأسعار مضاعفة، وخبأ لديه صندوقاً في بيته للمؤونة الخاصة، حسب حساب محمد بالأرباح، لكنه عندما ذهب لزيارة المطوع ليقدم له الشاي الذي يرغب به لم يخرج من عنده ببياض وجهه، بل تعكر تماماً عندما أخذ المطوع يعاتبه بأنه سمع أنه يتعامل بالربا مستغلاً حاجة الناس إلى فلوسه، لم يقصر المطوع في التنديد بهذا الأسلوب الحرام، بينما كان حمد يحاول التنصل من المسألة دون فائدة، كانت هناك أدلة بين يدي المطوع لم يستطع حمد دفعها أو إنكارها، لكن حمد تمسك بأن الناس تحسده على فلوسه، لذلك تكيل له التهم كلما حقق صفقة رابحة، ومع ذلك لاين المطوع حتى يخرج سالماً بجلده.

لا بد أن خالداً كان وراء هذه المسألة، فقد عاتبني مرة في ذلك، لكنني لم أتوقع أن يحملها إلى المطوع، يهز رأسه أسفاً وهو يتذكر تلك السنوات التي جمعتهما معاً في الشركة، لقد تغير خالد كثيراً وأصبح لا يطاق، لكنني لن أنساها له.

كل ذلك لم يشغل بال حمد كثيراً، فهناك أمر يملأ عليه كل مساحات تفكيره هذه الأيام، ترى ما الذي سيكون عليه موقف أبي محمد عندما يفاتحه بهذا الأمر؟!، من

كان يتصور أن حمد سيتقدم لخطبة ابنة النوخذة أبي محمد؟!..

لكن لماذا ابنة أبي محمد بالذات؟!، فكر حمد كثيراً قبل أن يقدم على هذه الخطوة!!، حسب الأمور من جهة النفوذ والوجاهة التي يطمح إليها، لذلك فإن الزواج بابنة أحد الوجهاء هي وجاهة بحد ذاتها!.

ارتبك أبو محمد للوهلة الأولى عندما فاتحه حمد بالموضوع، وفكّر بينه وبين نفسه.. لو لم يقف إلى جانبي لكنت الآن أستجدي الناس!، لقد طوقني بمعروفه عندما تخلى عني ابن أخي، كيف لي أن أرفضه وهو الآن من هو جاهاً وثروة!!؟، ويأتيه صوت حمد منبهاً:

- ها شقلت يا بو محمد؟!

ويبتسم له أبو محمد برضى وهو يقول:

- هذي الساعة المباركة يا حمد.

أبو محمد ينطقها بنفسه، من كان يتصور ذلك؟!، هذه المرة لم يغامر حمد ولم يراهن على حظه، هذه المرة تختلف تماماً لأنه سعى إلى ذلك بنفسه وبقوة تجعله يثق بكل النتائج المترتبة على سياسته الذكية.

لا يهمني إن كانت حصة جميلة أو قبيحة، سمعت أنها متوسطة الجمال وعاقلة، الذي يهمني حقيقة هي أنها ابنة أبي محمد، سأبعدها عنه، لن أجعلها تشعر أبداً بكراهيتي لأبيها أبداً، حققت أكبر نجاح في حياتي وعلي أن أحافظ عليه بكل حرصي وقوتي.

في تلك الليلة دعا الناس وراحت رائحة الشواء اللذيذ تلف مع النسائم بيوت الديرة المجاورة، وعندما غادر المطوع مجلس حمد بعد العشاء جُلبت البشتختة والاسطوانات الجديدة للمطرب محمد بن فارس وضاحي بن وليد وراحوا يشنفون الأسماع ويرددون منسجمين مع توشيحات الأصوات الجميلة.

لم يكن خالد مرتاحاً لأن حمد سيتزوج من ابنة عمه حصة، لم يكن مرتاحاً أبداً في داخله، كأنما أحس فجأة ما معنى أن تكون فلانة من الناس ابنة عمه، ما معنى أن يتزوجها رجل لا يرضى عن وسطه ومستواه الاجتماعي رغم الصداقة التي تجمعهما؟، ربما لأنه كان مقتنعاً بأن حمد لا يقدم على أية خطوة دون أن يحسب منفعته في ذلك من غير أن يضع في حسابه منفعة الآخرين.

لكن خالداً لم يجرؤ على البوح بمشاعره لأحد، فأمه ستهاجمه فوراً لأنه يهتم ببيت عمه أكثر من اللازم، أما نورة زوجته فستحسب أنه كان يفكر بابنة عمه لنفسه، ومن المؤكد أنه لن يجرؤ على مصارحة عمه أبداً.

فعلاً حمد ذكي، كان يكره عمي أكثر منا جميعاً، ومع ذلك عرف كيف يتقرب إليه ويعمل على إزالة الحواجز بينهما، والأدهى من ذلك أن يجعل عمي سعيداً وهو يزوجه ابنته، أمر الناس غريب، كيف يصدقون أن حمد صاحب معروف وفضل بينما هو يتعامل بالربا سراً، لقد وظف حمد من يقوم بالدعاية له ونشر أخبار فضله وأريحيته بين الناس، الناس تحب منفعتها بطبعها، هذا ما كان يدور في رأس خالد، ويتعمق أكثر فأكثر كلما لاحظ أن الناس تتقرب إلى أمثال حمد لأنه ينفعها حتى ولو كان عن طريق الربا والوسائل غير المشروعة، بينما يشعر خالد حقيقة أن الناس لا تهتم به أكثر من واجب السلام، وربما كان هذا السلام راجعاً إلى ذكريات الناس عن أبيه وعمه وأهله عامة وليس إليه هو، ورغم أنه اكتسب مهنة جديدة إلا أن هذه المهنة ليس لها علاقة بحياتهم اليومية، فالناس الذين يمتلكون ماكينات تحتاج إلى مهنته معدودون على الأصابع، ورغم أنه يعيش في بحبوحة من المال إلا أن هذه البحبوحة التي تكفيه وتكفي أهله لا تذهب إلى الناس بحال من الأحوال، فما الذي يهم الناس من فلوسه إذا كانت لا تتعامل معهم؟.

قطعت عليه نورة حبل تفكيره:

- خالد، شتحب أسوي لك غدا باكر؟

كان ذلك أكثر ما يزعج خالداً رغم أنها أرادت بذلك إرضاءه وتدليله..

- نورة، أنا قايل لج امية مرة إني ما أحب أفكر في الغدا غير في وقته، فاهمه؟.

إنه يريدها أن تبقى صامتة إلى جواره، وذلك ما كانت تحاول بكل جهدها أن تغيره، لا بد أن هناك شيئاً يرضيه لا تعرفه ولا يبوح لها به، ربما لأنه يدرك أنها لن تفهمه تماماً، كيف تستطيع أن تبقى حجراً صامتاً إلى جواره؟!، إن هذا ليس في طبيعتها أصلاً!، تقترب منه قليلاً:

- خالد أمي زعلانة عليك وايد لأنها ما تشوفك!.

- شلون أشوفها وهي قاعدة كل يوم عند أم جاسم؟

- شفيها لو مريت عليها هناك؟، حتى أم جاسم شرهانة عليك.

- شخبارها الحين؟!

- حالتها ما هيب لي هناك، أمس كانت تزوع دم المسكينة.

- أوه؟! دم..؟! يارها الله.

- إذا تشوفها الحين ما تعرفها، المسكينة صارت جلد وعظم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أم جاسم حسبة أمي ولزوم نزورها.

سنذهب غداً لزيارة أم جاسم، هكذا قرر خالد، وسرعان ما انضمت إليهما أم خالد، ليسكت ما يعتلج في صدره من هموم، كان خالد يعرف أن أمه لا تذهب إلى النوم قبل أن تطمئن عليه، وفي كثير من المرات عندما كانت مريضة لا تقدر على الحراك من فراشها يضطر خالد للذهاب إليها حتى لا يضطرها إلى النهوض من فراشها والمجيء إليه، ورغم أن خالداً ينفر بطبعه ويتحرج من هذه العلاقة الحميمة، إلا أنه كان يجد نفسه دائماً منغمساً فيها دون إرادة منه، وفي الوقت نفسه لم تكن الأم لتسأل

أو تنشغل ولو قليلاً بأخت خالد الصغيرة التي أصبحت الآن صبية، فقد اعتادت أخته منذ صغرها أن تكفي البيت همها، وذلك بانطوائها وحبها للعزلة، لكن الأم في هذه الفترة كان عليها أن تضعها في حسابها، لقد تقدم لخطبتها أحد أبناء الأسر المعروفة الذي جاءت أمه منذ يومين لتكلم أم خالد وتأخذ الإشارة الأولى بالموافقة، لترسل فيما بعد والد الشاب والشاب نفسه إلى خالد ويصبح الأمر رسمياً ويتم الاتفاق على كل شيء.

أكبر خالد في أمه أن تأتي إليه لاستشارته في هذا الأمر، مما جعله يشعر بأنه رجل البيت الذي له الكلمة الأولى والأخيرة في هذا الشأن، مع أنه يعلم وهي تعلم أيضاً أنها تملك كل شيء في هذا البيت، لكنها كانت أصولية جداً في هذه الناحية، من جهة الشكل على الأقل، وقد علقت موافقتها حتى تسمع رأي خالد..

– خلاص يمه، ما دام انج تقولين ان الشاب عاقل وفاهم وهله معروفين بعد رايج وهداية الله.

– لا يا ولدي، أنا أبغيك توكد بنفسك من هالأمر، ذي أختك أمانة في رقبتك.

– لا يهمج يمه، أنا بأسأل عليه بنفسي ولا يصير خاطرج إلا طيب، بعد آمري.

في اليوم التالي ذهبوا لزيارة أم جاسم التي تحاملت على نفسها رغم إعيائها لترحب بخالد الذي لم تره منذ مدة طويلة، لكنه لم يستطع البقاء في حجرتها أكثر من لحظات، فقد تأثر كثيراً لمنظرها المتهالك وفضل الجلوس على المسطبة مع أبي جاسم وخميس الذي لحقهم إلى بيت المطوع ساعة رآهم متوجهين إليه، فخميس يحب بطبعه لّمة الناس، لا يتصور نفسه أبداً قاعداً لوحده بعيداً عن الناس بأي صورة، إلا في حالة المرض الذي يمنعه من الحركة، كأنما نسي كيف يتحرج منه خالد حتى صار لا يطيق رؤيته، لكنه احتمله هذه المرة لأنه في بيت المطوع الذي لا يخفى عليه شيء ولا يتحرج خالد من خدمته بنفسه.

كان المطوع مهموماً في أعماقه لمرض أم جاسم متخوفاً من فراقها، يحتمل ذلك بوجه لا تفارقه الابتسامة ولا تشغله عن الاستماع لهموم الآخرين، بينما يده تعبث بين الحين والآخر بشعر حفيده محمد الذي ما زال طفلاً يتطلع ببراءة لنظرات الآخرين المشفقة.

لم يكن المسكين يعي ما معنى مرض جدته، لكن الجميع كانوا يعرفون أنه لن يستطيع العيش بعدها، لأنها كانت أمه وأباه، بل أكثر من ذلك، كانت لسانه الذي يعبر به وعينيه اللتين يتطلع بهما إلى الآخرين، كان محمد يبدو جلياً للناس أنه أصغر من عمره الحقيقي بعشر سنوات على الأقل، يهز رأسه المطوع وهو ينبّه خالداً الجالس معه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. طالع.. لا تقدر تقول عاقل ولا تقدر تقول مينون، شهاالحالة يا ربي..؟

- اصبر عليه يا عمي، لابد ما تعدّل حالته ويصير ريال.

- عاد متى يا خالد؟ اللي في سنّه صاروا رياييل الحين ويعتمدون على أنفسهم وهو للحين يبغي من يطعمه ويسقيه، جنه إلا ياهل، وغير جذي ما يتعلم من أول مرة، المسكين ينسى، لازم تعيد عليه مرة وثنتين وثلاث.

كان المطوع يتحدث عن حفيده دون أن تشف كلماته عن بارقة أمل، وتلوح لخالد فكرة جديدة:

- عمي ليش ما تودي محمد للدختر الأجنبي؟

ورغم أن الفكرة استنكرتها تقطيبة المطوع لأول وهلة، إلا أن كلماته كانت توحي بالاستسلام:

- قولك ينفع يروح حق الدختر الأجنبي..؟

– أكيد يا عمي، وانت ما عليك من هالمسألة، أنا اللي باوديه له.

– الله يجزيك الخير يا خالد.

حاول خميس أن يتدخل كعادته، لكن خالداً تجاهله ولم يعره اهتماماً، لاحظ المطوع ذلك لكنه تغافل عنه، كما لاحظ الضيق الذي اعترى خالداً، لكن خميساً لبساطته كان كمن يحاول أن ينفذ لقلب خالد بشتى وسائله من غير فائدة، بقي خميس باسماً لا يهتم للأمر في قليل أو كثير، بينما اعتذر خالد من المطوع ونادى زوجته وأمه كي يرجعوا إلى البيت بعد أن وصل الضيق به إلى مداه، لم يكن هناك مهرب أمامه سوى أن يبتعد عن المكان الذي يوجد فيه خميس، أما من ناحية زوجته نورة فقد أخذ قراراً مع نفسه أن لا يؤذيها مرة أخرى بذكره لأبيها في قليل أو كثير، لأنها تعز عليه، وربما أيضاً لأنها تعزّ على أمه كثيراً.

قبل أن ينام خالد في تلك الليلة أخبرته زوجته نورة على استحياء أنها حامل بعد أن تأكدت من الأمر، يا لها من بشرى تأتي بعد أن أسقطت نورة حملها الأول، وتأخرت في حملها الثاني حتى صار الخوف هاجسها الوحيد من أن يكون ذلك بالإضافة إلى ضيق خالد من أبيها سبباً في زواجه بغيرها أو تركها تعود إلى بيتها، كان مجيء والدته إليه وطمأنتها إياه أفضل تأكيد لذلك الخبر. انزاح عن صدره في تلك الليلة كابوس ثقيل، وراح يشعر بأن له علاقة بدأت تمتد إلى المستقبل، وكان عليه منذ هذه الليلة أن يبقى قلقاً وخائفاً على هذا الحمل من أن يضيع كالسابق، لذلك لم يكتفِ بأن أوصى زوجته بالحرص، بل أوصى أمه كذلك لتراقب نورة حتى لا تحمل أشياء ثقيلة أو تغسل الثياب وما شابه من الأعمال التي تتطلب جهداً، لأنه يعرف أن نورة لا تهدأ، فما كانت تنتهي من شغل إلا لتنخرط في آخر، كأن ذلك وسواس في طبعها.

أما نورة فلا أحد يتصور مقدار سعادتها وهي تشعر أنها حامل من جديد، كانت تعتقد أن ما طرأ على تصرفات زوجها من تغير وما يحمله وجهه من هموم جديدة

مرجعه إلى أنها أجهضت في المرة الأولى وتأخر حملها الثاني، زرعوا في رأسها أن الرجل لا يستقر إلا بالولد، لذلك كانت تنتظر حملها بقلق وخوف شديدين، وفي هذه المرة كانت أشد ما تكون استجابة للتعليمات التي انهالت عليها من أم خالد وأمها وخالد، لخوفها من خيبة جديدة تصدم زوجها وحياتها معاً.

لعل ذلك الحمل جاء فألاً طيباً، فلم يمضِ يومان إلا وسمع خالد بعودة شركة البترول الأجنبية للعمل مجدداً في قطر بشكل أوسع مما كانت عليه قبل الحرب، مما فتح باب الأمل مجدداً في البلاد بعد أن وصلت إلى أسوأ حالة من الفقر.

كان خالد من أوائل الناس الذين استدعوا للعمل في الشركة، لم تكن الحالة المادية هي السبب الذي جعل خالداً يبدو سعيداً بعودته إلى العمل، بل كان العمل نفسه الذي افتقده خالد طوال تلك المدة، لقد اعتاد لغة العمل الجديد الذي أحبه، وأصبح يشعر بالغربة كثيراً وبالضيق حين لا يتاح له التحدث بها، أصبحت الشركة هي الوطن الوحيد الذي يستطيع من خلاله أن يمارس مهنته التي اكتسبها بعرق السنوات الماضية، فقد أتاحت له أن يبدو جديداً بكل معنى الكلمة أمام أهل ديرته، لكن الأمر الوحيد الذي كان يقلقه هو متى سيتاح لمهنته أن تخرج من إطار الشركة إلى الحياة خارجها..؟ متى سيحتاجه الناس حقيقة..؟ يأتون إليه من أجلها..؟ لكن هذا الأمر كان بعيداً عن أن يشغله كثيراً، فالمهم الآن هو العودة إلى الشركة.

لم يشأ خالد أن تكون فرحة عودته إلى الشركة إلا ممزوجة بفرح العائلة كلها، فقد وافق على زواج أخته من الشاب ناصر ابن التاجر عبد الله بعد أن تأكد من سمعته الممتازة، وحاز إعجابه عندما جاء مع والده لزيارته في البيت، وتمت خلال شهر واحد مراسم الزواج وذهبت هنود لتعيش في بيت زوجها، ولم يكن هذا البيت أكثر من حجرة في بيت واسع يضم بقية العائلة.

لم تكتمل فرحة خالد، بل ظهر الكدر واضحاً عليه رغم محاولته الجاهدة

لتبديده يوم وجد نفسه مضطراً لكي يشارك في عرس حمد على ابنة عمه، كان عرساً مشهوداً، تعمد حمد تعمداً واضحاً المبالغة والإسراف فيه، ووجد خالد نفسه مضطراً بحكم العادة أن يصافح عمه الذي كان يجلس إلى جوار المعرس باعتزاز، لم يدرِ كيف انقضت تلك الساعات الثقيلة، فسرعان ما انسحب إلى بيته مع أول الناس المنسحبين ليترك للمعرس أن يتفرغ لليلته الموعودة التي حلم بها من سنين، وفي البيت كان واضحاً أنه يحاول التعبير عن كدره وعدم رضاه بتصرفاته العصبية التي لا مبرر لها ظاهرياً، مما أثار دهشة واستغراب زوجته نورة التي لم تصدق نفسها عندما عاد السلام إلى بيتها أخيراً، لشقائها كانت هي المتنفس الوحيد لعصبية خالد المفرطة، والسبب أنه لا يستطيع ذلك أمام غيرها، لخوفه من مجابهة أمه التي يعلم ضمناً بسرورها بزواج حمد من ابنة عمه حصة، فقد باركت ذلك لا لأن عمه قد سر بذلك، بل لأن حمد حاصره من كل الجهات وأغلق عليه المنافذ وكسر هيبته في الفريج ، كانت أم خالد مستعدة لتبرير أي شيء يفعله حمد منعاً لأي بادرة لانتقاده، وبالمقابل كانت تدرك مقدار الولاء والامتنان العميقين اللذين يكنهما حمد بصدق لها، وإن نسي فلن ينسى أنها وقفت معه في أيامه الحالكة حين كان الجميع يتبرأون منه.

أما حصة فقد أشعرها حمد منذ الأيام الأولى لزواجها بأنها الملكة المتوجة في حياته، لم يبالغ حمد فقط في إسرافه في يوم عرسه حتى غدا عرساً مشهوداً في الديرة، بل وكان يبالغ في تقديره وحبه لحصة، مما جعلها تشعر أنها تختلف عن كل نساء الديرة، ورغم استغرابها ودهشتها في البداية إلا أنها تعودت فيما بعد، فأحبت في قرارها أن تجد أمامها رجلاً ضعيفاً محباً في بيتها بينما هو خارج البيت ينصاع الجميع لرغباته. لم يكن حمد يرضى أن يراها تشتغل بنفسها في شؤون البيت، فلماذا أحضر لها الخدم إذن؟! أصبح أميرها الذي تنتظر عودته إلى البيت بلهفة، لم تكن لتصدق أي شيء من شائعات الناس الحاسدين له حتى ولو رأت ذلك بأم عينها.

يا الله كيف اختلفت حياتها بعد الزواج، حتى أن أباها الذي كانت ترهب وقع

خطواته وهي تقترب من البيت، وكانت نظرة واحدة من عينيه اللتين لا ترحمان كافية لتكسر ظهرها، أصبح يتودد لها بعد زواجها من حمد، يكلمها برقة ولين لم تعتدهما قبل ذلك منه، كأن الجميع أدرك أن رضى حمد لا بد أن يكون مقترناً برضى زوجته حصة.

ترك المطوع فاطمة عند زوجته أم جاسم لترعاها، وعلى ما يبدو لم يعد هناك أمل في شفائها، كان هذا يحز كثيراً في نفس أبي جاسم لإحساسه بأن يوم فراق شريكة عمره الطيبة بات وشيكاً، لم يكن يجرؤ على التفكير في الهموم التي سترزح فوق قلبه الرقيق بعد رحيلها، بل أسلم أمره لله. حاول حفيده محمد أن يتعلق به، لكنه أومأ إليه أن يبقى مع جدته، والحقيقة أن المطوع بات شديد الحساسية لأية إشارة من الآخرين تتعلق بحفيده الذي ما زال يحمل عقل طفل لا يتجاوز العاشرة وهو في السابعة عشرة من عمره، كان بعض الناس يحسبون أنهم يداعبون محمداً الذي يستجيب بعفوية لهم، بينما هم ينكأون الجرح الذي لا يندمل في قلب المطوع دون أن يشعروا بذلك.

كانت الشوارع خالية من المارة كأنما نحن في موسم الغوص، ذهب الناس جميعاً للعمل في الشركة، لم يبقَ أحد في الديرة يقدر على العمل إلا وارتبط بها بشكل أو بآخر، حتى خميس ذهب للعمل فيها وصار يعود إلى الفريج في بذلة العمل الزرقاء مع العمال الآخرين في السيارة الكبيرة، مسكين.. فالعمال لا يتركونه في حاله، بل كثيراً ما يوقعون به المقالب ليضحكوا عليه، إنه يسليهم طوال الطريق.

نصحه خالد بعدم العمل في الشركة، لكنه لم يأخذ بنصيحته، كأنما يعانده ضمناً، كل الناس ذهبوا للعمل بها، فلوسها وافرة والناس بحاجة لتأمين أرزاقهم، لقد قاسوا أياماً صعبة وكانت حالتهم تصعب على الكافر، لكن المهم أن خميساً يعمل في مكان بعيد عن صهره خالد، فهذه الشركة ليست في مكان واحد.

أبو محمد غائب عن الديرة هذه الأيام، أخذه حمد معه إلى البحرين ليدخله المستشفى هناك على حسابه، بارك الله في حمد، قام بالواجب وزيادة، اتفق مع الشركة هو الآخر على أن يؤمن لها العمال، وقد كلفوه ببناء مساكن جديدة لهم ومخازن في دخان.

اتجه المطوع إلى أبي حسين الذي يجلس قدام بيت صلاح، أولاده محمد وصلاح لم يقصروا معه أبداً، تزوجت امرأته السابقة وسافرت إلى دبي وبقي أخوها عتيق في الديرة يسكن في بيت أبي حسين.

يأخذ المطوع مكاناً إلى جانب أبي حسين ويستند بظهره إلى الحائط، كان أبو حسين يتابع بعينيه أولاد صلاح ومحمد وهم يلعبون عند السدرة..

- شلونك الحين يا بو حسين..؟

يهز رأسه أبو حسين وهو ينطق بصعوبة واضحة:

- الحمد لله بخير..

- أقول ما بقي غير أنا وأنت في هالفريج، كلهم راحوا الشركة.

يهز رأسه مرة أخرى موافقاً وبنبرة لا تخلو من السخرية وبتقطيع في الكلام ظاهر:

- حتى ولدي صلاح هدّ التجارة واشتغل بالشركة.

يتوقف لحظة ثم يتابع باعتزاز واضح:

- ما في غير ولدي محمد ما قبل يشتغل فيها، ما يداني ريحة الكاز، محله اللي في السوق أبرك له من الشركة.

ويهمس كأنه يبوح بسر:

- عمه اللي في البحرين ساعده وعطاه اللي يبغيه من الذهب حق المحل، ذهب

شكثر يا بو جاسم !!، أنا شفته بعيني.

- اللّه يوفقه، محمد يستاهل أكثر من جذي بعد، لأنه يعتمد على نفسه في كل شيّ، بس تدري يا بو حسين، أنا ملاحظ عليك إنك للحين ما تقدر ولدك صلاح مثل ولدك محمد.

الأمـل

هذا اليوم كان يوماً بهيجاً في حياة خالد ونورة والعائلة كلها، أسدلت بهجته الستار على كل مخاوف الماضي، فقد أنجبت نورة صبياً رائعاً بعد ولادة متعسرة كادت أن تخطف روحها وروح الصبي، لكن الله ستر في النهاية واطمأنت القلوب الخائفة أخيراً، ورغم آلامها والإرهاق الذي عانته في ولادتها إلا أن نورة شعرت بالارتياح الغامر وغالبت نعاسها الذي يغريها بنوم عميق بعد يومين من المخاض المرهق من أجل أن تمتع أحاسيسها وهي تسمع صوت ولدها حسين لأول مرة في حياتها، بينما كانت جدته أم خالد تغسله بالماء والملح وتشطف عنه أوساخ الولادة التي علقت بجسده اللين وهي لا تصدق أنها تمسك بحفيدها الذي علقته بقلبها حتى لا يزلق جسمه الطري من بين يديها.

لم تقتصر هذه البهجة على خالد وأسرته، بل لحقت أيضاً بالفقراء والمساكين الذين وزعت عليهم الهبات وشبعوا من طعام الوليمة الكبيرة التي أولمها خالد بمناسبة قدوم المولود الجديد.

لم ينسَ حمد أن يشارك في هذه البهجة كعادته دائماً، فأرسل لخالد أكياس الأرز وخمسة خرفان هدية بمناسبة قدوم المولود، وعطل شغله في ذلك اليوم من أجل حضور الوليمة ليسحب انتباه الجميع إليه دون منازع، كان نفوذه وثراؤه يجتذبان الناس إليه كما الفراش المتحلق حول الضوء، كانوا جميعاً يتسابقون إليه رغم الشائعات التي تداولها البعض عنه، مشى معه خالد مودعاً إياه:

- الفال لك إن شاء الله يا حمد، ما قصرت، قمت بالواجب وأزيد.

قالها خالد وهو يشد على يده مودعاً..

- شدعوه يا خالد ..؟ إحنا اخوان، ولّا نسيت؟

- لا إن شاء الله ما أنسى.

لم يفت حمد أن يسأل خالداً عن أحواله في الشركة وعمّا إذا كانت تعترضه أي مشكلة هناك، فطمأنه بأن كل شيء تمام ولا ضرورة لأن يشغل باله عليه من هذه الناحية..

- لا تنسى تسلم على الوالدة.

- يبلغ إن شاء الله.

عند العصر جلس خالد يحتسي كأساً من الشاي وهو يشعر بارتياح يملأ كيانه كله، بينما كانت تصل إليه بين الحين والآخر أصوات طفله الباكية، كأنما كانت تجول في مشاعره في تلك اللحظة قصيدة لا يستطيع التعبير عنها، خيل إليه أنه ينتشي برذاذ البحر مرة أخرى ويقترب إلى الأفق وقد غسل روحه بمياهه بعد فترة طويلة من الكدر والهموم.

لم تكن أم خالد تسمح لأحد بالإشراف على الطفل، كانت دائماً إلى جانبه توزع الأوامر، ولأول مرة منذ فترة بعيدة جداً يملأ المكان صوت مناغاتها الحنون الذي بدا خجولاً متهيباً للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما اتصل وراح يبدد الوحشة العالقة بروحها، بينما كان الطفل يغفو على ترنيمتها الحانية.

هذه البهجة كان ختامها نكداً على خميس حين راحت فاطمة المتخوفة دائماً تعاتبه على ما بدر منه خلال العرضة عندما أعطاه بعض الشباب السيف وراح يقوم بحركات أضحكت الجميع منه، لم يجد خميس تبريراً أمام زوجته، التي لا تفهمه كما يعتقد، سوى أن يقول لها بغيظ:

- أوه، كنا فرحانين، شفيها لو ضحكوا يميع؟

- كانوا يضحكون عليك يا خميس.

وبحماسة ينتفض معترضاً ومتحدياً:

- يخسون إلا هم، منهو يقدر يضحك عليّ؟

وتضرب زوجته كفاً بكف:

- ما فيه فايدة!!

يشعر كمن تلقى صفعة مفاجئة من زوجته:

- ما فيه فايدة منج انتي، اخترِبتي خلاص، كل اللي يهمج خالد وبس، أما أنا خبر خير.

- منهو يقول هالكلام يا خميس؟

- ما أدري، أنا باروح عنج الشركة وبافتك منج.

يذهب خميس إلى الشركة التي وجد فيها خير متنفس له بعيداً عمن يوجه له اللوم، وبعيداً عن خالد الذي لا يراه وإن كانا يعملان في الشركة نفسها، أما فاطمة فكانت تقضي أغلب أوقاتها في بيت المطوع تقوم على خدمة أم جاسم المريضة، ولا تجد عذراً لِما يفعله خميس سوى أنه المسكين كلما كبر نقص عقله وخرّف، عجيب!، عندما تزوجته كان يفهم عليها كل ما تقوله، لم يكن يخالفها في شيء، أما الآن فصار يتحسس من كل كلمة تقولها له ويترصد لها هي بالأخص من بين سائر الناس.

نفى حمد بشدة أمام المطوع ما تردد من شائعات تسلطه وابتزازه للعمال الذين سعى بتشغيلهم في الشركة، واستطاع بلسانه الطلي الذي يفتعل البراءة أن يقنع المطوع بأن هذا الكلام من أقوال الحاسدين الذي يحاولون تشويه سمعته في الديرة، قائلاً له بثقة:

- خلي واحد من هالعمال يشتكي لك وعقبها لك حق علي.

بالطبع كان حمد ضامناً أن أحداً من هؤلاء المساكين لن يعرف شيئاً من حقوقه،

لأن حمد هو الذي كان يتعاقد باسمهم بأجر مقطوع، عدا عن أنهم كانوا يعدون حمد منقذاً لهم من دوامة البؤس التي كانوا يغرقون فيها دون أمل، وعلى فرض أن أحداً منهم عرف فإنه لن يجرؤ على أن يفتح فمه بكلمة واحدة، وإلا فإن رزقه سينقطع ولن يجد من يوصله إلى الشركة مرة أخرى.

لم يكن المطوع قادراً على مجادلة حمد في هذا الشأن، فقد كان حمد يغطي نفسه ظاهرياً بكثير من أعمال الخير والواجب..

- هذا حظي يا مطوع، أسوي خير وألقى شر.

راح المطوع يربت على كتف حمد وهو يطمئنه أنه لن يصدق هذه الأخبار لأنه يثق به، وحضه على المزيد من فعل الخير لأن جزاءه مرتبط بالله وليس بالناس، وبامتثال راح حمد يعبر عن الخشية لدى ذكر الله:

- إي صحيح يا مطوع، وعلشان جذي أنا دوم عندي أمل ولا أيأس موليه!!.

- الله يبارك فيك يا حمد.

ولم يفت حمد أن يسأل المطوع:

- بس ما قلت لي، من وين سمعت هالخبر؟!

- ناس عندنا بالفريج ما في داعي تعرفهم، أنت سوّ واجبك وما عليك منهم.

وكأنما أراد حمد أن يطمئن إلى أحدهم:

- يكون خالد؟

- لا لا، لا تظلم خالد يا حمد، أنت تدري خالد ما يتكلم في حق أحد، ما هي بعوايده.

- اي أدري.

انصرف المطوع عنه، لكن حمد استطاع أن يحصر الأمر بعد أن اطمأن إلى أن خالداً بعيد عن القضية، وضاقت دائرة شكه لتطوق أبا حسين الذي يمضي معه المطوع أغلب أوقاته في غياب الناس عن الفريج، من أين لأبي حسين هذا الخبر غير ولده صلاح الذي لم يرث عن والده إلا لسانه الطويل؟، لا بد أن أتأكد من هذا الأمر وأكلف من يراقب صلاحاً ويستدرجه إلى هذا الحديث، الأمر هيّن، ورغم الكدر الذي سببه له هذا الحديث إلا أنه قلب وجهه تماماً ليصبح مبشراً ومتفائلاً عندما ذهب إلى حجرة زوجته «حصة»، فمن طبعه أن يبعد زوجته عن كل ما يعتمل في نفسه من كدر بالغاً ما بلغ، لأنه لم يكن يرضى أن يشاركه أحد همومه، وليبقى أيضاً مرتسماً في ذهنها على أنه الرجل القوي الذي لا تعترضه مشكلة، وبمناسبة حملها جلب لها عقدين ثمينين من الذهب وأثواباً ثمينة مشغولة بخيوط الذهب من دبي، وكذلك بشتاً ثميناً لأبيها الذي تحسنت صحته كثيراً بعد علاجه في المستشفى بالبحرين على حساب حمد.

كانت نساء الفريج يتساءلن باستغراب: إذا كان هذا البذخ من أجل الحمل، فكيف سيكون عندما «تربي»[1] وتنجب له الولد؟!!.

---

(١) تُربي: تضع حملها.

سلمى أخيراً

ساءت حالة سلمى كثيراً إلى درجة أنها لم تعد تتعرف على ولدها محمد، وصار الجميع يأنفون من الدخول إليها ورعايتها، وأصبحت حجرتها مأوى لكل القاذورات بعد أن فقدت كل إحساس بمن حولها وبنفسها، صارت تتعرض للضرب كطفل صغير، لكن شيئاً من هذا كله لم يدفعها إلا إلى المزيد من التردي الذي آل إليه حالها، عندما فقدوا فيها الأمل هجروها في حجرتها التي أصبحت عالماً من الفوضى والقذارة، وبقيت امرأة أبي محمد تعطف عليها وتحاول أن ترعاها، لكن الأمر كان أكبر من احتمالها.

حاول صلاح أن يراها مرة، لكنه صُدم وخرج من البيت لا يلوي على شيء، ولم يكترث محمد بمصيرها لانشغاله الدائم، أما أبو حسين فلم يرها منذ ذلك اليوم الذي قابلها فيه، وصار بعد ذلك يتهرب من مجرد ذكر اسمها، أصبحت سلمى مجنونة تماماً ووصمة يكرهون أن يذكّرهم أحد بها في أي شأن..

- مسكينة، الله يعينها هذي نصيبها، شنسوي؟!

كلمات قاطعة وحاسمة لا تترك مجالاً لأي احتمال آخر أو تفسح ولو نفساً من أمل.

بعد فترة صعب على أبي محمد أن يترك حجرة أساسية في صدر البيت لمجنونة، فكان أن نقلوها من الحجرة رغماً عنها، لا لأنها تحب هذه الحجرة أو غيرها، بل لأن عالمها الذي اعتادت العيش فيه متعلق بهذه الحجرة، وفي جانب المطبخ كانت هناك زريبة مسقوفة بسعف النخيل (الجريد) سويت على عجل لاستقبال النزيلة الجديدة «سلمى»، وأغلق عليها الباب بعد أن وضع لها فراش في ركنها وبعض المواعين القديمة لتستخدمها، وصار الطعام يصل إليها من تحت الباب، فهناك فرجة كافية بينه وبين الأرض تسمح بدخول صحون الطعام.

أما حجرتها فقد فتحت أبوابها ونوافذها للهواء مدة يومين وغسلت بالماء وفرشت من جديد لتصبح مناسبة لجلوس أهل البيت.

بقيت سلمى لأيام يسمع عويلها دون أن يهتم لها أحد، وأخيراً خرست تماماً إلا من بعض الخربشات على باب الزريبة الخشبي، ولم يكن أحد يعلم كيف تعيش في ذلك المكان، فنادراً ما يسأل أحد عن ذلك، أما هي فلم تكن بقادرة حتى على التعبير عن جنونها المفترض، ربما كانت تعيش نوعاً من الحالات الخاصة في عالمها ذاك، وربما كانت تعيش ظلمة لا تنبض فيها صورة ولا يتمايز فيها لون من الألوان، استوت أمام عينيها جميع الصور، لم يعد هناك ما يبعث أدنى حركة في عينيها الساهمتين.

في أحد الأيام تركت النار تشتعل تحت قدر الهريس في المطبخ المجاور للزريبة، وامتدت النار لتشعل سقف الزريبة، وما هي إلا لحظات حتى أصبحت الزريبة بكاملها كتلة من نار، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئاً، فقد تأخر كل شيء، ووجدوا سلمى جثة متفحمة، وعلى عجل تم كل شيء ودفنت سلمى في ذلك اليوم قبل أن يحين موعد الغداء.

العهد الجديد

انتهى الاحتفال الكبير الذي أقيم في «مسيعيد» بمناسبة البدء بتصدير البترول بواسطة السفن الكبيرة التي ترسو في مينائها الذي أعدّ ليكون مناسباً لتزويد السفن بالبترول الذي يندفع عبر الأنابيب من حقول دخان. ولأول مرة تشهد البلاد احتفالاً يحضره المدعوون الأجانب والعرب الذين حضروا بالطائرات وبعضهم بالسفن، لقد شهدت مسيعيد مهرجاناً جاء إليه الناس من كل مكان ليعيشوا بأنفسهم بشارة الإعلان عن المستقبل الموعود وقد أصبح حقيقة، ولم تعد القضية إلا مسألة وقت.

من كان يتصور أن هذه البلدة سيكون لها من الأهمية ما يجعلها مكاناً لهذا الاحتفال بعد أن كانت قرية معدومة ترتمي على حدود سبخات الملح و«طعوس»[1] الرمال، من كان يتصور أنه سترتفع فيها الزينة والأعلام وتشاهد فيها، لأول مرة، الألعاب النارية وتقام الولائم الفاخرة ويسجل المصورون هذا الحدث؟!.

راح الناس يتحدثون عن ضخامة المبلغ الذي تلقاه الشيخ عبد الله مقابل أول دفعة من النفط المصدر، فقد استلم شيكاً بمبلغ مليون دولار، كانت كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث تحتاج إلى ترجمة خاصة للناس البسطاء الذين لم يبدأوا بإدراك مغزاها إلا بعد أن صار من الواقع أن يتعاملوا بها، وكان مفهوم ذلك الاحتفال بالنسبة للناس البسطاء أنهم سيودعون الفقر ويغرقون في الفلوس.

عند العصر كان حمد يرجع بالسيارة من مكان الاحتفال وإلى جانبه محمد بن أبي حسين، وقد قصد إلى ذلك حمد بعد أن تأكد أن أخاه صلاحاً هو الذي أشاع عنه تلك الشائعة، وكانت مسافة الطريق كافية لكي يقطعانها بالحوار..

– أقول محمد، أنت لين متى بتم ساكن في بيت أخوك صلاح..؟

كان السؤال مفاجئاً لمحمد، لكنه لم يجد حرجاً في مصارحة حمد بالواقع:

---

(١) طعوس: كثبان.

- شاقول لك يا حمد، أنا ودّي أسكن بروحي لكن المحل اللي شريته حطيت فيه كل ما عندي وتسلفت بعد من عمي علشان الذهب، المسألة يبي لها سنة ولّا سنتين حتى أقدر أوفي اللي عليّ واشتري بيت يديد.

وبنخوة يفتعلها حمد وهو ينظر إلى محمد بعتب:

- أفا يا بو جاسم، ما هقيتها منك، عيل حمد شيسوي!!؟ أنا مستعد أسلفك حق البيت، شرايك؟!

تبرق عينا محمد، لكنه يتماسك بحذر:

- لا لا، ما أبي أكلف عليك، وبعدين ما أبي أزيد ديوني.

- من صوبي ما فيه كلافة، وانا باسلفك لمصلحتك يا محمد، ويكون في علمك إن الأسعار بتزيد مرتين السنة الياية، وأنا أقول الحق قبل لا يفوتك الفوت، شرايك أتفاهم مع عتيج علشان يبيع بيت أبوك؟.

لم يتوقع ذلك محمد، فبيت أبيه يعني له الكثير، ولم يستطع أن يتماسك أمام هذا الإغراء:

- تقدر عاد؟

- أقدر ونص، ها اشقلت؟

- توكل على اللّه.

لم يجرؤ عتيق على رد حمد عندما طلب البيت منه، فهو يعرف أن حمد صاحب فضل عليه، كما أنه يشعر بالعزلة وسط الفريج، فليس هناك من سيقف إلى جانبه لو أنه رفض، عدا عن أن حمد يستطيع أن يدوس على رقبته إذا أراد، لذلك وجدها فرصة أن يتخلص من البيت الذي يحمل تفويضاً من أخته بالتصرف فيه ويرحل إلى منطقة أخرى، لكنه وجد السعر الذي يعرضه حمد قليلاً، بيد أن حمد أفهمه أنه إذا

لم يبع فسوف يجد نفسه مضطراً للبيع بسعر أقل من ذلك، ولم يمضِ يومان إلا وكان عتيق محملاً أغراضه على عربة راحلاً بها من الفريج بعد أن قبض ثمن البيت، فكلف حمد بعض عماله المساكين بجلب «اليص» وتصليح البيت ليكون لائقاً لانتقال محمد وعائلته إليه، وكذلك أبي حسين الذي لم يصدق أنه يرجع إلى بيته ثانية، بينما بقي صلاح في بيته يشعر بأنه سلب شيئاً دون أن يدري ما هو، ربما لأنه كان يشعر بنوع من الوجاهة بعد أن ضم بيته كل الأسرة، خصوصاً أن أخاه محمداً لم يكن ذا شأن قليل في اكتساب الأهمية، إلا أن أهم شيء بالنسبة إليه هو أنه تأكد مرة أخرى أن أباه كان يعيش معه في بيته رغماً عنه، ولولا أن محمداً يسكن معه لما صبر على تلك الإقامة، وها هو لا يصدق كيف جاءه الفرج لكي يغادر مع محمد إلى بيته القديم الجديد.

• • •

كانت الولائم التي يقيمها حمد بشكل دوري فاتحة لإقامة المزيد من العلاقات التي تيسر له مصالحه، فرغم الإسراف الذي يبدو في الظاهر واللامبالاة الحاتمية التي تظهر دائماً على أسارير حمد، إلا أن كل شيء كان محسوباً في الواقع.

اعتاد أبو محمد أن يجد في مجلس حمد متنفساً للحديث عن ذكرياته وتجارته وعائلته أمام الزوار الذين كانوا يجاملونه إكراماً لحمد، لكن أبا محمد كان يشعر يوماً بعد يوم أن حمد ينسحب أحياناً مع بعض الزوار إلى حجرة خاصة قريبة من المجلس تاركاً أبا محمد في المجلس دون أن يدعوه توجيبياً له على الأقل للاشتراك في مشاوراته، لم يكن حمد جافاً في أسلوبه، بل كان يتصرف بطريقة لبقة وذكية، وشيئاً فشيئاً بات أبو محمد بعيداً تماماً عن عالم حمد، وبدأت أعطيات حمد التي تعودها أبو محمد تقل مع الأيام، حتى صار مضطراً في كل مرة أن يطلب منه.

في يوم دعا حمد بعض الضيوف الأجانب الذين يعملون في الشركة لوليمة في بيته، شعر أبو محمد عندما سمع بالوليمة أن حمد تصرف تصرفاً غريباً، فالعادة أن

يبعث له من يدعوه أو أن يدعوه شخصياً، لم يتبادر لذهن أبي محمد أي نية سيئة في تصرفه، فقد فات أوان الشك، من الواجب أن أذهب، فأنا من أهل البيت ولا أحتاج إلى دعوة، من المناسب أن أتعرف على الضيوف الأجانب، لا بد أنهم مهمون، من ناحية أخرى لا بد لي من رؤيته قبل أن يفلت مني، صار كالزئبق لكثرة أشغاله.

في وقت الغداء خرج أبو محمد من بيته بعد أن استحم ولبس ثوباً نظيفاً ووضع «بشته» عليه متوجهاً إلى بيت حمد، فقد شاهد من بعيد بعض السيارات مصطفة أمامه، من الواجب أن لا أتأخر عليهم، لا بد أنهم ينتظرون قدومي ليضعوا الغداء، لكنه دهش عندما وصل إلى بيت حمد بعد أن أرهق نفسه متعجلاً أن باب البيت مغلق، يبدو أنه لا يريد أن يتطفل بعض الثقلاء على مجلسه، معه حق، الضيوف أجانب ولهم أهمية وبعض الناس لا هم لهم إلا التطفل على موائد الطعام، قد يعطون صورة سيئة عن الديرة، وصلت إليه الضحكات المنبعثة من داخل المجلس قبل أن يطرق الباب براحة يده، لكن أحداً لم يفتح الباب، ربما لم يسمعوا صوت الباب، لكن الجو حار وضايقه العرق الذي سيذهب برائحة العود الطيبة، فطرق الباب هذه المرة بقوة أكثر وإلحاح لا يخلو من الغيظ، كان عليه أن يتوقع قدومي فيكلف الخادم بالوقوف بجوار الباب..

انتبه أبو محمد لصوت الباب وهو يفتح وحمد يقف في وجهه ساداً الطريق وقد بدت في عينيه نظرة نارية أربكت أبا محمد..

- شفيك يا حمد، ليش ما تبطلون الباب، وين الخادم..؟

- تفضل يا عمي، ما عليه سامحني، أنا موصي الخادم لا يبطل الباب قبل لا يشاورني.

- من عندكم؟

- جماعة، ما عليه، إحنا «نجبنا»[1] الغدا وما بقي إلا الزود، وأنا أجوف تدش

(١) ينجب: يغرف الطعام.

داخل عند حصة تنجب لك من الجدر.

لم يستطع أبو محمد أن يكتم انفعاله وغيظه وقد بدأت الأمور تنكشف له:

- أنا مب حرمة حتى أتغدى مع الحريم داخل يا حمد، وكان الواجب تنطرني أنت وجماعتك قبل لا تنجبون الغدا.

هنا اقترب منه حمد أكثر كأنما يتجهز للإطباق عليه وقد فاحت منه رائحة الخمر:

- والواجب يا بو محمد إنك تنطر لين ندعيك على الغدا، ولّا أنا غلطان؟

لم يصدق أبو محمد ما تسمعه أذناه، لكنه تحامل على نفسه المتهالكة:

- لا مب غلطان يا حمد، ما قصرت، لكن الشرهة مب عليك، الشرهة عليّ أنا.

- الحين مب فاضي حق هالسوالف، إذا تبغي فلوس باطرشها لك البيت، لكن فكني، تراك مسختها، مع السلامة.

وأغلق الباب في وجه أبي محمد وكأن الدموع كانت تنتظر صوت الباب لتطفر من عينيه، سحب البشت من عليه ووضعه فوق رأسه ليتقي به الشمس الحارقة وراح يستعجل الطريق إلى البيت حتى لا يكتشفه أحد بهذه الحال، بينما كانت العبرات تخنق قلبه.

فعلها حمد بعد أن ظل سنوات يُرخي في خيطه لي، سلبني كل شيء وأنا أتصور أنه يغدق عليّ بكرمه ونخوته، يا سبحان الله، هل وصلت بك الأيام يا أبا محمد إلى أن يتجرأ حمد على إغلاق الباب في وجهك وطردك من أمام البيت؟.

لم يره أحد وهو يدلف إلى الحجرة وقد أخذ الخناق بأنفاسه، أحس كما لو أن الجبال أطبقت على صدره، حاول أن يصل إلى الماء لكنه سقط عند النافذة، أمسكت يده بطرف الشباك وبدأت عيناه تغيمان، لا يدري كيف استرد بعض أنفاسه، ونظر

بعينين ناعستين إلى الزريبة المحترقة التي تطل عليه من النافذة، وبدأ يحس أن سوادها يكبر ويكبر حتى أطبق عليه، ارتخت يده التي تمسك الشباك، لم يختلج إلا خلجة واحدة وانتهى كل شيء.

• • •

تحدث الناس كثيراً عن حزن حمد على عمه أبي محمد وكيف أنه قام بالواجب وأصر على أن يكون العزاء في بيته الكبير الذي تقاطرت وفود الناس إليه من كل صوب، وللمفارقة كان الناس يتحدثون عن عم حمد ولا يذكرون نسبته إلى خالد بشيء، مما اضطر خالداً أن يكون بين صفوف المعزين في عمه في بيت حمد نفسه.

كان حمد طوال الوقت لا يفتأ يبدي استغرابه ودهشته وعدم تصديقه بعد أن طمأنه الدكتور على صحة أبي محمد وأنه صار مثل الحصان، وكيف أنه يرحمه الله كان في ذلك اليوم في أطيب حالاته، حتى أنه كان متأنقاً في لباسه كأنما يتجهز لعرس، لا حول ولا قوة إلا بالله، ليس هناك أمان في هذه الدنيا الفانية، وراح الناس يطيبون خاطر حمد المكسور بعد أن أجهش بالبكاء.

هذا أمر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي وسط هذه الهمهمة رجع صوت حمد واضحاً وحاسماً:

– يا جماعة، يا الربع، الحاضر يعلم الغايب، اللي له حاجة ولّا دين على بو محمد ترى حقه عندي وديونه كلها أنا متكفل فيها، ولا يردكم غير لسانكم.

ليس هناك وفاء بعد ذلك، هكذا راح الناس يتحدثون عن رجولة حمد ونخوته التي لا مثيل لها.. «نعم، حمد ولد أصل ولا ينسى المعروف».

لم ينسَ حمد زوجته الحزينة على أبيها، واساها وطيب خاطرها عندما حلف لها بأنها أمانة في رقبته، وحتى لا يثير أشجانها المكان فقد اقترح أن تسافر معه إلى دبي في رحلة بحرية على سفينته الخاصة التي أعدّت لتكون مناسبة لرحلاته مع أصدقائه

المهمين.

سافر حمد مع زوجته الحامل وأخذ على نفسه التسرية عنها، غسل أحزانها بلسانه اللبق، كان البحر هادئاً والهواء عليلاً، في الواقع لم يسافر إلى دبي من أجل أن ينسيها أحزانها، بل لإتمام الصفقة الموعودة لجلب الأسمنت إلى الديرة، تلك المادة التي لم تكن معروفة قبلاً، لكنه سمع عنها من بعض الأجانب وعرف ميزاتها التي تفوق الجص والطين لأنها جاهزة مسبقاً وتأتي من المصانع، فلا تحتاج إلى تحضير، عدا عن قوتها وتماسكها وسرعة العمل بها، أليست بنت الأجانب التي سيكون المستقبل لها؟، وحمد لا يستطيع مقاومة هذا الإغراء، وهو إحراز قصب السبق في كل شيء من أجل أن يكون المستقبل طوع يديه، إن احتكار هذه المادة يتيح له الدخول من أوسع الأبواب إلى أعمال البناء الجديدة.

هناك لم يدّخر حمد جهداً في أن يظهر أمام زوجته أنه لم يسافر إلا من أجل تخفيف أحزانها، وقد خفف عنها ذلك كثيراً، ولم ينسَ حمد أهلها جميعاً من الهدايا والألبسة، وما رجعت من هناك إلا وقد غسلت أحزانها جميعاً وآمنت بقدر الله وبالنعمة التي أنعم الله بها عليها في شخص حمد الذي لو خدمته مدى حياتها لما أوفته ديونه عليها وعلى أهلها جميعاً، كان عليها أن ترتاح المدة الباقية من حملها بعد أن اقترب أوان وضعها، ألا يستحق حمد أن أحافظ على ولده وألا أسيء إليه بأحزاني؟!.

أما حمد فقد رجع سعيداً بزوجته العاقلة، وبالصفقة التي حققها بعد أن ضمن التوكيل لهذه المادة، الأسمنت الذي سيكون عنوان جميع الأبنية التي قامت على أنقاض الطين ومحارق الجص.

• • •

استغرب خالد حين رأى صلاحاً قادماً لزيارته في موقع عمله، فليس من عادته ذلك، كما أن المشرف عليهم لا يعطيهم فرصة للراحة أبداً، لم يكن لدى خالد ما

يشغله، فاستأذن للذهاب إلى استراحة العمال مع صلاح المضطرب، لم يحتج خالد لكي يبدأه بالسؤال..

- تكفى يا بو حسين، أنا في ورطة.

- ورطة؟، شلون عاد؟

- هاذي المهندس رئيسنا حاطّ عليّ في الشغل من دون خلق الله.

- وشالسبب؟

- ما ادري.

- هو طبيعته هالشكل، لا تعلمني عنه، أنا اعرفه نظامي وايد.

- لا يا بو حسين، أقول لك حاط عليّ من دون خلق الله، تقول لي نظامي؟

- زين اهدا وقول لي شيسوي؟

- حاط دوبي دوبه، ما في شغلة إلا ويكلفني ابها، چني إلا عبد ابوه، كله يصارخ ويشتم، واليوم ياب واحد من المخزن يشتغل معاه بدالي وقال لي أروح أشتغل مكانه لأنه ما يبغيني عنده.

- شعليك منه، المخزن أخير لك وترتاح فيه بعد.

لم يكن خالد من النوع الذي ينفعل بسرعة، فقد أصبح روتينياً في كل شيء، وربما سلبياً أيضاً في علاقاته مع الآخرين في الوقت الذي كان أولاد ديرته العاملون في الشركة يطمعون في وقوفه إلى جانبهم باعتبار خبرته وعلاقاته الممتازة في الشركة، إلا أنه كان مخيباً في كثير من الأحيان، كان يتميز بعقلية خاصة تساعده على الانطواء والعزلة، ولم يعجب صلاحاً أن يرى خالداً غير متحمس له:

- شفيك يا بو حسين، أنا يايّك ومتعنّي، لكنك أنت ماهب مهتم ولا ياي على بالك.

وبلا انفعال يجيبه ببرود:

- شللي اقدر أسويه لك يا صلاح وما سويته؟، هاذي شركة عودة ولها قوانينها ونظامها علشان الشغل يمشي، واحنا ما علينا إلا السمع والطاعة.

ينظر إليه صلاح بخيبة أمل واضحة كأنما كان يتخيله يقدر على أكثر مما يقول، ثم كمن كان يخبئ خبراً آخر مهماً لا يستطيع إلا التصريح به:

- تدري يا بو حسين منهو صديق هالمهندس واللي يعز عليه؟

- لا، منهو؟

- يعني ما تدري؟ حمد ما غيره، وبازيدك من الشعر بيت، دايماً يسهرون مع بعض وأنت أدرى!.

- بس أنا ما اجوف أي علاقة بين حمد وصداقته لهالمهندس وبين مشكلتك يا صلاح.

- حمد يكرهني وما يطيق يشوف رقعة ويهي، وأكيد داز المهندس علي!.

وبطريقة تعبر عن عدم اقتناعه يشير إليه منكراً:

- لا لا، ما ظنتي حمد يسوي جذي.

- ليش ما يسويها؟، ولّا ما تبغي تتكلم عليه لأنه رفيجك القديم؟.

كأنما استطاع صلاح أن يضرب على وتر حساس جداً في وجدان خالد:

- لا لا، أنا ما أرضى على نفسي أتهمه من غير دليل.

- تبغي دليل يا خالد؟، أنت تغيشم ولّا شلون؟ منهو اللي باق حقوق العمال غير حمد؟، منهو اللي أقنع أخوي محمد يهد البيت ويشتري بيت أبوي بفلوسه؟

- لسانك هاذي أطول منك يا صلاح، اسمعني زين، لا تشب الضو بينك وبين

حمد لأنه ماهب ﴿ صالحك هالشيء، وإذا كان يهمك حقوق العمال التي تتهم فيها حمد، فالأولى إن العمال أنفسهم المتضررين يتشكون على حمد مب أنت!.

- شلون يتشكون عليه وهو قابضهم من رقابهم، شلون يا خالد؟

- عيل ما عندك أي دليل على كلامك، ونتيجة كلامك ذي هي العداوة والضرر، والأولى انك تتأسف له وتهتم ﴿ شغلك!.

- إلا يخسي هو!

هنا لم يستطع خالد أن يسمع أكثر من ذلك، فأخذه الاضطراب من كل جانب، كأن حماس الآخرين ولا مبالاتهم نوع من التنديد الضمني له، لأنه لا يقدر على فعل شيء على عكس ما يتوق شخصياً للقيام به، وجد نفسه بالرغم من إرادته يكبح صلاحاً، ذلك الإنسان الرقيق العصبي المزاج، واللسان الطويل أيضاً، الذي لا يستطيع شيئاً رغم أنه ﴿ قلب الدوامة.

عندما غادره صلاح حانقاً بعد أن ثار عليه خالد متهماً إياه بالغفلة وعدم الفهم، أحس خالد كأنما ثورته كانت عليه هو نفسه ولم تكن ضد صلاح، فهو دائماً يواجه الآخرين بتعقله ورويته، لكنهم يفسرون ذلك عجزاً وجُبناً وقلة بادرة، لو أن المسألة تتعلق به لقدم ما يستطيع، لكن عندما تتعلق المسألة باشتباكه مع الغير أو حتى التوسط وإراقة ماء وجهه فإنه ينكمش تماماً، سواء كان ذلك تعقلاً أو جبناً أو ما كان ﴿ نظر الناس، ربما لو وجد نفسه مضطراً وانعدمت أمامه كل وسائل التحفظ، عندها لا يستطيع أن يتكهن بتصرفاته، قد ينقلب نمراً أو قطاً عجوزاً فقد مخالبه منذ فترة وجيزة.

حين ذهب صلاح إلى أخيه محمد وجد أن حمد قد سبقه إليه من خلال تلون وجه أخيه وهو يأتي أمامه بسيرة حمد، وراح أخوه يؤنبه لأنه افتعل تلك الشائعات على حمد ولد الديرة الذي يساعد الجميع لوجه الله، شعر صلاح لأول مرة بأن شرخاً هائلاً قد

حدث بينه وبين أخيه محمد، فقد أصبح محمد تابعاً أثيراً للرجل القوي ذي النفوذ، ولم يستطع صلاح أن يسكت على أخيه، خصوصاً بعد أن شعر بأن مهمة الأخ الأكبر في العائلة قد سلبت منه نهائياً وبات يتولاها محمد الطامع الجديد بالجاه والنفوذ، والذي زاد الطين بلّة هو موقف أبيه المساند لمحمد ضده رغم أنه يكره حمد تماماً، عاد صلاح ليعيش في جزيرته محروماً من الأمل الذي تفتح مرة في بيته عندما كان الجميع يسكنون فيه.

لم يطل الأمر بصلاح، فبعد شهر من عمله في المخزن اتهم بأنه يساعد على تهريب بعض المواد وبيعها في السوق بعد أن اكتُشف نقصها في المخزن، ووجد صلاح نفسه بلا حيلة ولا حول متهماً بالسرقة ومحولاً إلى عمل آخر في موقع سيء بعد أن وجه له اتهام بالإهمال وقلة الأمانة، وللمفارقة الساخرة فإن الذي ساعد على إبقائه في الشركة وتوسط له هو حمد نفسه.

• • •

كيف ستكون خيبة حمد عندما يعلم أنني أنجبت له بنتاً، هذا هو أول ما خطر لحصة عندما أبلغتها الداية بنوع المولود، بينما خرست الزغاريد في فم النسوة اللواتي كن يتحلقن حولها، أردفت الداية كما لو أنها تخفف عنها همومها بعد أن رأت خيبتها: «ولكنها جميلة»، ووافقتها جميع النسوة على ذلك، هكذا يقولون دائماً عندما تلد المرأة البنات بينما كانت تتوقع وتأمل بالصبيان.

سرعان ما وصل الخبر إلى حمد الذي كان يترقب ذلك بقلق في المجلس، وعلى عكس ما توقع الجميع انفرجت أساريره:

- يه، بنت؟، هاذي بشارة ورزق.

ولم يُخيب آمال أحد:

- يا الربع غداكم عندي باكر.

حين هدأت الجلبة في البيت وانصرف الجميع ذهب حمد إلى حجرة زوجته حصة التي بردت جميع مخاوفها دفعة واحدة ساعة رأت بسمة البشر والرضى على وجه حمد الذي كشف عن وجه البنت التي كانت جميلة فعلاً وتنضج بالعافية وطبع قبلة رقيقة على جبهتها:

- الحمد لله على السلامة يا حصة، ياام الخير.

- الله يسلمك.

- ما شاء الله بنية حلوة، تدرين؟، باسمّيها على اسم أمي الله يرحمها، سارة، شرايج؟

- الرأي والشور لك.

- تفضلي هديتج..!

أعطاها حمد المصاغ الثمين الذي جلبه لها ووضعه تحت وسادتها، لكن الشكوك راودتها فيما إذا كان يفتعل السرور من أجل تطييب خاطرها أم أنه مسرور فعلاً..

- يعني ما انت زعلان لأني يبت لك بنت؟

- زعلان؟ تقولين زعلان!! أحد يزعل من عطايا رب العالمين، أمي الله يرحمها يوم يابت أختي البكر موزة تمت زعلانة حتى يابتني أنا، عقبها فرحت واعترفت إنها كانت غلطانة.

تضحك حصة رغم آلامها، ويستطرد حمد بجدية:

- البنية رزق من الله، ويمديج تربين لنا ولد واثنين إن شاء الله.

- يا رب..

لم يتوانَ خالد عندما سمع بالخبر عن تجهيز الخرفان والعيش لإرسالها إلى بيت حمد، فخالد يحتمل كل شيء إلا ديون حمد، ولم يفت حمد أن يعاتب خالداً على

ذلك:

- كلفت على نفسك يا بو حسين.

- ما فيه كلافة، هذا الواجب، أنت بعد ما قصرت يوم الله رزقني بولدي حسين.

تبسم له حمد وهو يربت على كتفه، لكنه كان يشعر ضمناً أن أحداً يجب أن لا يساويه بعد الآن في الديرة حتى في تقديم الواجب، كان خالد من النوع الذي ترتسم فوراً جميع أحاسيسه على وجهه، بينما حمد يختفي كل شيء وراء بسمته الغامضة.

تحت الرماد

جلس المطوع إلى جانب أبي حسين، بينما راح حفيده سليم ولد محمد يلعب أمامهما إلى جانب السدرة، لم يكن المطوع ليستطيع رغم همومه أن يمنع نفسه من الضحك حين يعود أبو حسين لطرح مشكلته الصعبة، وهذا الصباح كان أبو حسين أكثر إلحاحاً:

- أقول بو جاسم!.

- شعندك بعد..؟

ويبدو أن أبا حسين قد خطط لكلامه مسبقاً:

- شرايك تقول حق ولدي محمد عن مشكلتي، يمكن يقتنع معاك؟

- أنا أقول حق ولدك محمد؟، ليش يا بو حسين، ما عندك لسان؟

- لا شلون ما عندي لسان، بس يعني استحي، أنت تدري ما لي بالعادة أتكلم معاه في هالموضوع، يمكن ما يقدّر.

ينفخ المطوع الهواء من صدره ضجراً ومتبرماً، لكن أبا حسين يلحظه فيقطع عليه الطريق للاعتراض وقد ازداد غيظاً:

- عاد جوف يا بو جاسم، نصايحك خلها حق العقال اللي مثلك، أنا مينون وأبغي مره عورا، عريا، صمخا، أبي مرة، واللي أبغيه منك تساعدني، تكفى يا بو جاسم، أنا بو حسين ما يهون عليك تتخلى عني.

لم يدرِ المطوع كيف يجيبه، فرغم عطفه عليه إلا أن الضحكات المتفجرة مع كل كلمة من كلماته لم تترك له مجالاً كي يكون جدياً، ويلتفت له أبو حسين وقد ازداد غيظاً:

- تدري يا بو جاسم، حتى أنت أحس إنك اتّشمت فيني، لكن هين.

يحاول أبو جاسم إرضاءه:

- خلاص يا بو حسين، أنا بكلم ولدك محمد لين لاقيته.

ينتبه أبو جاسم إلى أنه نسي أمراً مهماً:

- بس ما قلت لي، ليش ما تبغي أكلم بعد ولدك صلاح؟

يتهرب أبو حسين من مواجهة المطوع حتى لا يثيره بلا مبالاته بالأمر، فهو عندما يكسب محمداً إلى جانبه لن يهتم بصلاح:

- صلاح؟، اي نكلمه عقب، شصاير، بصراحة أنا زعلان عليه ولا أطيق أجوف رقعة ويهه لأنه سوّد ويهي في الشركة، وبعد يغار من أخوه محمد ولا يبي له الخير.

يهز رأسه المطوع أسفاً، فكل شيء يمكن أن يتغير في هذا الفريج إلا رأس أبي حسين اليابس:

- أنا ما ابغي أتكلم حتى لا تزعل يا بو حسين..!

- الحين احنا وين ولّا وين، إحنا في مشكلة ولدي صلاح ولّا في مشكلتي؟

فجأة يقطع عليهما هذا الحوار الساخن صوت محمد الطفولي الصارخ حفيد أبي جاسم، يلتفت إليه المطوع بخوف ليراه يجري نحوه، ويدرك المطوع أن ما يخشاه منذ زمن بعيد قد حدث، فينادي عليه قبل أن يصل إليه:

- شفيك يا محمد، شفيك يا ولدي؟.

ويجيبه بصوته الباكي:

- الحق جدتي أم جاسم في البيت!

يقفز أبو جاسم بينما يجري أمامه محمد راجعاً إلى البيت، أما أبو حسين فقد عقد لسانه الخوف، وراحت أنفاس أبي جاسم اللاهثة تسبق خطواته إلى البيت،

وعند باب الحجرة وجد فاطمة والدموع تملأ عينيها، أخذت بين ذراعيها محمداً الذي يبكي بحرقة، وبلهفة يسألها أبو جاسم:

- شفيها أم جاسم يا فاطمة؟

- تبي تشوفك.

- زين اخذي محمد معاج برع.

يدخل أبو جاسم الحجرة ويجلس إلى جانب زوجته التي كان واضحاً أنها في طور الاحتضار، كأنما كانت تمسك بقية من أنفاسها لتودعه بها، بينما راح صدرها يعلو ويهبط وقد تحولت نظراتها إلى جهة ليست في المكان، أمسك بيدها الباردة وبصوت تخنقه العبرة ويملؤه التوسل:

- استعيني بالله يا أم جاسم.

ويسمع صوتها الواهن وهو يجاهد كي يصل إلى أسماعه:

- بو جاسم، فيه كلمتين أبغي أقولهم لك ما قد مرة قلتهم جدامك.

ويستحثها أبو جاسم:

- قولي يا أم جاسم.

- يشهد الله عليّ انك عزيتني وكرمتني، وباسلّم أمري لرب العالمين وأنا راضية عنك، وصيتك ولدي محمد، محمد أبيك.. أبيك...

وضاع صوتها، بينما اتسعت عيناها، وكأنما كان المطوع يخفي دموعه الساخنة حتى اللحظة التي لم تعد تراه فيها، فراحت تجري كالحريق على خديه، بينما صوته يمسك الكلمات بصعوبة:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، الله يرحمج يا أم جاسم.

البحر من جديد

تعود الطفل حسين أن يلحق أباه خالداً في نزهته اليومية قبل الغروب على شاطئ البحر القريب، كان ناعماً ونظيفاً، لذلك لم يكن خالد يخشى على حسين عند العبث والنوم عليه بعدما يتعب من المشي، وكثيراً ما كان أبوه يستحثه على اللحاق به بعد أن يسبقه بمسافة غير قليلة، لم تكن تنقص الصبي الصغير الهمة أبداً، فعند أول إشارة من أبيه خالد كان يصل إليه مشفوعاً بأنفاسه اللاهثة.

أصبح حسين الآن في الخامسة من عمره، الشقاوة ترتسم دائماً على حركاته وعينيه اللتين لا تهدآن في وجهه الضاحك، فدائماً ما كانتا تطاردان شيئاً فيما حوله، ودائماً ما كانت حيويته مصدر إزعاج لجدته أم خالد التي لا تستطيع أن تضمنه في مكان، فهي لم تعد قادرة على الجري خلفه ومتابعته، كانت تخشى عليه من كل شيء، ويتعلق قلبها بكل صوت يصدره، أما أمه نورة فتعتقد أن الاهتمام الزائد بحسين وتدليله قد خربه، وعليها دائماً تقع المسؤولية الأخيرة في ضبطه ورعايته وتحمل مشاكله، إن العفاريت لا تستطيع أن تطارده دون أن تتعب أخيراً، والأدهى بالنسبة إليها هي أنها لا تستطيع أن تؤدبه أمام جدته أو أبيه، كأنهما لا يثقان بها، كان الطفل حسين متعلقاً بأبيه تعلقاً شديداً، رغم أن خالداً لم يكن يدلله كثيراً، بل كان يعامله بجدية وبندية أحياناً، وربما كان غياب الأب عن البيت أغلب النهار في العمل هو الذي كان يدفع الطفل للتعلق بموعد رجوع أبيه، حتى أنه كان ينتظر موعد قدومه عند الباب كالكلب الوفي ليأخذ عنه الحقيبة التي يضع فيها لوازمه، يحملها مكابراً على نفسه بعناد طفولي دون أن يعترف بأنها ثقيلة عليه، كل ذلك من أجل أن يفتحها بنفسه ويعبث منبهراً بالمفاتيح الخاصة التي بداخلها، ربما أيضاً لأن أباه هو الوحيد الذي يأخذه معه إلى شاطئ البحر ليجري على هواه دون أن يصطدم بحائط أو يقلب غرضاً ثميناً، بينما كانت غاية أبيه الحقيقية أن يجعله يتعب إثر هذه النزهة حتى يرجع إلى البيت والنعاس يثقل جفونه، وربما كان متعلقاً بأبيه لصبره على أسئلته التي لا تنتهي، لكن

الأهم هو تلك القصة الساحرة التي كان يرويها خالد لولده، لم يكن يفهم منها شيئاً سوى أن هناك صبياً كان يعشق البحر ويتمنى دائماً أن يسافر فيه، وطال الزمان وهو ينتظر السفينة التي تحمله فوق أمواجه، لكنه كان يزداد خشية منه، وعندما وصلت السفينة وأصبحت قريبة منه لم يجرؤ على ركوبها لخوفه من البحر، فراح ينتظر مرة أخرى أن يذهب عنه الخوف وهو يمشي كل يوم على شاطئ البحر.

كان حسين يتصور أن هذه القصة تزداد يوماً بعد يوم ولا تنتهي أبداً، لأن أباه دائماً كان يعيد هذه القصة على مسامعه وقد ازدادت وتشبعت بأحداث جديدة، وكان حسين يذهب في اليوم التالي ليقصها على سارة ابنة حمد التي تفاخره دائماً بأبيها حين يستريحان تحت ظل السدرة بعد أن يتعبا من اللعب مع الأولاد الآخرين، كانت سارة بدورها تقص عليه كيف أن أباها حمد سافر وعبر البحار على سفينته، وكيف نجا من الموت بعد أن تكسرت السفينة، ليذهب كل منهما بعد ذلك إلى أبيه يستزيده من هذه القصص، ورغم أن سارة التي تصغر خالداً بشهور قليلة تتباهى دائماً أمامه بألبستها الجميلة وتشاكسه في كل شيء، لكنها لا تطيق أن تراه «زعلاناً عليها»، فتراها تداهنه وتراضيه بشتى السبل التي تبتكرها طفولتها البريئة.

بعد العشاء جلس خالد مع أمه وزوجته على المصطبة، بينما راح حسين يغط في نوع عميق إلى جانب أبيه، يمسح خالد بكفه وجه حسين وهو يهز رأسه، وحالما تذهب نورة لجلب الشاي يلتفت خالد إلى أمه:

- تدرين يا يمه، اليوم سألني ولدي حسين سؤال ما قدرت أجاوبه عليه.

- شنهو هالسؤال؟

- سألني عن البحر يمه، قال لي شكثر سافرت فيه؟

وبخيبة أمل واضحة تنظر إليه الأم:

- فكرت عندك سالفة غير، عاد هذا هم تشيله؟!.

- بالنسبة لي هاذيه هم كبير.

- شدعوى!

- يمه..! الأبو يتضايق إذا ما قدر يجاوب ولده على السؤال اللي يبغيه، والولد ما يسامح أبوه.

وكمن اكتشفت مغزى كلامه، هزت رأسها:

- شقصدك من هالكلام ذي؟ تبي تقول إني أنا أخطيت يوم اني منعتك عن البحر؟

- خلاص يمه، شالفايدة الحين؟

- يا وليدي لو كنت تدري بقلبي ذيك الأيام كان فهمت خوفي عليك.

- أنا مقدّر يمه، لأني عشت والخوف جدامي وين ما أروح.

تصل نورة وهي تحمل صينية الشاي مع الدلة فتقطع حوارهما، وتقول لها الأم وقد انتبهت نورة لهما:

- سويتي خير بيَيتك وفكيتينا، ولا كان بنتهاوش.

يلتفت خالد لأمه معاتباً:

- يمه!.

لكن نورة تهز رأسها كأنها ضائعة بينهما:

- اللي محيرني إني ما أفتهم لكم موليّه.

تحاول نورة أن تحمل حسيناً إلى الحجرة، لكن خالداً يستوقفها:

- لا خليه أنا بشيله عنج لما أروح الحجرة، ما تشوفين انه ثقيل عليج؟

تبتسم نورة التي كانت حاملاً في الشهر الرابع وتجلس إلى جانبهما، وتشير إليها

الأم:

- يبي لنا هالمرة صبي عاقل يسمع كلامي ولا يناحسني.

يضحكون لإشارتها، بينما تعقب نورة:

- يناحسج انتي وبس؟، محد في الفريج إلا ويشتكي من حسين، وخاصة المطوع.

لكن أم خالد لديها ما تفخر به:

- ما شاء الله عليه، يوم شافني حمد قال لي انه عيز في وليدي حسين يبغيه ياخذ منه فلوس ما قبل، تصدقون كان متضايق، قال لي شمعنات كل يهّال الفريج يتراكضون وراي يبون فلوس إلا حسين؟

ويبدو الاعتزاز على وجه خالد الذي لا يعلق بشيء، لأنه اكتشف أن حسيناً يسمع كلامه تماماً ولا يخالفه في شيء حتى في غيابه:

- تدرين يمه، أنا باودي حسين المدرسة اليديده مالت الحكومة، يقولون إنهم يفتحونها السنة اليايه..!

وبإنكار تلتفت له أم خالد:

- مدرسة الحكومة؟، شيسوي هناك؟، المطوع أبرك له، وغير جذي يعرفنا ويدير باله على الصبي علشان يختم عنده القرآن.

يشرح خالد ما سمعه عن المدرسة الحكومية الجديدة التي ستنشأ على أحدث الأساليب، وأنها لا تكتفي بتدريس العلوم الشرعية، بل تأخذ التلاميذ إلى عالم أرحب، فتدرسهم التاريخ والجغرافيا والحساب، ثم إن الطالب فيها ينجح من سنة لأخرى، وكل سنة يتعلم علوماً جديدة، يقولون إنهم سيضعون باصات خاصة لنقل الطلاب، ويعطونهم مكافأة مالية تشجيعاً لهم على مواصلة الدراسة، كانت المسألة الأهم في نظر خالد أنه أدرك أن هذه المدرسة هي الطريق الوحيد لكي يصبح ابنه في المستقبل

مهندساً للميكانيك، ولا تستطيع الأم ولا نورة أن تمسكا بمعنى هذه الكلمة، لكن خالداً الذي خبر معنى هذه الكلمة من خلال عمله يأخذ في تبسيطها:

– تدرين يا يمه شمعنات مهندس؟، يعني أستاذ، وهو يعطي الأمر والعمال تنفذ أمره، ثيابه نظيفة والناس تحترمه وتقدره وين ما راح.

وتشعر أم خالد بالنعاس بعد أن صعبت عليها الكلمات والحديث عن المستقبل البعيد وتنهض لتنام، بينما يأخذ خالد ولده بين ذراعيه وقد سبقته الأماني إلى ذلك اليوم الذي يرى فيه ولده حسيناً مهندساً.

دولاب الأيام

- صار لي خمس سنين من أدش البيت أشوفه خالي يا أم جاسم، وينج الحين تطالعين الفريج شلون استوى، يمكن ما تعرفينه، يابوا لنا الكهربا والماي، والحين أنا ركّبت في الميلس بانكه[1] تشتغل على الكهربا عن الحر، تصدقين ما تم عندي ولا ياهل، كلهم راحوا مدرسة الحكومة الجديدة، الجليب اللي ما غيره ردموه، والشارع كله تغير، والناس قامت قومه على البنيان، كلهم يبنون بالاسمنت، تدرين اليص أخير وأزين بعد..

ينتبه المطوع لصوت الباب يفتح، يدخل خالد إلى حيث يجلس المطوع ويحب رأسه:

- شلونك يا عمي الحين..؟

- الله يبارك فيه يا ولدي، الحمد لله بخير، شوفني..!

ويبتسم له خالد وهو يتمعنه:

- تمام يا عمي.

- إلا أشوفك اليوم مهب في الشغل مثل العادة؟

- خلاص يا عمي هوّنت عن الشغل.

- خير يا ولدي، عسى ما شر؟

- لا بس بغيت أشتغل بروحي من اليوم وساير.

- وشللي ناوي عليه؟

- الحين فيه مشروع كراج وتصليح سيارات وبيع قطع غيار لها، تعاقدت مع عمال هنود وعرب علشان يقومون بالعمل وأنا بشرف عليهم، وفيه بعد مشروع محطة

---

(١) بانكه: مروحة.

بترول.

- والله زين، السياييير كثرت في البلد، أذتنا من دوشتها، صار الواحد يخاف يقطع الشارع.

- كل شيء تغير يا عمي، هذا حال الدينا.

- نعم وكاد.

- إلا ما قلت لي، شخبار محمد الحين؟

يتنهد المطوع وهو يسمع ذكر ولده محمد ويلتفت لجهة أخرى وهو يهز رأسه:

- والله شاقول لك، أنا محتار معاه، محمد الحين استوى ريّال، لكن أنت تدري عنه، حسينوه ولدك يضحك عليه، خايف أموت وأتركه بروحه لا يعرف حرفة ولا عنده علم، واللي ذاخره عندي ما ييزّيه من شهر، وداه خاله محمد ولد بو حسين معاه الدكان علشان يخدم ويتعلم حرفة الصياغة، لكن الظاهر ما فيه فايدة، وصياغة الذهب تبي لها واحد مخصوص، وأنا ما أبغيه يخدم في الدكان وبس.

يفكر خالد قليلاً، ثم يلتفت للمطوع:

- شرايك أوديه عندي أعلمه تصليح السيارات؟ يمكن ينفع فيها.

- يا ليت يا ولدي، تسوي فيه خير، وأنا ما أنسى لك هالمعروف وبادعي لك بالليل والنهار.

- شدعوه يا عمي، محمد حسبة أخوي الصغير وأنا باشرف عليه بنفسي.

- خلاص ودّه معاك لين رحت تشتغل في هالمشروع.

- لا، بس على شرط يا عمي.

- في شرط بعد؟

- عيل شلون؟

- شنهو؟!

- تغدّى عندنا اليوم.

يضحك المطوع وقد فاجأه خالد:

- يا زين هالشرط، لكن شرايك نزور بو حسين قبل الغدا، مسكين المرض زايد عليه هالأيام.

- اي شعليه، صار لي مدة ما شفته، بس صج ما يقبل يروح المستشفى؟

- كل شيّ يمرض في بو حسين من غير راسه بيتم يابس، عبّاله للحين هو أحسن دكتور في هالبلاد، ومن مرض وهو قاعد يوصف حق نفسه أدوية ويبلعها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم يعد أبو حسين ذلك الرجل الذي يشعر أنه قادر على الزواج من نساء الديرة كلها، تغير كثيراً في الفترة الأخيرة بعد فترة من صحوة الشباب التي استيقظت فيه وهو في طريق النهاية، لم يعد يفاتح المطوع بصراحة عن حاجته كما كان يفعل من قبل، بل لم يعد يشغله هذا الأمر كلية بعد أن أصابه هوس جديد يتمثل في خوفه على صحته المنهارة، لكن المشكلة هي أنه لا يثق بأحد في هذا الشأن مثلما يثق بنفسه وبأدويته، فعدا عن التراكيب الشعبية المعروفة التي كان أفضلها بالنسبة إليه ما يسميه «السبع الموصوفات»، استطاع أن يكون عصرياً في أدويته بعد أن تعرف على المشروبات الغازية التي دخلت البلاد واستساغها كثيراً، فعندما يحس بتوعك ناتج عن سخونة يتناول «الغرشة»[1] الصفراء، أما عندما يشعر بدوار الرأس فالغرشة الحمراء هي أفضل دواء، وكان يجد مبرراً أمام المطوع والآخرين حين تفشل أدويته في علاجه، لا بد أن

(١) الغرشة: الزجاجة.

عيناً لم تُصلِّ على النبي هي التي أصابته، أخيراً بدأت ذاكرته تنضب رويداً رويداً، وقلت أحاديثه وتعليقاته، وصار يخطئ في تركيب الأدوية، فأدرك الجميع أن أبا حسين قد أصابه الخرف، لكنه كان يصحو بين الفينة والأخرى، كأنما لا يريد الاستسلام لأمواج البحر التي بدأت تسحبه بقوة إلى أعماقها، أخيراً وكبادرة لليأس استسلم لرأي الجميع، وبالأخص ولده محمد، لكي يذهب إلى المستشفى.

هناك في المستشفى وجد نفسه مع آخرين في الحجرة، لم يدرك أن هذه الحجرة ستكون مأواه من هنا فصاعداً بعد أن ضجروا منه في البيت وصارت خدمته تكلفهم فوق ما يتحملون من الصبر، هناك في المستشفى خرس لسانه تماماً وبدا كأنه لا يسمع شيئاً، واستسلم للحقن والأمصال المختلفة دون أن تبدو منه بادرة اعتراض، لكن الشيء الذي لم يخبُ فيه هو بريق عينيه الذي كان يزداد تألقاً حين تعبر إحدى الممرضات من أمامه.

لم يستطع أحد أن يقنع خميساً أن سبب تسريحه من الشركة هو كبره في السن، لقد رأى كثيرين أكبر منه يأتون بشهادات تجعلهم في مقتبل الشباب، فما معنى أن لا تقبل منه هذه الشهادة التي كان من الميسور استخراجها، صحيح أنه تأخر قليلاً بها، لكنها الآن في جيبه، بينما استطاع الآخرون أن يستصدروها لأنفسهم ويضعوها في ملفاتهم قبل صدور قائمة المسرحين.

لا بد أن صهره خالداً كان وراء هذه الحكاية لما له من نفوذ في الشركة، أي نفوذ؟، لو أن أحداً جاءه يطلب عونه في قضية لأنكر خالد أن له نفوذاً فيها، الجميع يعلم ذلك، أين هو من حمد الذي مع أنه لا يعمل في الشركة يتدخل من أجل كل صغيرة أو كبيرة تخص أولاد ديرته، فخالد لم يتذكر نفوذه وعلاقاته بالشركة إلا عندما كان الأمر يخص تسريح عمه خميس، أي نعم!، أنا عمه، أليس هو زوج ابنتي، ولماذا أعتب عليه؟، لقد مات عمه أبو محمد ولم يدخل بيته.

جلس خميس يحسب تعويضه الذي أخذه من الشركة ويلتفت إلى بذلة العمل التي لن يلبسها بعد الآن، قالوا لي لو أنني بقيت في الشركة لزاد راتبي ونلت مكافآت وصار تعويضي أكبر من هذا المبلغ، ماذا أفعل الآن؟ سأجلس في البيت ويقف الجميع حراساً على لساني وتصرفاتي، كلهم لا يقبلون أن أتكلم كلمة واحدة ضد خالد، كأنني زوّجته ابنتي لأصير له عبداً، إنه يتضايق حتى من زيارتي بيتهم حين يكون موجوداً، صحيح أنه لا يقول ذلك أمامي، لكن قلبي يحس به، إن عينيه تشتعلان ناراً عندما يراني، يا ليتني ما زوجته ابنتي، ماذا جنيت من وراء ذلك غير التعب؟، لكن بسيطة، عناداً له لن أجلس في البيت، سأفتح محلاً للتجارة، لن أسلم من التعويض فلساً واحداً لزوجتي، تعتقد أنني سأضيعه كما أقنعها خالد، أدري أنهم كلهم ضدي.

خالد ليس أحسن مني حتى يفتح ورشة لتصليح السيارات، أنا أيضاً سأفتح ورشة للنجارة، وإذا لم يكفني التعويض سأستدين من حمد عناداً في خالد وأجعله يشاركني في المحل، حمد أصيل لن يخيب ظني ولا ينسى خدمتي له، أكيد سيجلب لي عمالاً بواسطته يساعدونني في العمل، وسأريه أنني لست كبيراً في السن ليمنعني ذلك من العمل، أما خالد فيمين الله لن أدخل بيته عندما يكون موجوداً فيه ولن أكلمه بعد الآن.

قبل المغرب ذهب خميس إلى بيت حمد ومعه التعويض قبل أن ترجع زوجته من عند ابنتها نورة وتطالبه بأن يسلمها إياه، سيضعها تحت الأمر الواقع، وفعلاً فوجئ حمد ذلك المساء بخميس يضع ذلك المبلغ بين يديه دون مقدمات..

- خير يا خميس، شنهي هالفلوس ذي؟

- هذا الله يسلمك تعويض من الشركة.

- الظاهر أنا لي ديون عليك وتبغي توفيني ياها!

وببداهة يجيبه خميس:

- أنا لو عشت عمري كله ما أوفيك ديونك يا حمد، ومعروفك عليّ ما أنساه ما دمت حي.

- اللّه يبارك فيك يا خميس، احنا إخوان وما في بيننا ديون وأنا مستعد.

- تسلم.

وبجدية يسأله حمد:

- عيل ليش الفلوس؟

- أبغيك تشيلها لي أمانة.

ويستغرب حمد:

- أمانة؟، ليش ما تسلمها حق خالد نسيبك؟

ويبدو خميس كمن لسعته عقرب:

- نسيبي خالد؟، لا لا، ما أأمنه عليها لأنه بيعطيها ثاني يوم حق زوجتي.

ويضحك حمد بانشراح ويعود إلى سؤاله:

- وشللي ناوي عليه يا خميس؟

ويعتدل خميس في جلسته:

- أبغي اللّه يسلمك تعاونّي أفتح ورشة نجارة، والمقسوم بينّا يميع، انت تدري اني من زمان اشتغل هالشغلة، بس يمكن الفلوس ما تيزّي علشان الورشة.

ويبدو على حمد الإعجاب بحماسة خميس، وربما أعجبه أكثر أن يأتي إليه من دون الناس:

- أنا أعرفك أستاذ في هالشغلة، لكن النجارة هالأيام صارت غير، تبي لها مكاين على الكهربا.

- نيبب عمال واللي يسلمك يشتغلون في الورشة، وأنا تعلمت على الكهربا في الشركة، ها شقلت؟

ودون أن يتكلم حمد يبتسم له ويشير بإصبعه على أنفه، فما كان من خميس إلا أن نهض بانفعال عفوي وقبله عليه.

الغريمان

جاءت سارة تتهادى بثوبها الجميل إلى حيث يلعب الأطفال تحت السدرة، عندما رآها حسين ترك اللعب مع الأطفال ليقف لها مترصداً كأنما يحمل في جعبة صدره الصغيرة ما يقوله لها بافتخار:

- سارة، تدرين أنا يدّي كان نوخذة وطواش بعد، وأبوج بنفسه كان يشتغل عنده!.

وتنبري له بحماس وغيظ:

- لا، مب صحيح هالكلام، أبوي كان يشتغل بروحه.

ويضحك منها وقد ملأته الثقة:

- إذا ما تصدقين روحي اسألي أبوج وهو يعلمج بالسالفة.

ويأبى عليها غرورها الطفولي أن تكمل حديثها مع حسين، تذهب عنه لتلعب مع الآخرين، لكن رأسها الصغير كان مشغولاً بما قاله لها حسين، صارت تتحاشاه حتى لا تضطر إلى سماع المزيد، وكانت ممتلئة غيظاً، لا بد أن أرد عليه بعد أن أسأل أبي بنفسي عن القصة، لا يمكن أن يكون أبي حمد كما قال حسين.

تسللت منصرفة إلى بيتها، بينما كانت عينا حسين تتابعانها بخبث، ولم تحاول النظر إليه.

يستغرب حمد عندما يرى ابنته المدللة سارة تجلس منطوية على نفسها والهم يملأ قلبها الصغير على غير العادة، يقترب منها ويجلس إلى جانبها وهو يتابعها بعينيه الذكيتين:

- ها ساروه[1]، شفيج؟، منهو زعّلج؟

---

(١) ساروه: تدليل اسم سارة.

وتجيبه ببراءة فيها الكثير من الشكوى:

- حسين.

- حسينوه، شقال لج؟

- قال لي إن يدّه كان نوخذة وطواش، وانت نفسك كنت تشتغل عنده، وقال لي سِئلي أبوج وهو يعلمج السالفة.

يستغرب حمد أن يصدر عن حسين مثل هذا الكلام، ترى من الذي أخبره بذلك؟، وينتبه من شروده إلى ابنته تسأله بإلحاح، فيدافع عن نفسه بطريقة لا تخلو من الطفولة:

- وانتي تصدقين كلام حسينوه؟!، هذي كذاب يبغي الفتنة، لكني باراويه، سمعي سمعي ساروه..

- نعم يبه.

- قولي له إن يدك الثاني خماسوه[1] كان يشتغل صباب قهوة عند أبوي.

تطير سارة من الفرح وهي تسمع هذه الكلمات التي قلبت الموقف تماماً، وفي عصر اليوم التالي تذهب إلى حيث يتجمع أطفال الفريج عند السدرة لتفاجئ حسيناً بهذا الخبر الذي لم يتوقعه، كانت ضحكات سارة الرنانة تُشعل النار في رأسه الصغير، ولم يجد ما يجيبها به غير أن يحلف أمامها بأنه لن يكلمها ثانية أبداً.

لكنه بعد أيام كان لديه خبر يخصه هذه المرة ومن الواجب أن تعرفه سارة، راح يتمشى مع صديقه سالم بينما كانت سارة تجلس على رمال الشاطئ متشاغلة عنه بتجميع الرمل كيفما اتفق لها، أما أذناها فكانتا معه حيث يذهب، يقترب حسين مع سالم منها ويرفع صوته متعمداً أن تسمعه:

- سالم، أنا نجحت في الصف الثاني.

---

(١) خماسوه: تصغير وتحقير اسم خميس.

يبدو أن الصف الثاني شيء مهم حتى يفتخر به حسين أمامي، لكن أبي قال لي إنني سأدخل المدرسة العام القادم في الصف الأول، لماذا لا يضعني أبي في الصف الثاني مباشرة حتى لا يشمخ حسين بأنفه أمامي هكذا، لكن هذا الأمر تبخر من رأسها عندما أُخذت بسحر الطائرة ا لكبيرة وهي تركبها لأول مرة في حياتها مرافقة أباها وأمها إلى لبنان، عندما عادت إلى الفريج بعد شهر من الزمان وجدت جميع الأطفال متلهفين لسماع أخبار الرحلة بالطائرة، تلك التي تعادل في حجمها ذلك «البوم» الراسي في «النقعة»[1]، ووجد حسين نفسه مضطراً للتنازل كثيراً عن كبريائه أمام إغراء الحديث عن الطائرة العجيبة.

في بداية العام دخلت سارة المدرسة في الصف الأول بعد أن أقنعها أبوها بأنها إذا اجتهدت وكانت مؤدبة في المدرسة سوف تلحق بحسين وتسبقه أيضاً، وبدأ التنافس البريء بين سارة وحسين على مستوى الدراسة، سارة تحاول أن تلحق بحسين، بينما هو يتقدم إلى الأمام ناظراً إلى الخلف حتى يطمئن إلى أن سارة ما زالت بعيدة عنه.

• • •

أخذ خالد أمه إلى المستشفى لزيارة الطبيب، وتبين أنها تعاني من بعض المشاكل في كبدها، كتب لها الطبيب بعض العلاجات المناسبة ونصحها بالحمية والامتناع عن بعض الأطعمة التي تسبب لها المشاكل، حين عاد خالد مع أمه بالسيارة من المستشفى خطر لها أن تعرج لزيارة ابنتها، فتركها خالد عندها بعد أن سلم على أخته ليرجع إليها فيما بعد.

عاتبت الأم ابنتها كثيراً لأنها ما زالت، رغم أن لها أطفالاً ثلاثة وآخر على الطريق، تحمل عقلية طفل يحتاج إلى الرعاية من أمه، ما زالت «هنّود» لا تهتم إلا

---

(١) النقعة: الميناء الصغير.

بعزلتها ولا تخرج من بيتها إلا إذا أجبرها زوجها على ذلك، تحولت من فتاة صغيرة تهتم بألعابها في حجرتها طوال النهار إلى امرأة تقطع أوقاتها بين أطفالها دون أن تكترث لأحد آخر، فهي تارة تضفر شعر ابنتها وأخرى تتركه سابلاً، تعيد ذلك مرات في اليوم دون أي موجب لذلك، ومرات تمسك ولدها الصغير من غسيل إلى قص شعر إلى قص أظافر، وتأخذ في استعراض ملابسه عليه، تلبسه وتخلع عنه الملابس دون أن يستقر ذوقها على لباس طوال النهار، وكأنما ألعابها القديمة قد تغيرت مع الزمن وصارت تنبض بالحياة.

لم يخفِ زوجها شكواه منها، وكان أمام أمها يشكو بلهجة من يخاف عليها من العزلة التي تعيشها، لكنه في الواقع كان يشكو منها لأنها لا تهتم به ولا تبادر بشيء إلا إذا طلب منها، كان طيب القلب لا يدفعه إلى الشكوى والاحتجاج إلا ما سمعه مرات ومرات من الانتقادات اللاسعة لشخصيتها من أهله، وأقل تلك الانتقادات أنها امرأة «هبلة» مسكينة، وكانت الأم تعي كل ذلك وهي تستمع إلى زوج ابنتها الشاكي، كانت تعلم ضمناً أن ابنتها لولا زوجها لما زارت أهلها ولما خرجت حتى إلى فناء البيت.

راح خالد يستمع إلى أمه دون أن ينطق بكلمة واحدة، فقد تعود أن لا يتدخل في أمر لا يستطيع فيه شيئاً، وكان ذلك يزيده هماً على هم، وكأنما كانت أمه تنتظر منه أن يشاركها الكلام، لكنه أوحى لها بأنه يجب عليه أن يهتم بالطريق حتى لا تنحرف السيارة أو تصطدم بشيء، خصوصاً أن أنظمة المرور في تلك الأيام بدائية وتخضع كثيراً لمزاج السائقين.

كانت أم خالد ترضى ضمناً عن سلبية ولدها خالد تجاه الآخرين ما دام مردودها النهائي سيكون ارتباطه وزيادة تعلقه بها، حتى أنه لا يستطيع شيئاً دون أن يتصور أنها تقف إلى جانبه وتسانده، طالما حاول أن يبعد تأثيرها عنه ويهرب منها، لكن الفشل كان مصيره عند أول امتحان، كم كان قلقاً وخائفاً لمرضها، يرعبه أن تتركه فجأة وحيداً، حتى إيمانه بقدر الله لا يسانده إلا في رحيل الآخرين عنه، أما أمه فهذا

أمر لا يستطيع أن يتصوره، ويحاول أن يبعد دائماً هذه الفكرة عن رأسه لخوفه من مجرد التفكير بها، حذره الطبيب من نكسة المرض عليها، خصوصاً أنها في سن لا تسمح لها بالمقاومة.

كان هذا هو شاغله الوحيد، أن يحرس أمه، حرم على زوجته أن تطبخ أي طعام يمكن أن يسبب الضرر لها، فأهون عليه أن يصوم البيت عن جميع الأطعمة من أن يرى أمه تضطر لأن تأكل بعيدة عنهم طعامها الخاص، لم يبالِ بمضايقة الجميع ضمناً وتعكير مزاجهم، فعلى زوجته إذا اشتهت طعاماً خاصاً أن تأكله في بيت أهلها.

أما أم خالد فكانت بين فترة وأخرى تجرب ولاء ابنها، فتسأله بافتعال أنها تخشى أن تكون سببت لهم إزعاجاً، لكنها كانت تعرف تماماً كيف سيجيبها ولدها، وذلك كان يجعلها أكثر رضى وطمأنينة، وهكذا أصبحت أم خالد كما كانت دائماً، ملكة متوجة، وبدأت تكتشف مع الأيام أن هناك شخصاً واحداً في البيت يقدر دائماً على النفاذ من طوقها، بل وعصيان أوامرها دون أن تقدر حتى على الغضب منه، ألا وهو حسين الذي أصبح في العاشرة من عمره الآن، ولسبب لا تدركه تماماً كانت تشعر بالضعف أمامه، دون أن تتنازل عن ملمح السيادة الجاد في وجهها.

كان من أمتع أوقاتها عندما يأخذ حسين في قراءة القصص لها من كتبه الدراسية، لكن المشكلة العويصة كانت عندما يمازحها كعادته ويطلب منها أن تحفظ قاعدة في النحو أو تشاركه في حل مسألة حسابية، وذلك لم يكن بلا مقابل، لأن حسيناً كان شغوفاً بالقصص ويلح على جدته لكي تروي له سوالف من الماضي، ومع أنها لم تعتد روايتها لأحد حتى ولدها خالد، وجدت نفسها ضعيفة أمام إلحاحه وشغفه بالقصص، كان يذهب إلى جده خميس لكي يشبع نهمه أكثر فأكثر بالقصص، ولم يكن خميس بطبعه بخيلاً في الحكايا، وبخاصة على حسين الذي تعلق به كثيراً، وكانت تستهوي حسين تلك القصص التي يرويها خميس عن أسفار البحر مع جده أبي خالد وأبي محمد الذي كان حسين يعرفه كالخيال، وبالطبع عرف حسين سر المشكلة بين

أبي محمد وجدته أم خالد، وكان ذلك باعثاً لخالد، الذي كان متضايقاً لتعلق ولده حسين بجده خميس، أن يجد مبرراً لإبعاد حسين عن جده، وحين عاند حسين في ذلك وجد أن أباه خالداً يحسم الأمر معه ويهدده بالضرب والتأديب، كانت تلك أول صدمة يتلقاها حسين من أبيه، ومن يومها لم يعد يهتم كثيراً بالنزهة معه على شاطئ البحر وسؤاله إياه عن قصة ذلك الإنسان الذي تمنى أن يسافر في البحر وما صار له من حكايات، حاولت جدته أم خالد أن تفهمه أن أباه يخاف عليه، يخاف على دراسته، إنه لا يكره جدك خميساً أبداً، لكنه لا يريد لك، من أجل مصلحتك، أن تتعلق به كثيراً وترافقه أمام الناس، بالتأكيد تستطيع أن تراه عندما يأتي إلينا، لكن حكاياته لن تفيدك الآن، وربما تضرك يا ولدي، نحن أدرى بمصلحتك منه، الحقيقة أن جدك خميساً لا يسمع كلام أبيك ولا يقدر وضعه بين الناس، ومن دون أن تدري أوقعت نفسها في مشكلة ليس لها حل مع حسين..

- جدي خميس ما يسمع كلام أبوي؟

- ايه.

ويسألها بعفوية:

- ليش منهو أكبر، جدي ولّا أبوي؟

وتدرك أنها تورطت معه:

- هاي الوهقة[1]، لا يا حسين، جدك أكبر.

- عيل الواجب أبوي يسمع كلامه.

ولا تجد لنفسها طريقة لكي تفهم حسيناً مشكلة جدّه خميس:

- أقول، الأحسن تسأل أبوك وهو يعلمك، بس جوف.. إن ما سمعت كلامه ترى

(١) الوهقة: الورطة.

ما أرضى عليك، فهمت؟.

يهز لها رأسه موافقاً رغم الحيرة التي استولت عليه، وجد نفسه أمام لغز ليس له حل، لأن أباه يجيب عن كل أسئلته ما عدا تلك الأسئلة التي تتعلق بجده خميس، ربما لأن خالداً كان يقدر أن ولده لن يفهم هذا الوضع الآن، لكنه في المستقبل سيعي ذلك، وعليه الآن أن يهتم بدراسته وأن يسمع كلام أبيه دون اعتراض أو حتى سؤال عن ذلك.

لم تكن أمه نورة بأقدر من جدته وأبيه على حل مشكلته عندما حاول حسين أن يستفرد بها، لأن المسكينة تعودت أن تكون مغلوبة على أمرها في هذه المشكلة، وكانت تضع في حسابها دائماً خشيتها غضب زوجها خالد أكثر من خشيتها فقدان أبيها، خصوصاً أن أمها فاطمة كانت تقف إلى جانب خالد وأصبحت بمعزل عن خميس تماماً بعد أن افتتح ورشة النجارة بمساعدة حمد.

وعندما ألح حسين على أمه وجدها تشيح بوجهها عنه، وجاءه صوتها متحشرجاً، لكنه واضح وحاسم:

- اسمع كلام أبوك يا حسين، هو أدرى بمصلحتك.

وذهب حسين خائباً تماماً بعد أن أقفلت أمه في وجهه آخر ملجأ كان يطمع فيه.

عند السدرة رأته سارة حائراً يجلس بعيداً عن الأطفال على غير عادته، وقفت إلى جانبه بعد أن أصبحا أكثر أدباً مع بعضهما من ذي قبل وتبخرت المفاخرات الطفولية والمنافسات البريئة من رأسيهما، لقد صارت سارة أكثر تقديراً لحسين عندما وجدت جميع الأطفال متأثرين به، ورأته يقف إلى جانبها في أكثر من مشكلة طفولية، تغير الاثنان وصارا أكثر حياءً، لكنهما لم يتغيرا في نشاطهما المدرسي وتفوقهما على أقرانهما، ربما كان التفوق هو الذي جمع بين سارة وحسين، ولم يكن هناك أي حاجز يمنع أحدهما من مصارحة الآخر بمشكلته..

- ابوي ما يبيني أروح حق يدي خميس.

- شالسبب؟

- شدراني؟، كل ما سألت عن السبب محد يجاوبني، أمي العودة وأبوي وأمي يخشّون عليّ.

- شدعوى، سر؟

- شدراني؟!!

في اليوم نفسه وصلت المشكلة إلى حمد عن طريق سارة التي شغلت رأسها بهذا الهم، فالأمر الذي لا يستطيع له حسين حلاً أمر ستعاني منه هي بالتأكيد، لأنه مشكلة كبيرة، استغرب حمد سؤال ابنته إياه، لكن ابتسامته الساخرة كانت تختفي وراء جديته المتكلفة:

- ذوله يا ساروه، وخصوصاً بو حسون، يفتكرون إن خميس مهب قدهم.

- شلون يعني؟

لا يذهب حمد في تعميق المسألة أكثر، بل يرد بطريقة لا تخلو من السخرية:

- يظنون إن ورشة السيارات اللي عندهم أحسن من ورشة النجارة اللي عند خميس.

وتصدق سارة ما يقوله والدها:

- هالشكل؟

- اي، عبّالهم شغلة السيارات غير عن شغلة النجارة، لكن ها، تحملي تقولين إني أنا علمتج.

ولا يتأخر الجواب كثيراً عن مسامع حسين، فقد كانت سارة حريصة على إيجاد

حل لهذه المشكلة، ويقف حسين مستغرباً ما يسمعه من سارة دون أن يستطيع التعليق، لكن شيئاً في داخله جعله يشعر أن هذا ليس كافياً، أما سارة التي تحافظ على وعدها فأوصته أن لا يخبر أحداً أنها هي التي قالت له هذا الكلام، ووافق حسين على ذلك.

في المدرسة سأل حسين أستاذه سؤالاً لم يتوقعه من تلميذه النجيب:

- أستاذ، شنهو الفرق بين شغلة تصليح السيارات وشغلة النجارة؟

ويمنع الأستاذ نفسه من الضحك بعد أن جاءه هذا السؤال المفاجئ، لكن جدية حسين في سؤاله جعلت الأستاذ يدرك أن تلميذه يعاني مشكلة ما جعلته يسأل هذا السؤال، فنبهه الأستاذ أن ينتظره في الفرصة وسيجيبه عن سؤاله حتى لا ينقطع الدرس، وعندما قرع الجرس بادره الأستاذ بالسؤال:

- حسين، أنت ليش سألت هالسؤال؟

ولا يجد حسين أمامه منفذاً ليتهرب من قول الحقيقة:

- أبوي ما يبيني أجوف يدي وأقعد معاه.

ويختلط الأمر على الأستاذ تماماً، إن حسيناً يخرّف تماماً على غير عادته، وبعد أن فكر قليلاً سأله الأستاذ:

- شنهو شغل أبوك يا حسين؟

- أبوي عنده ورشة حق تصليح السيارات.

ويتضح الأمر للأستاذ أخيراً:

- وأكيد جدك يشتغل بالنجارة؟

ويجيبه حسين بالإيجاب..

- جوف يا حسين، فيه فرق بين المهن، لكن ما في شغلة أحسن من شغلة ما دام

هم لمنفعة الناس.

- عيل ليش أبوي يمنعني عن جدي؟

ورغم تعاطف الأستاذ مع حسين، إلا أنه منع نفسه من أن يكون طرفاً في المشكلة بالإيحاء لحسين بالتصرف ضد إرادة أبيه، فلا بد أن الأب لديه ما يبرر ذلك، والأولى أن يقابل الأستاذ أبا حسين كما جرت العادة بين الأساتذة وأولياء أمور الطلاب لعله يستطيع بالتعاون مع أبيه أن يبعد هذه المشكلة نهائياً من رأس حسين، ويلتفت الأستاذ إلى حسين:

- اسمعني يا حسين، أبوك أدرى بمصلحتك ولازم تسمع كلامه، ما لك بد، فاهم؟

- فاهم.

يجيب حسين بلهجة لا تخلو من الخيبة، وينصرف إلى حيث الطلاب.

استغرب خالد عندما وصلته رسالة من المدرسة تطلب إليه الحضور، إذ أن العادة أن يذهب بنفسه للاستفسار عن دراسة حسين وانتظامه في المدرسة، وكان دائماً يخرج مطمئناً عليه، أما أن يبعثوا وراءه فهذا معناه أن هناك مشكلة ما تتعلق بحسين. أوصى أحد المشرفين ليقوم مكانه في الورشة وذهب إلى البيت بسيارته واستحم وبدل ملابسه وتوجه إلى المدرسة، صدم خالد كثيراً عندما بادره الأستاذ بالمشكلة التي تشغل رأس ولده حسين، فلم يكن يتوقع أن تصل مشكلة خاصة بأسرته إلى المدرسة، لكن الأستاذ كان لبقاً ومتفهماً، فأبعد عن ذهنه أي علاقة لولده بالمسألة حتى لا يحرضه ضده، وأخبره أن الأمر لا يعدو أنه فهم المشكلة من خلال أسئلة حسين الغريبة، ورجاه أن لا يتصرف بشكل مباشر مع حسين، لأن ولده لا يعلم بمجيئه إلى المدرسة، لكن الذي أثار استغراب الأب هو تلك المقارنة التي جاء بها حسين بين ورشة الميكانيك وورشة النجارة، ويجيبه الأستاذ:

- المهم نعالج المشكلة يا بو حسين، ولدك ذكي وله مستقبل، وهالمسألة يمكن

تضره لو تمت مبهمة جدامه، أنا نصحته إنه لازم يسمع كلامك ولو إني مب مقتنع، لكن علشان لا يتشتت الولد ويضيع، لكن أبغيك تعلمني ليش منعتوه عن جده يا بو حسين؟

ويزفر أبو حسين زفرة طويلة:

- الحقيقة المشكلة قديمة، وهي مشكلتي قبل لا تكون مشكلة ولدي حسين، وأنا عارف إني أثرت عليه، بس أنا مجبور اتصرف هالشكل.

- أبغي أعرف ليش؟!.

وهنا يصبح أبو حسين كتلة رصاص مغلقة أمام إغراء الحوار:

- ما عليه يا أستاذ، المسألة خاصة وأنا مسؤول عن تصرفي في حق ولدي حسين.

وينصرف أبو حسين من المدرسة دون أن يعي لماذا انقلب فجأة إلى رجل خشن جلف لا يقدر على التفاهم مع أحد، ورغم أنه اعتذر للأستاذ الذي فوجئ به، إلا أنه لم يستطع أن يبرر ذلك لنفسه، لماذا كتب عليه أن يحترق في هذه المشكلة، ثم لا يكتفي الحريق به، بل ها هو يمتد إلى ولده، ما ذنبي أنا بهذه القضية؟ هل كان عليّ أن أسلم بها تماماً وأتجاهل هزء الآخرين حتى أعيش مرتاحاً وكأن الأمر لا يعنيني؟.

وها أنا جابهتها ووقفت في وجهها، فما نفعني ذلك؟، كيف أفسر لولدي حسين هذه المشكلة؟، كيف أجعله يحس بمشكلتي في عمره هذا دون أن يتورط هو بالمسألة؟، لا بد أن أجد وسيلة أقنعه بها أن ما فعلت كان لصالحه، لصالح الحلم الذي أتمنى أن يحققه لي بأن يصبح مهندساً في المستقبل، وعندما يكبر ويحقق المكانة والنفوذ سوف يدرك ولدي حسين أنني لم أظلمه عندما أمرته بالابتعاد عن جدّه خميس.

• • •

بعيداً عن الأحلام

كانت الرائحة تزكم الأنوف، رائحة العفن البشري عندما يرقد بلا حراك على سرير لمدة سنوات، سنوات وقلب هذا المريض يرفض الانصياع لجسده الميت، وعيناه معلقتان في نقطة غامضة لا يعلمها إلا الله، سنوات جعلت من أقرب المقربين يقف بعيداً عند زيارته للحظات وهو يمسك أمعاءه من الشفقة الممتزجة بالقرف لرؤية ذلك الجسد المتفسخ الذي تعبث في بعض أنحائه الديدان دون أن يقدر الأطباء على فعل شيء سوى التطهير الدوري وانتظار أن يتوقف القلب أخيراً عن لهاثه وسط دوامة العتم واليأس، حتى أن أحداً من زواره لم يبخل عليه بالدعاء أن يتوقف قلبه ويرحمه الله من هذا العذاب المضني..

ترى..؟ هل كان أبو حسين يحس بشيء مما هو فيه أم أنه فقد كل إحساس وأصبح كالآلة الصامتة التي تتباطأ سرعتها بشكل ذاتي منذ سنوات وستتوقف نهائياً؟.

ذلك ما كان يتساءل به الزائرون الذي تناقصوا مع الأيام حتى اقتصروا فقط على صلاح ومحمد.

كان صلاح رقيق القلب لا يقدر على مواجهة الموقف، بل يقف بعيداً وينتحب إلى أن يبعدوه تماماً عن المكان، أما محمد فكان متجلداً في الظاهر، لا تسخو عيناه بدمعة مهما كان الموقف، لكن مصيبته التي اكتشفها مع الأيام هي أنه يتقمص شخصية وآلام كل مريض يشكو قدامه حالته المرضية، ويبقى في ذلك لأيام وهو يعتقد أنه مريض فعلاً، فكيف وهو يواجه هذه الحالة الشنيعة في أبيه الذي يتعلق به ضمناً؟، لذلك كان يفتعل أي مبرر للتهرب من هذه المواجهة، إلى أن أفهمهما الطبيب أن زيارة المريض لن تفيد بعد الآن ولن تسبب لهما إلا مزيداً من الآلام في الوقت الذي لن تخفف عنه شيئاً لأنه بحكم الميت، إنه جثة ساخنة تجري فيها الدماء بفعل ضربات القلب التي تأبى التوقف، اطمئنوا، إنه لا يشعر بشيء لأن الدماغ ميت، وهكذا كان

المبرر كافياً لهما ومقنعاً في آن لكي ينقطعا عن زيارته بعد أن عُزل في حجرة خاصة لا يراه فيها غير الأطباء المشرفين.

انتظرا أن تأتيهما الإشارة الأخيرة من المستشفى لنقله إلى مثواه الأخير، وطال الانتظار إلى شهور تحت عجب الأطباء لهذا القلب الذي يأبى أن يتوقف ليرتاح أخيراً ويريح.

وأخيراً جاء الفرج عندما رنّ جرس الهاتف في منزل محمد، كان الذي يهاتف هو الطبيب المشرف على حالة أبي حسين، لقد توقف القلب وأبوكم في ذمة اللّه..

رحل أبو حسين، ولم يستطع المطوع أن يصلي عليه، رغم أنه كان الأولى بذلك، ولا أن يشارك في جنازته، وذلك بسبب الكسر الذي أصابه في فخذه الهش بعد أن انزلق في الحمام، راحت دموع المطوع تترقرق على خديه وهو لا يقدر على المشاركة في واجب رفيق العمر، وكان ذلك مما زاد في شجنه، خصوصاً أنه كان لديه إحساس أن الكسر الذي يعاني منه لن ينهض منه إلا إلى القبر، وقد كان شائعاً بين الناس أن إحدى بوابات النهاية بالنسبة للرجل الكبير في السن أن تكسر ساقه، فهي لن تجبر بعد الكسر أبداً.

كانت هذه الوفاة مناسبة لعودة الصلح بين الأخوين صلاح ومحمد، فقد وقفا جنباً إلى جنب يستقبلان الناس في عزاء أبيهما، صلح بلا عتاب، بعد أن امتدت الجفوة بينهما لسنوات ارتفع خلالها رصيد محمد من الثروة بعد أن أصبح لديه أكثر من محل للذهب يتفرع من محله القديم، وصارت له علاقات مع أكثر من مصدر لتوريد وتصنيع الذهب، وبدأ يتطلع للدخول في المشاريع التي بدأت تلوح في أفق نهضة البلاد، كان وما زال يعدّ حمد نموذجه الذي يقتدي به، ويحاول دائماً أن لا يكسر العلاقة الطيبة التي تجمعهما، وكترجمة على صلحه مع أخيه دخل معه شريكاً في محل تجاري يديره أخوه صلاح، والحقيقة أنه كان يريد بذلك إنقاذه من الراتب المحدود

الذي يتعيش منه مع أسرته الكبيرة، وفي الوقت ذاته يضمن لسانه حتى لا يفريه بين الناس، ويبدو أن صحبة حمد قد علمته كثيراً كيف ينسج علاقاته مع الآخرين على أساس المنفعة المشتركة دون أن يكون ذلك مرتبطاً بعواطفه نحوهم، فالعلاقة عادت بين الأخوين، لكنها هذه المرة علاقة باردة خالية من ذكريات الماضي ومعاناته، حتى زوجة محمد كانت تشعر بنوع من الكبرياء تجاه زوجة صلاح وتتضايق كثيراً عندما تضطر لاستقبالها في بيتها مع أولادها، لكنها لم تستطع أن تنفجر بتلك المشاعر، لأن زوجها لا يريد ذلك، وتخشى أيضاً أن ينقلب عليها، فزوجها محمد قلبه غامض لا يؤمن جانبه، وإذا كان قد فرش لها بيتاً جديداً وأغدق عليها بالهدايا وألبس أطفاله أحسن الثياب فليس لأنه يحبها ويعزها كما يتظاهر بذلك، بل لأنه يحب أن يتباهى أمام الناس، وهي لا تنسى أبداً أن هناك حساسية خاصة تجمع ما بينهما لو لعبت على وترها لفقدت محمد إلى الأبد، وهي أنه لا يحب أن يذكّره أحد، وخصوصاً زوجته، أن أباها ساعده وكفله في فترة من الزمان لم يكن أحد يتطلع إليه، لذلك فإنه ارتاح كثيراً عندما استطاع أن يرد ديون أبيها من أرباحه في المحل، كأن كابوساً رهيباً كان يجثم فوق صدره وانزاح..

كانت مشاعرها المكبوتة تظهر بشكل عصبي مفاجئ على أولاد صلاح الذين يعبثون بالبيت منبهرين بأغراضه، يقفزون هنا وهناك ويوسخون دون أن تهتم أمهم بشيء سوى أن تصرخ عليهم من مكانها وهي لا تنقطع عن الأكل من صحن الفواكه الطيبة، لم تكن تهتم كثيراً إذا صرخت زوجة محمد عليهم لتأديبهم، لأنها لم تكن تأخذ ذلك بنية سيئة، فمن حقها عليهم أن تربيهم، وكثيراً ما كانت زوجة صلاح تنتقد آمنة زوجة محمد لأنها موسوسة بنظافة بيتها وترتيبه، فأولادها لا يجرؤون على الانطلاق بحرية من نظامها، إلا عندما يلتقون أولاد عمهم، وهم لا يصدقون أنفسهم متى يذهبون إلى بيت عمهم صلاح ليأخذوا حريتهم تماماً، لم تكن المسكينة تدرك أن هذا هو بالذات ما يضغط على أعصاب آمنة إلى حد المرض، فهي تتذكر تلك

الأيام التي اضطرت فيها إلى أن تشاركهم في بيتهم عندما كانوا جميعاً في بيت واحد، وتدرك أنه لو استمر ذلك الوضع لسنة أخرى لماتت من القهر، وفي الواقع لم تكن تكره صلاحاً أو أولاده وزوجته، بل لم تكن تكره أحداً على الإطلاق، كانت مضيافة وكريمة وتعرف أصول الحديث، لكنها ذات نزعة استقلالية وتشعر أن بيتها هو مملكتها التي يجب أن تكون تابعة لها بنظامها ونظافتها وترتيبها، وأي إنسان يخدش ذلك كانت تتمنى الابتعاد عنه، عانت كثيراً من زوجها في البداية، لكنها طوعته لكي يسلم لها القيادة في نظام البيت وأقنعته أن البيوت الجميلة الكبيرة التي انبهر بها ويطمح إليها لا تكون إلا على هذا الأساس، لذلك فقد أصبح يراعي تماماً أين يضع ثيابه وأين يجلس وأين يأكل، فالمسكينة، هكذا يراها محمد، لا تهدأ طوال النهار من شغل البيت، ولا يمكن أن ينام أطفالها دون أن يستحموا وتطمئن على نظافتهم، وكثيراً ما كان يشفق عليها لأنها تتعب نفسها كثيراً في ذلك، ورغم أنه جلب لها خادمة تساعدها في شؤون البيت، إلا أنها ظلت على عادتها لا تثق بأحد، فهي دائماً تلاحق خادمتها في كل صغيرة وكبيرة وتشرف عليها حتى يطمئن بالها.

هناك أمر مهم لم يرثه محمد عن أبيه أبي حسين، وهو لهفته الدائبة للمرأة، فقد كان محمد من هذه الناحية عاقلاً جداً، على عكس أخيه صلاح، فرغم أن ارتباط محمد بأبيه كان قوياً إلا أن علاقته بأمه التي هجرت وماتت شقية وبائسة كانت عميقة، عميقة جداً، لذلك كان يهرب دائماً من ذكراها، وكانت لديه قدرة كبيرة على التركيز اكتسبها من مهنته، فكثيراً ما كان يجلس ساعات بطولها يحقق زخرفة جديدة في عالمه الذهبي.

من ناحية أخرى لم يكن نفوره من العلاقات المحرمة والابتعاد عن النساء بسبب وفائه لزوجته، كما كان ينعته حمد بسخريته المحببة، صحيح أنه يقدرها كثيراً ويعطيها حريتها في البيت ويقبل عليها بحب، لكنها لم تكن السبب، بل لأنه كان يعتقد اعتقاداً حاسماً لا يخلو من الشفقة على أبيه في أن مصيبة والده الحقيقية هي لهفته للنساء،

وعليه أن لا يكرر هذه المصيبة في حياته، يكفي أن أمه ذهبت ضحية لذلك، كان نفوره من النساء ينبع من جرح قديم لا يتوقف عن النزف بصمت ووجع في أعماقه.

• • •

أيام دافئة

لم تعد الشركة هي المصدر الوحيد لعالم حمد التجاري، فقد دخل معه على خط الشركة كثير من المنافسين، لكن لم يؤثر هذا في حمد، لأنه منذ فترة غير قليلة بدأ بتنويع وتوسيع أعماله في بلد يقفز نحو المستقبل بطموح شديد، ولعله كان يتوقع تلك المنافسة في كل ميدان في بلد تتسابق إليه المشاريع الإنمائية من كل صوب وفي كل اتجاه، بل لعل حمد كان ذكياً أكثر عندما شجع بعض المنافسين ليكسب ودّهم ويربح صداقتهم بدل العكس الذي قد يقصم الظهر، فطبيعة التنمية الواسعة التي شملت البلد على جميع المستويات لم يكن في استطاعة رجل واحد مهما كان شأنه أن يحتكرها.

اعتاد حمد أن يدخل اللعبة مبكراً، وعندما يحرز قصب السبق الذي لا يطمع فيه أحد لصعوبة مناله، يعطي الإشارة خفية لبعض أصحابه الخلّص لكي يدخلوا اللعبة، وهكذا كان عندما راح يشتري قطع الأراضي من هنا وهناك بعقود بيع بسيطة لا تكلف غير ورقة مذيّلة بتوقيع الشهود وصاحب الأرض، حتى حسب البعض أن حمد يبذّر فلوسه في أراضٍ لا يرجى منها فائدة، حتى أن أصحابها لم يترددوا في بيعها والتخلص من همها. كان حمد يردد دائماً بينه وبين نفسه حكمة تجارية قديمة سمعها من أحد التجار عندما كان عاملاً في شركة البترول بالسعودية، وتقول تلك الحكمة إن البائع هو الذي يخسر والشاري هو الذي يربح دائماً، وقد حققت الأيام كثيراً من مضمون هذه الحكمة في حياة حمد التجارية.

جلبت له زوجته حصة القهوة بعد أن طبختها بنفسها، فلم تكن تسمح للخدم بخدمته ما دامت قادرة على ذلك، فللخدم شؤون البيت الأخرى، أما حمد فمن شأنها هي، وتفعل ما تفعل عن تقدير وحب لشخصه، كيف لا وحمد منذ أن تزوجها لم تسمع منه كلمة جارحة في حقها، وكانت سياسته وما زالت كلماته الطيبة التي تبرد الجرح، وحتى لا يزعجها كان دائماً وما زال يخفي عنها همومه ومشاكله التجارية وأخبار

صفقاته المستقبلية، فكل ما تعرفه عنه، أو هكذا يحب حمد أن يظهر أمامها، هو أنه رجل ناجح ومتفوق وصاحب نفوذ بكل معنى الكلمة، ولعل هذه السياسة مع زوجته هي التي جعلتها لا تشك أبداً في أن حمد يعيش حياة خاصة بعيداً عن منزلها مع أصحابه وخلانه، وهناك يعقد أكثر صفقاته ويوقع على أكثر مشاريعه.

كيف تشك به إذا كان انصرافه عن البيت أمراً مبرراً بالنظر إلى أشغاله الكثيرة، وغير ذلك فهي لم تلحظ ولو مرة واحدة أن حمد مخمور أو ما شابه ذلك، وللحقيقة فهو وإن كان يفرش طاولة كبيرة عليها أصناف المشروبات في بيته الخاص، إلا أنه كان يشرب مجاملة وبكمية قليلة لا تؤثر فيه، بينما كان ينصرف أغلب السهرة لضيوفه منشغلاً عن نفسه، وبطبيعة الحال فقد تعددت رحلاته إلى الخارج لأيام قليلة، لأن أعماله تتطلب ذلك، وللتسرية عن نفسه أيضاً، وكان يرجع ومعه أصناف الهدايا لزوجته وابنته المدللة سارة وبقية الأطفال مثل سعود وجاسم.

تغير شكل حمد وأصبح سميناً مكتنزاً، مما جعل عرجه أكثر وضوحاً من ذي قبل، لكن الناس اعتادت عليه كذلك، ولم يعبأ هو بهذا الأمر ما دام لا يعوق نفوذه ولا يؤثر في مشاريعه.

شيء واحد لم يتغير في حمد، هو إيمانه بحظه الذي يفلق الصخر، كثيراً ما كان يخطر له، وهو يرى أولاده ينعمون بهداياهم وملابسهم الجميلة ويوصلهم الخدم إلى مدارسهم بالسيارات، هل سيحتاج أولاده إلى هذا الحظ؟، وها هو رغم عدم إيمانه بشركات التأمين التي دخلت البلاد، إلا أنه أمّن على أولاده بمبالغ كبيرة لمدة عشرين عاماً، بينما رفض أن يؤمن على نفسه، وكأنما كان يخشى عليهم من أن يعيشوا ذله ويأسه مرة ثانية.

منذ سنة وسارة تضع الغطاء مع «الغشوة»[1]، لقد كان ذلك إيذاناً بوداع الطفولة وعدم الخروج من البيت إلا بمرافقة أمها أو أبيها وتحت علمهما ودرايتهما، ولم تنزعج

(١) الغشوة: نوع من الحجاب الخفيف.

هي من ذلك، بل إنها شعرت بنوع من الأهمية عندما قال لها أبوها:

- يا سارة إحنا ناس سمعتنا نظيفة، وأبيج تحافظين عليها.

وصلت سارة من المدرسة ودخلت لتحية والدها الذي ناداها قبل أن تذهب إلى حجرتها الخاصة، وتقترب من والدها وتقبّل رأسه وتجلس إلى جانبه..

- ها سارة، شخبار الدراسة؟

- الحمد للّه زينة.

- ما شاء اللّه على بنيتي، سمعي يا بوج، إذا نجحتي السنة أو خذتي الشهادة الإعدادية، هديتج عندي نسافر أوروبا في الصيف واخليج تستأنسين.

- زين يبه ولا يهمك.

تغيرت سارة كثيراً في السنتين الأخيرتين، صارت امرأة حقاً، لم تعد تلك الفتاة التي تشغل أباها بأسئلتها المتلاحقة، بل أصبحت أكثر حرصاً على أجوبتها المتقطعة المختصرة أمامه، وكانت تبقي بقيّة كلامها المتدفق لأمها عندما تستفرد بها في البيت.

منذ أكثر من سنتين انقطعت عن رؤية حسين وصارت لا تراه إلا لماماً، ورغم ذلك فسنوات الطفولة لا تنقطع عن الذاكرة بسهولة، وهي الآن تضحك كثيراً في سرها عندما تتذكر منافساتهما المشتركة، ما زال حسين على عهده يسبقني بسنة دراسية، لقد سمعت أنه يطلع من الأوائل دائماً، يقولون أيضاً إنه يكتب الشعر وعنده موهبة، وتتذكر نورة كيف رأته قبل شهرين يعبر الشارع بالصدفة من أمام بيتهم وكانت هي عند الباب، لم يرفع رأسه نحوها ولم ترفع رأسها نحوه، لكنها بلمحة واحدة ربما كانت نوعاً من التطفل عرفت أنه تغيّر كثيراً بشاربه الرقيق وملامحه الرجولية، وعرفت بإحساسها أنه سرق إليها نظرة وهو يقول لها متردداً مساء الخير، لم تعرف حينها كيف أجابته، ربما لم يسمعها، فقد كان صوتها خافتاً يقطر بالحياء والأنوثة.

يقال إن حسيناً يساعد أباه في إدارة ورشة الميكانيك التي يملكها، كيف يستطيع أن يطلع من الأوائل دائماً وهو يساعد أباه في العمل؟، هل ما زال حسين يتذكر أيام طفولتنا؟، إنه حتى لا يحاول أن يراني. فتحت سارة باب الخزانة لتنتقي ثوباً زاهياً تلبسه الليلة لأنها ستذهب مع أمها لحضور عرس لابن جيرانهم، إنها تعرف العروس، لقد تركت الدراسة من أجل الزواج رغم أنها تكبرها بسنة فقط.

يقولون إنها ستكون حفلة كبيرة، جلبوا أشهر فرقة شعبية لإحياء الحفلة، أخذت سارة مبلغاً محترماً لكي تشارك بـ «النقوط» مع أمها ولبست عقداً ثميناً من الذهب، حمد كان يهمه كثيراً أن تشارك زوجته وابنته في النقوط وبمبالغ كبيرة، فالنقوط فرصة للوجاهة في نهاية الأمر، وحمد يرتاح كثيراً للزغاريد التي تعلو باسمه وتصل إلى أسماع الجميع.

كان بعض الشباب يقفون قريباً من مدخل بيت العروس لكي يسترقوا النظر إلى النساء الداخلات والخارجات، بعضهم بدعوى القرابة للعريس وآخرون من أصدقائه متطوعين للمساعدة، وكذلك هناك من ينتظرون خروج أخواتهم أو أمهاتهم لمرافقتهم إلى البيت، وكل ذلك كان فرصة للتعرف على النساء وإيصال بعض الكلمات المباشرة إليهن، ولم تكن بعض الصبايا بأقل حيلة من هؤلاء الشباب، فإحداهن تخرج إلى الباب بدعوى طلب حاجة للداخل من بعض الصبية الصغار الذين يقفون لتلبية الحاجات للحريم، وبدافع العجلة تنسى أن تغطي وجهها، وأخرى تتمهل كثيراً وتتأنى في دخول البيت عندما تصل إلى أسماعها بعض الكلمات الرطبة من الشباب.

الغريب في الأمر أن بعض الشباب كانوا يعرفون أسماء الصبايا وشخصياتهن، مع أن بعضهن قد غطّين وجوههن، ولم يكن الحكم مخطئاً غالب الأحيان، وكان أحد هؤلاء الشباب سالم بن محمد ابن أبي حسين، خبرته لا تجارى في معرفة الصبايا، فتلك فلانة يعرفها من مشيتها، وتلك فلانة بكل تأكيد يعرفها من طول عنقها وأصابعها النحيلة، وتلك سارة أعرفها من الثوب الأحمر المذهب الذي تلوح أطرافه

من تحت الغطاء الأسود، إنها تعرف ماذا يليق لها من الأثواب، «حلوة واللّه موت»، يقول الجملة الأخيرة بهمس بينه وبين نفسه دون أن يلحظ أن هناك من يتابعه بعينين مستفزتين من بين الشباب تعبران عما يكنه صاحبهما من كراهية واحتقار لسالم الذي يتباهى بخاتمه الماسي وعطره الأنيق كالنساء، لقد ترك الدراسة بعد الشهادة الإعدادية دون أي إحساس بالخيبة، وسلّمه أبوه إدارة المحل الكبير الذي يحتكر أجمل المصاغات الذهبية في السوق، وكان هذا المحل فرصة لسالم لكي يتعرف إلى النساء، كان الشاب حسين يود من كل قلبه أن يقول له لماذا لا ترفع عقالك عن رأسك وتمسك «طاراً» وتجلس بين نساء الفرق الشعبية في الداخل، لكنه أمسك أعصابه في اللحظة الأخيرة، حتى لا يكون السبب في مشكلة تزعج أهل العرس، وآثر الانسحاب إلى بيته مبكراً بعد أن أدرك أنه لن يستطيع تغيير شيء من طبيعة الأمور. في الطريق مرّ من جانب السدرة التي كبرت وتهدلت أغصانها وسقطت أوراقها الكثيرة على الأرض، ما زالت هذه السدرة قائمة رغم كل التغيير الذي حصل في الفريج، لكنه لا يدري لماذا ترتبط صورة السدرة في وجدانه بصورة الأم الحانية على أطفالها من وهج الشمس الحارق، وبإحساسه العميق كان يدرك أن هناك ثمة قصيدة تجول بين جوانحه لها علاقة وثيقة بهذه السدرة، لكنه لا يستطيع التعبير، ما زال عالمه الشعري بكراً يفتقر إلى التجربة، ورغم أن الخواطر الشعرية تتدافع إليه إلا أنه لم يستطع إلى الآن أن يحدد ما الذي يختار منها ويعبّر عنه حقيقة، كان أستاذ الأدب يشجعه دائماً ويحفزه للتطلع إلى المستقبل، لأنه ما زال طري العود في تجربته الشعرية، الأحاسيس ومحاولة التعبير هي ما يلزمه الآن، أما القصيدة التي تعبر عنه حقيقة فهذه بحاجة إلى الزمن، إلى التجارب الخاصة والمفارقات الحياتية.

ولكن، لماذا تغاضيت عن جميع الصبايا اللواتي كان سالم يتباهى بمعرفتهن بين الشباب واستفزني تماماً عندما ذكر سارة على لسانه؟، صحيح أنني أرفض طريقته وأشعر بالقرف من أمثاله، لكن اسم سارة كان له وقع خاص على مشاعري..

لم أرها منذ سنتين إلا صدفة، في السابق كنت ألتقيها دائماً، لم يكن بيننا أي حاجز، لكنها الآن شيء آخر، امرأة حقيقية، لا بد أنها تغيرت كثيراً، وربما لا يهمها إذا كنت أشعر نحوها بما أشعر به الآن، ربما أفسدها النعيم الذي تعيش فيه وصارت تتباهى مثل سالم بزينتها وملابسها، كان الثوب الأحمر لائقاً عليها فعلاً..!!

يدلف حسين إلى البيت فيرى جدته أم خالد تجلس كعادتها على المصطبة أمام الحوش وأمامها صينية القهوة والشاي وبعض الفاكهة، نادراً ما تأكل حبة فاكهة أو تتناول الشاي والقهوة، لكنها تحب هذا المنظر أمامها، تراه نوعاً من الاهتمام بها، فهي كالنوخذة فعلاً، وجميع من في البيت بحّارتها، يضحك في سره حسين وقد خطر له أن جدته بهذا الوضع لا ينقصها غير أن «تدوخ بالقدو»!. أمه نورة كانت تجهز العشاء لأبيه في المطبخ، يجلس حسين بالقرب من جدته المستريبة منه دائماً، لذلك فإن عينيها المتفرستين تتابعانه باستمرار، فحسين ما زال بالنسبة لها ذلك الشيطان الذي لا تستطيع أن تمسكه وتفرض عليه سلطاتها، شيء ما في ملامحه يجعلها تغفر له كل ذنوبه، يا الله رغم كل السنوات التي مرت بعد موت زوجها أبي خالد إلا أنها تراه تماماً عندما يضحك حسين، وتسأله بعد أن لاحظت رجوعه المبكّر من العرس:

- أجوفك ياي مبكر..

- إي، تضايقت من العرس.

- وشو له..؟

- عفسه، ناس وايد وأنا ما احب الزحمة.. وين أبوي ما أجوفه؟

- أبوك راح بيت المطوع.

- الحين؟

- إي يا ولدي، سمع انه زاد عليه المرض، الله يعينه من يوم ما انكسر وهو على الفراش، أنت تدري محد يخدمه غير جدتك فاطمة، ويمكن يحتاج يروح المستشفى

ولّا شي، أبوك يعد المطوع حسبة أبوه.

- مسكين المطوع، آخر مرة شفته فيها مستوي جلد وعظم، ضعيف وايد، ما عرفني إلا حين قلت له اسمي.

- اللّه يعينه.

ويلحظ حسين أن جدته لا تحب الحديث حول المرض رغم تصالبها الذي يبدو في وجهها، كأنما المرض يذكرها بشبح النهاية الذي لا تستطيع رغم صلابة وجهها أن تخفي الاضطراب الذي يبدو عليها عندذكره، ويخطر له أن يغيظها بذكر حوادث للموت مفتعلة، لكنه يحجم عن ذلك، فهو يعرف أنها تتأثر كثيراً وضغطها المرتفع لا يسمح بذلك.

أكثر المشاحنات التي كانت تشب نارها بين حسين وجدته أم خالد بسبب حب حسين للبحر، ففي كل خميس يجهز خيمته الصغيرة وعدة «الحداق» ويذهب ليبيت هناك وحده أمام البحر ويرجع مساء الجمعة، وذلك بعد أن يستلف من أبيه سيارة من السيارات الجاهزة في الورشة الكبيرة، كان أبوه واثقاً من قيادته لها ومعرفته بأمورها الميكانيكية البسيطة، عدا عن أنه ضمناً كان يرتاح كثيراً لأن ولده يحب البحر لهذه الدرجة، لكنه يملك شيئاً آخر لا يملكه الوالد تجاه البحر، وهو عناده وتصميمه على الذهاب هناك حتى لو غضبت جدته.

كثيراً ما ذهب أبوه إليه هناك، فهو يعرف المكان المحبب لخيمة حسين، حتى أن الشباب لا ينصبون خيمهم مكانها احتراماً له ويبقون له المكان خالياً حتى يصل إليه، كثيراً ما يذهب الأب بدعوى أنه سيطمئن على ولده، لكنه في الواقع كان يذهب لكي يمتع نفسه بالجلوس ليلاً أمام شاطئ البحر والتمتع بأكل السمك المشوي الذي صاده حسين، وكثيراً ما استغرقت الوالد تلك الجلسة فنام على الرمل إلى الصباح ولم يعد إلى البيت، لكنه في إحدى المرات اكتشف أن حسيناً يأخذ معه إلى البحر جدّه خميساً،

إذن كان البحر واسطة أخرى ليلازم جده خميساً في السر عن أبيه، لا بد أنه منذ سنوات يتصل به دون علمي، كان هذا الأمر هو الصدمة الوحيدة التي تلقاها خالد من ولده حسين، ولم يعاتبه وقتها، لكنه ظل حانقاً عليه لفترة طويلة.

ما الذي يعجب حسيناً في جدّه خميس؟ أبلاهته وتخريفه أم ضحك الناس منه؟، لقد زادت الأيام خالداً شراسة نحو خميس، وتمنى في سرّه لو ينقطع عن ظهر الدنيا ويتخلص منه، عندما أحس حسين بالحصار واجه أباه بكل صراحه بأنه ليس له ذنب في أن يحب جدّه ويتعلق به، وكأنما كان يغمز من ناحية أبيه:

- أنا ما يهمني كلام الناس ما دمت على حق، وعلشانك أنت بس يا يبه كنت أقابل جدي بالخش عنك حتى ما تزعل علي.

ولا ينسى خالد تلك الكلمة المؤثرة التي قالها حسين والغصّة تخنق كلماته:

- يبه، أنا ما يحق لي أقول إني أحب أمي وأقدرها وأعزها إذا ما حبيت أبوها وقدّرته واحترمته، أنت يمكن عندك سبب، بس أنا ما عندي، ولا أجوف أي سبب يمنعني عنه.

ولم يجبه أبوه بشيء يومها، لأنه كان عاجزاً عن قول شيء، لكن أمه نورة التي كانت تسمع كلماته من حجرتها، دون أن يعلم زوجها خالد، عانقت ولدها حسيناً بعد أن خرج زوجها من البيت وراحت تبكي على صدره بكاء حاراً كأنها تخزنه منذ سنين.

تشرق الجدة وهي تشرب الماء فيسمع حسين سعالها:

- بسم الله عليج، شوي شوي على روحج.

تنظر إليه بريبة بعد أن رأته يبتسم فتقلد صوته:

- شوي شوي على روحج، تبغي تتطنز، هاذي اللي قاصر بعد، حتى حسينوه

يتطنز.

- انا اتطنز؟ أنا من لي غيرك يا يدّتي؟ أنا لو أغوص في البحور السبعة ما أحصل دانه مثلاتج.

- أقول لك يوز عن هالسوالف يا ابو لسانين، أنت تغوص في البحور السبعة وإحنا في بحر واحد ويا الله يا الله.

ويضحك حسين لكلام جدّته ويقترب منها ليحضنها بين ذراعيه..

- وخّر عني وخلك مكانك.

- يه ما يصير.

- لا يصير، وخّر بس وخّر.

لكنه يسرق قبله من خدها، فيهدأ غيظها قليلاً، في هذه الأثناء يدخل خالد من باب البيت والكدر يعلو وجهه فتسأله أمه عن المطوع:

- ها، شخبار المطوع؟

- وديته المستشفى، تعاوّنا أنا ومحمد وفاطمة حتى وصلناه السيارة، وهناك حطوه في العناية المركزة، الظاهر ما في أمل يا يمه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويسأله حسين:

- شقال الدكتور عن حالته؟

- قال إن الحالة خطيرة..!

وتسأله أم خالد بخوف لا يخفى في وجهها:

- شلون، يتألم وايد..؟

- لا يمه، ما يحس بأحد من حوله، مرات يصحى، لكنه يرجع ويغمى عليه.

فتح المطوع الذي ذاب جسده عينيه بعد أن ظل لأكثر من عشر ساعات وهو مغمى عليه، كان يشعر بالأصوات من حوله وكأنما تأتيه من بعيد ولا يقدر على الاستجابة لها، رأى أول ما رأى الأجهزة الغريبة تحيط به وامرأة تلبس ثوباً أبيض، طلب بصوت خافت أن يرى فاطمة وحفيده محمداً اللذين ينتظران بلهفة للدخول عليه.

كان المطوع يتمسك ببقية من وعي عندما دخلت عليه فاطمة والدموع تنفر من عينيها وهي تشد إليها حفيده محمداً الذي صلح حاله في ورشة خالد وأصبح عاملاً رئيسياً هناك، لكنه ما زال يبدو أصغر من سنه بكثير، كان المسكين يخاف أن يفقد جده الذي تعلق به، اقتربت فاطمة بعد أن أشار إليها المطوع لتقترب منه لأنه يريد أن يكلمها:

- يا بنيتي يا فاطمة أنا من يوم يبتج عندي وربيتج أعرف ما لي غيرج في هالدنيا، وانا أشهد إنج وفية يابوج، شليتيني وأنا كبير وخدمتيني وأنا طايح بالفراش.

تحاول مقاطعته، لكنه يسكتها بإشارة يده الواهنة:

- المهم، أنا ثروتي على قد الحال، لكنها تعين، وتراني وصيت لج مثل ما وصيت لمحمد، أبيج تكونين معاه، انتي أمه الحين، انتي تعرفين ما يقدر يعيش بروحه.

وعاد المطوع إلى الغيبوبة مرة ثانية، لكنها طالت هذه المرة، لأنه لم يصحُ بعدها أبداً.

كان العزاء الذي أقيم بعد وفاة المطوع مناسبة لاجتماع أهل الفريج، لم يتخلف أحد منهم، وقد لاحظ حمد أن حسيناً ولد خالد يقوم على خدمة المعزين ويصب القهوة، وللحقيقة شمخ خالد برأسه عندما سمع الجميع يمدحون ولده حسيناً معجبين به..

ينهض حمد وتنهض معه «شلّته»، وعند باب البيت يلتقي حسيناً فيبتسم له حمد،

يقترب منه حسين مودعاً..

- ما شاء الله يا حسين، قايم بالواجب وزود.

- اللّه يخليك يا عمي.

- يقولون انك مبدع بالدراسة، وبعد شاعر، ما علينا، أخذ الثانوية وتعال عندي أوظفك في شركتي.

- مشكور يا عمي، لكني معزّم أكمل دراستي في الخارج.

- والله كفو، وش ناوي تدرس؟

- مهندس.

- زين خوش دراسة، تبغي تصير مثل الأجانب؟

- ليش لا يا عمي، محد أحسن من أحد.

ينصرف حمد بعد أن ربّت على كتف حسين معجباً بكلامه، ثقته بنفسه تزيده نضجاً، لو بقي مصمماً على ما يريد أن يفعله لأصبح له شأن في المستقبل، ويلحق خميس بحمد قبل أن يركب السيارة بعد أن رآه يكلم حسيناً:

- ها حمد، عساك شفت حسين؟ هاذي يعجبك.

وبلكنة ساخرة لا يدركها خميس، بل يطرب لها:

- كيف، يعجبني ونص ما دام هو طالع عليك.

ويفاجئه خميس:

- حسين وبنتك سارة لايقين حق بعض يا حمد، خل بالك.

ولا يرد حمد على خميس، بل يهز رأسه ويغلق الباب في وجه خميس دون أن يدرك خميس أنه أشعل الفتيل..

ربما لو كان هذا الكلام على لسان خالد أبي حسين لقبله حمد راضياً، أما أن يأتي عن طريق خميس فذلك أمر لا يحتمله حمد أبداً، فقد رأى ذلك تقليلاً من مستواه وتحقيراً له، بينما المسكين خميس فكر أنه صنع خيراً، فجاء إلى حسين وأخذه ناحية وأخبره بالأمر، استولت الدهشة والاستنكار على حسين وهو يسمع ذلك من جده:

- شسويت يا يدّي الله يخليك، عاد الحين؟!!

- شفيها؟، وبعدين اسمع، حمد يبغيها من الله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، زين يا يدّي، أرجوك لا تقول حق أحد عن هالسالفة مرة ثانية، تدري؟، أنت وهقتني الحين..

- لا تسوي لك سوالف، سارة تليق لك، ما في أزين منها، أنا اعرفها، طيبة وايد.

ويبقى خميس على عناده دون أن يحاول فهم حسين، فقد أصبح حساساً لا يحتمل التأنيب أو العتاب على شيء قاله أو فعله، وهذا الأمر كان يزيده عناداً حتى لا يعترف أنه كان مخطئاً ويقع تحت طائلة الشعور بالذنب الذي لا يحتمله أبداً.

أما حسين فقد تكتم على الأمر حتى لا يسمع أبوه وتحدث مشكلة، لأنه سيعتقد أن خميساً كان يتكلم بالنيابة عن حسين.

راحت سارة تشغل أفكار حسين في الأيام التي تلت كلام جدّه، كان يفكر في أمر واحد يشغله، وهو إذا كانت سارة تعجبني فعلي أن أسبق الجميع إليها، فالكثير من الشباب يطمعون فيها، ولكن كيف لي ذلك؟، إنني أكاد لا أعرفها الآن، كيف لي أن أتصل بها دون أن تحدث فضيحة؟، لا بد أن أعرف مشاعرها نحوي، لماذا لا أتقصد لقاءها؟، نعم سأحاول أن أترصدها منذ الغد، لن أترك للصدفة الخيار، فربما تتأخر كثيراً، أنا الذي سأختار هذه المرة وسأعرف الطريق إليها.

لاحظ خالد أن ولده حسيناً يتغيب عن الذهاب إلى الورشة على غير العادة، ليس

هذا وحسب، بل كان يحرص على أن يوصي أمه بتحضير أثواب نظيفة مكوية له، لم يكن حسين قبلاً من الشباب الذين يبالغون في أناقتهم، وقد وجد أبو حسين أن زجاجة العطر التي جاءته هدية قد استعارها حسين ووضعها في حجرته، ليس الأمر عادياً إذن، ويسأل خالد زوجته:

- أقول ام حسين، مهب ملاحظة شي يديد على ولدج حسين؟، أجوفه تغير علينا مرة وحدة..

- شفيه حسين؟، بسم الله عليه..

- يعني أجوفه إلا يتزكرت، كله زابر هالأيام، حتى إنه هوّن عن الورشة، تعرفين شيّ؟

- لا، أنت تدري حسين ما يقول حق أحد.

- زين، أنا باجوفه وباعرف منه.

- بس واللي يخليك شوي شوي عليه.

- انتي توصيني عليه؟

استطاع حسين أن يصدف سارة ثلاث مرات خلال أسبوع واحد، كان ذلك رقماً قياسياً جعله يطمئنّ إلى أن الإنسان سيكون محفوفاً بالصدفة حين يحدد هدفه، لكنه لم يستطع في مرتين أن يكلمها، في واحدة لم يسعفه الوقت للسرعة التي تم بها اللقاء، وفي الأخرى خانه التعبير، لكنه أحس بنظراتها المستغربة تتابعه، أما في الثالثة فلم يطق صبراً وخاف أن تخونه الصدف بعد ذلك، اقترب منها، لم تجفل منه، لم تسرع في خطواتها، لكنها تشاغلت بنظراتها عنه:

- شلونج يا سارة؟

- بخير.

كان الشارع خالياً فشجع ذلك حسيناً:

- سارة بصراحة ذي مب صدفة، أنا متعنّي وقاصد إني ألقاج.

- شدعوى؟

- علشان ما تستغربين لو شفتيني مجابلج مرة ثانية.

تبتسم سارة باستحياء..

- لأني أعزج يا سارة وما يهون عليّ أخش عنج أي شيّ.

وهنا تمضي سارة إلى البيت وقد أسرعت دون أن تجيبه خيفة أن يراهما أحد، يفترق عنها حسين وقد شعر أنه قال ما كان يجب أن يقوله، ولن يندم على ذلك أبداً، رجع إلى البيت دون أن يشعر أن أقدامه متيبسة لأنه انتظر أكثر من ساعتين حتى تم ذلك اللقاء.

في اليوم نفسه لاحظ الجميع سرحانه، ليس هذا حسيناً الذي يحرك الجميع بطبيعته المرحة، لاحظوا أيضاً أنه انسحب مبكراً إلى حجرته بحجة الدراسة، لم ينتظر الأب كثيراً، فلحقه إلى الحجرة ليجده ساهماً، عندما رأى أباه حاول أن يمسك أقرب كتاب إليه، لكن الأب لم تنطلِ عليه هذه الحيلة، فهز رأسه وجلس إلى جانبه:

- بسك من الدراسة، اتعبت نفسك، أبغي أتكلم معاك شوي.

- آمر يبه، خير؟

- انت اللي خير، أبغي اعرف، صار لك كم يوم جذيه ما هب عاجبني، صاير معاك شيّ؟.

وبسرعة ارتسمت علامة الإنكار على وجهه المضطرب:

- لا يبه، ما في شيّ.

يتأمله أبوه طويلاً كأنما يكذبه، لكن حسيناً يبعد عينيه عن عيني أبيه المتفرستين:

- أقول لك ما فيه شيّ.

ولا يرغب الأب بالضغط كثيراً على حسين، فينهض:

- زين، هاذي اللي يهمني.

يتوقف الأب قبل أن يذهب ويستدير إليه:

- بس جوف، كل شيّ هين إلا الدراسة، وكلمة مهندس لا تشيلها من راسك موليّه، فاهمني؟

- اي نعم يبه، أنا وعدتك، تبغيني أحلف؟

- لا يا ولدي، أنا واثق فيك، واذا احتجت حق شي أنا عيوني لك.

- يا علك تسلم، ولا تحاتي موليّه يا يبه، أنا عند وعدي.

يخرج أبو حسين وقد عادت إليه الروح، وتلقاه زوجته نورة في الليوان وهي لا تخفي قلقها:

- فيه شيّ ولدي حسين، فهمت منه شيّ؟

يبتسم خالد كأنما يتذكر أياماً قديمة طغت عليها زحمة الهموم:

- يا ام حسين، خالد الله أعلم إنه يحب، هو أنكر جدامي، لكن قلبي حاس جذي.

وبدهشة لأنها لم تتوقع ذلك:

- ولدي حسين يحب، معقولة؟

- حسين مهب صغير، وغير جذي ناضج، خليج قريبة منه، يمكن يصارحج وما

يستحي منج.

يذهب عنها والسرور يملأ عينيها، أحست نورة للمرة الأولى في حياتها أنها كبيرة ولها ولد يحب وغداً يطلب الزواج، ولم تستطع أن تكتم مشاعرها، فتحت الباب على حسين ووقفت تتملاه بعينيها الضاحكتين دون أن تقول شيئاً، ثم أغلقت الباب على حسين الذي بهت لتصرفها:

- شفيكم اليوم كلكم عليّ؟، لكن ما عليه، لكم يوم.

كانت سارة تعتقد أن الأمر سيكون أشد هولاً وهي تواجه حسيناً في صورته الجديدة، صورة المحب، لكن الأمر مضى أبسط مما كانت تخشاه، لأنه كان بسيطاً وواضحاً وعفوياً، ولولا أنهما في الشارع لأجابته بالتلقائية نفسها كما تعودت في طفولتها أيام كانا يلعبان عند السدرة وعلى رمل الشاطئ القريب.

بالتأكيد سيقدّر تصرفي لأنني مشيت عنه ولم أعطه جواباً، لو أنه قابلني وحاول مغازلتي كما يفعل بعض الشباب لرفضته تماماً، إنه حتى لم يستغل معرفتي القديمة به، لم يحاول مخادعتي، قال لي فوراً وبكل صراحة لماذا ترصدني في الفترة الأخيرة، لم يخفِ شيئاً، لن أخبر أحداً، خصوصاً زميلاتي، حتى لا تنتشر القصة، كل شيء في بدايته، ليس هناك شيء مؤكد بعد، لكنني أتوقع ذلك، لن أحتاج إلى أحد كي أستشيره في شأن حسين، لأنني أعرفه أكثر من كل الناس، وهو صريح وصادق، وهذا يكفي.

لديّ إحساس بأن أمي لا تحب عائلة حسين، لأنها تزور كل البيوت دونهم، لن أخبرها بشيء، إن أبي سيقف معي وسيتولى هذا الأمر مع أمي لو عارضت في حسين، هل يعقل أن تعارض في حسين مع أنه قريبها..؟

راحت الأسئلة تتوارد على سارة، منك لله يا حسين، لقد شغلتني بأمر كنت خالية منه، لكنه جاء في وقته تماماً، وأهم من كل ذلك أنك أنت الذي جئت به.

مر أسبوع لم تر فيه حسيناً، حتى بدأت المخاوف تلعب في صدرها، كانت تتوقع أن

تراه ينتظرها في اليوم التالي، لكن ذلك لم يحدث، هل يعقل أن يعدل عن رأيه بهذه السرعة؟، هل في ظنه أنني لعبة؟، لن أسامحه لو فعل ذلك..

أسبوع من القلق، وكأنها كانت تتعلق بحلم ثم تبخر، بدأت مشاعر الكآبة والخيبة تلوح في تعابيرها، أتمنى أن يكون مريضاً حتى يكون غيابه مبرراً.

في عصر أحد الأيام تقدم منها طفل صغير حين كانت تهم بدخول البيت، وانتبهت إليه يحمل في يده رسالة مطوية، سلمها لها بسرعة كأنما قد تدرب على هذا الدور مرات، فأخذتها منه ووضعتها في داخل جيبها ونظرت حولها لترى حسيناً يقف بعيداً عند زاوية الشارع، تبسمت بينها وبين نفسها، ودخلت البيت والدنيا لا تسعها من الفرحة.

ساعة اطمأنت إلى أن أحداً لن يدخل عليها الحجرة، فتحت الرسالة بسرعة لتلتهم الكلمات التي لا تعدو ثلاثة أسطر في آخرها توقيع حسين:

«سارة..!! قضيت أسبوعاً أشقق الأوراق حتى أكتب لك هذه الكلمات الأولى، أنا آسف لأنني لا أعرف زخرفة الكلام، لكن ما يهمني هو أنني غير نادم في اختياري، فهل أنتِ معي؟، إذا كان كذلك الهاتف قريب منك، اتصلي بالرقم: ٣٤١١٤ وستجدينني بانتظارك بعد الساعة الثامنة»..

- بس؟، وأسبوع قاعد حسين يشقق الورق علشان كم سطر، عجيب!، رفيجتي سامية يكتب لها اللي يحبها كل يومين رسالة من خمس صفحات متروسة كلام.

لكن سارة تعود وتراجع نفسها بعد أن قرأت الرسالة مرة ثانية:

- صج إن كلامه مختصر بالرسالة، لكنه وايد مهم ويؤثر فيني.

وكما توقع حسين، رن جرس الهاتف في الساعة الثامنة بعد أن أخذه إلى حجرته دون أن يدري أحد ووضع فوقه وسادة وجلس ينتظر، رفع السماعة بسرعة بعد أن أزال الوسادة عن الهاتف، لم يتكلم أحد، كل منهما كان ينتظر الآخر ليبدأ الكلام:

- هلا سارة.

وتنهدت سارة بارتياح وهي تجيب كأنما تداعبه:

- للحين سهران يا حسين؟

- شلون أنام وأنا انتظر على نار..؟

- على فكرة، رسالتك مب ناوية أراويها زميلاتي، أخاف يتشمتون فيني!.

- أنا كتبتها لج مب لزميلاتج، تبغين أنسخ لج رسايل من الكتب؟

- لا، أبغي كلامك أنت بس يا حسين، ولا تزعل، أنا معجبة بأسلوبك.

- أقول، للحين ما جاوبتيني على سؤالي في الرسالة..

- تبغيني أكون معاك؟

- هذا راجع لج..

- أنا ما عندي أي خيار يا حسين، وأنا مثلك ما أندم على قراري.

- سارة، خلي ثقتج فيني قوية، وتأكدي إني ما اخون عهدج في حياتي.

- تسلم يا حسين.

- ما عندج كلمة غيرها؟

- هاذي عليك، أنت اللي لازم تقولها..!

- أحبج يا سارة، وافديج بعمري وحياتي.

لا تقدر سارة أن تتمالك مشاعرها فتقفل الخط، وبعد أن هدأت عادت واتصلت مرة أخرى وانتظرت حتى يتكلم حسين:

- سامحيني لو أخطيت في كلامي..

- لا، لا، قصدي مب جذي.

- تبيني أنا اللي أتكلم ولّا شلون؟

- علشان تعوض الكلام اللي في الرسالة.

ويضحك حسين:

- عمري انتي، أنا اللي يهمني كلمة وحدة أسمعها منج، وعقب كل شيء هين!!

تستجمع سارة مشاعرها لتختصرها في كلمة واحدة، ويأتيها صوت حسين:

- ها، شقلتي؟

وبصوت مشبع بالحياء:

- أحبك يا حسين.

- اللّه، يا زين هالكلمة على لسانج، ودي أطير من الفرحة واخلي كل الناس تدري بحبنا.

- تحمل، تبغي تفضحنا؟!

تسمع سارة صوت أبيها قريباً من حجرتها:

- حسين أسمع صوت أبوي، مع السلامة.

يكاد حسين ينفجر من الغيظ بعد إقفال الخط، ويدرك أنه لا أمل في عودة الاتصال مرة ثانية، يشعر أن الحجرة ضيقة عليه، تخنقه، خرج إلى الحوش واستلقى على الفراش الممدود على المصطبة، ووضع يديه تحت رأسه، بينما راحت عيناه تتابعان النجوم، ودغدغ النسيم أجفانه المشدودة فتراخت، ولم يصح على نفسه إلا وجه الصباح، فنهض ذاهباً إلى حجرته حتى لا يراه أحد على هذه الحالة وتزداد الشكوك، لم ينس أن يرجع الهاتف إلى المجلس، ونام مرة أخرى نوماً ثقيلاً ليصحو على صوت

أمه بعد أن تأخر عن المدرسة.

• • •

لم يخطر على بال خالد أن تطلب منه فاطمة على ندرة طلباتها هذا الطلب المحرج، وخالد لا ينسى أبداً أنها وقفت معه وتعاونت معه كثيراً ضد زوجها خميس، وخاب أمل الاثنين في أن يضبطاه حسب ما يريدان له، وهي ما زالت تشعر أن خالداً هدية كوفئت بها عندما تزوج ابنتها نورة، وهذه المرة رغم أن الطلب محرج بالنسبة لخالد إلا أنها لم تجد حرجاً في طرحه عليه، وهو أن يساعدها وأن يبذل ما في وسعه من أجل تزويج محمد حفيد المطوع، فقد أصبح رجلاً وواعياً لأمور الزواج، ولا شيء يمنعه، إنه يكد على نفسه مثل أي رجل من مهنته الجديدة التي تعلمها، ماذا فيها إذا كان بسيطاً وطيباً ومتأخراً نوعاً ما عن أقرانه؟، البنت التي ستتزوجه ستسعد معه، وتكمل فاطمة:

– أنا بيتك لأنك أنت أولى الناس بمحمد، ولا تنسى شكثر وصانا عليه عمك بو جاسم الله يرحمه.

ولم يكن هناك حاجة لأن تذكره بتلك الكلمات، فهو فعلاً يشعر بذلك، وتواصل فاطمة:

– المسكين قاعد يتحسر على عمره ولا يقدر يشتكي حق أحد غير لي أنا، ومن يومين كسر خاطري يوم سمعته يصيح في الحجرة بروحه.

وبحيرة يسأل خالد:

– إن كان على الفلوس أنا حاضر، لكن منهي البنت اللي توافق تتزوج محمد؟.

وتلمع عينا فاطمة بالأمل:

– فوزية بنت صلاح، تركت الدراسة من زمان وبتقبل فيه.

- بنت صلاح؟، شدراج؟

- أنا سألت أمها ووافقت، لكن أبوها صلاح عليك تكلمه علشان يوافق.

- زين، خلي الأمر علي وبارد لج خبر.

- بس ما أوصيك.

- يصير خير إن شاء الله.

لم تكن فوزية بنت صلاح على قدر من الجمال، فيها من الطيبة بقدر ما فيها من الغفلة، تركت الدراسة في الصف الرابع الابتدائي وجلست في البيت تساعد أمها، وتعلمت الخياطة وتطريز الملابس.

كانت مشكلة خالد التي أحسها همّاً ثقيلاً هي أنه لم يتعود القيام بمثل هذه الوساطات، ودّ لو يفتدي هذه القضية بالمال وتنتهي المشكلة، ولولا ذكرى المطوع لما ورّط نفسه بهذه القضية من الأساس، فقد عاش حياته على لغة الاكتفاء من علاقات الناس بما يضمن السلامة.

في الصباح هاتف أحد مساعديه وأخبره أنه سيتأخر عن الورشة وكلفه بتسيير العمل في غيابه، بينما توجه بسيارته إلى المتجر الذي يديره صلاح ويتقاسم ملكيته مع أخيه محمد، واستغرب صلاح مجيء خالد إليه في المحل، فرحب به معانقاً:

- هلا بالقاطع، حياك، زارتنا البركة.

- سامحني يا صلاح، أنا مقصر في زياراتك، ولك علي أزورك في البيت.

ويدعوه صلاح لكي يرافقه إلى المكتب في الطابق الثاني للمحل، وهناك يسأله وهو يريه المكان بعد أن جلسا:

- ها، شلون شفت المكتب؟

- ما عليه كلام، مكتب مدير، بس شلون الشغل؟

- الحمد لله، أنت تدري لي النص، بس الإيجار والعمال علي أنا، وأخوي محمد له النص صافي، لأني ما دفعت ولا بيزة، هو صاحب راس المال، والشغل أحسن من البطالة.

راح خالد يستجمع أفكاره لأنه كان يعلم أن صلاحاً عندما يأخذ الحرية في الكلام لن يتوقف، فهو لا يترك شاردة إلا ويحشرها في كلامه، فمن شكواه إلى عمله، إلى الزمان والأصحاب، إلى أخيه وزوجته، إلى كل شيء يخطر على باله وقتها، وما أكثر ما يختزن من حكايا، ولا يجد خالد بدّاً من حسم الأمر:

- أقول صلاح، ما أقطع سالفتك إلا بالخير، أنا يايّك في طلب..

وينتبه صلاح كمن يصحو من خواطره:

- خير يا بو حسين!

- الحقيقة أنا يايّك أتوسط في أمر وعساه يتم على يدك.

وبنخوة معتادة:

- اطلب اللي تبغيه، ترى ما يردك إلا لسانك.

- تسلم صلاح، إنت تدري شكثر كان بو جاسم المطوع الله يرحمه له معروف علينا كلنا..

- ايه، الله يتغمد روحه في الينة.

- والحين حفيده محمد ولد أختك المرحومة سلمى صار ريّال وكداد وعاقل بعد، وأنت تدري شكثر وصانا عليه المرحوم..

- إي أدري، شفيه محمد؟

- يبغي يعرس يا صلاح مثل كل الناس، وأنا أتكفل بكل مصاريف عرسه.

- هاذي الساعة المباركة، وأنا بعد حاضر.

- إحنا ما نبغي من عندك الله يسلمك إلا شيّ واحد، وهو انك توافق على زواجه من بنتك فوزية.

- فوزية؟

يتردد صلاح بعد أن كان متحمساً، ثم كمن يشك في أمر:

- إلا قول لي.. يقدر يفتح بيت؟ أنت تدري عن محمد..

- محمد ما فيه قصور، والحين هو ريّال ناضج ما يفرق عن الرياييل، وغير جذيه أنت خاله، إن ما عنته أنت ولا من يعينه؟

- أنا ما عندي مانع، لكن إذا سمحت لي أشاور الأهل، وأجوف رأي أخوي محمد بعد، وأنت تدري ما أبي مشاكل معاه.

- لا من حقك، والباقي عليك.

- إن شاء الله في حدود يومين بارد لك خبر.

- يصير خير، يلّه مع السلامة.

- مع السلامة.

أحس خالد أن تردد صلاح كان في الحقيقة خوفه من أخيه محمد، وعرف أن محمداً سيضع عقبة في الطريق ويعقد المسألة، خصوصاً إذا علم أنه وراء الموضوع، وهنا لم يجد خالد بداً من قطع الطريق على محمد، ولم يكن أمامه إلا اللجوء إلى حمد الذي لا يرد له محمد طلباً مهما كان صعباً.

استقبل حمد خالداً بالأحضان مرحباً به في مكتبه الفاخر بشركة المقاولات التي يملكها، وبلغته المحببة بادره وقد أحس بفراسته أن أمراً مهماً جاء به إليه في الشركة:

- ها بو حسين، أظن ما يابك عندي هنيه إلا شيّ كايد.

ويضحك خالد موافقاً:

- لنا من العادة نطلبك عند هالحزات يا بو شهاب، وأنت مرد الراس.

- وصلت يا بو حسين، آمر.

وكعادته يحس خالد بالراحة وهو يتكلم أمام حمد، فقد تعود أن لا يخفي عنه شيئاً ولا أن يرد له طلباً:

- المسألة بخصوص محمد جاسم، أنت تدري هاذي موصينا عليه المرحوم بو جاسم.

- إيه صحيح، اللّه يرحمه، شفيه محمد؟

- نبغي نزوجه!

- واللّه؟، ليش لا؟ هاذي حقه، نزوجه!، أنا سمعت إنه صار فاهم وانصلح أمره عقب ما اشتغل عندك.

- اللّه يسلمك نبغي نزوجه فوزية بنت صلاح، هذي أنسب وحدة له في الفريج، وغير جذي هي بنت خاله.

- اللّه يبارك، الزواج نص الدين.

- أنا كلمت اليوم صلاح، وجنّي لاحظت عليه متردد شوي، قال لي يبغي يشاور الأهل وعم البنت محمد، والظاهر هو ما يبي مشاكل مع محمد، أنت تدري.

- ولا يهمك، بصدري هو وأخوه محمد، والأمر هيّن يا بو حسين، وهدية محمد جاسم عليّ أنا وجاهزة.

- اللّه يبارك فيك يا بو شهاب، ما تقصر.

- إلا ما سألتك، شلون الوالدة؟.

- الحمد لله أشوى من قبل، أنت تدري مشكلة الكبد عندها قديمة، وهي تراجع الطبيب، لكنها بخير.

- أنا سمعت انكم ما تطبخون في البيت غير الأكل اللي في قايمة الطبيب، تدري هاذي محد سواها قبلك؟، لكن أم خالد تستاهل، هاذي بركة بيتكم كله، وهي عزيزة وغالية.

تنفرد أسارير خالد وهو يعلم أن حمد يقول ذلك صادقاً:

- وأنت عزيز وغالي يا بو شهاب، وأمي دوم ما تيبب طاريك إلا بالخير.

- أدري أدري، إلا ما قلت لي، شخبار ولدك حسين؟

- صاك عليه الحجرة ومتفرغ حق الامتحان، هالسنة عنده ثانوية.

- قال يبغي يصير مهندس.

- إن شاء الله، والبلاد تبغي مهندسين وايد.

- أنت من يوم يومك تقول لي شغلة المهندس أحسن شغله، يا ليت قدرنا نتعلمها.

- تتذكر يا بو شهاب، طلعت روحنا من الحر واحنا نحفر حق البيبات في هالرمل.

- إي بالله تطري علي أيام قضيناها.

- زين، من رخصتك يا بو شهاب.

- اقعد زين، ما خلصت كلامي، لاحق على الشغل.

يجلس خالد، ويتابع حمد:

- أقول..

- نعم.

- قول حق حسين إن هديته إذا نجح في الثانوية بارزة.

- خلاص، اعتبره ناجح.

يضحك حمد وقد طرأت عليه فكرة:

- صحيح، قول حق أمك لا تحط على بالها من قايمة الطبيب، أنا بعد الطبيب سوّى لي قايمة أصعب من اللي عندها.

- ليش، خير؟

- قال معاي السكّر.

- خطاك الشر.

- ولا اسأل عنه، آكل على كيفي وعقب الأكل أبلع حبوب وخلاص.

- تحمل على نفسك يا بو شهاب.

- يا ريّال العمر واحد.

- زين، الحين تسمح لي يا بو شهاب، لأني فعلاً تأخرت.

- مع السلامة، مر علينا، لا تقطعنا عاد.

- إن شاء اللّه.

• • •

كالعادة يأتيه الصوت الذي ألفه لسنتين عبر الهاتف، أصبح الصوت كياناً كاملاً له عيون وأنف وعنق وكل تفاصيل الجسد، من يصدق أن حبنا يستمر سنتين، لا يلتقي فيه الحبيبان مرة واحدة، حتى صار اللقاء حلماً، حلماً بعيداً، لكن عليه أن يصل

إليه بطموحه لتحقيق مستقبله العلمي، حينها يستطيع أن يواجه الجميع بحبه وهو لا يخشى أحداً، ويعود الصوت مرة ثانية:

- شفيك، نحن هنا.

- يا حيّ هالصوت.

- الظاهر قطعتك عن المذاكرة يا عمري؟

- أدري بج، كل همج تخليني أرسب في صفي علشان تصيرين معاي في صف واحد، بس هالحلم مهب حولج.

- كنا صغار وقتها، وما على كلامنا قاله.

- يا ليت نرجع الحين لذاك الزمان، علشان شيّ واحد بس.

- شنهو؟

- التقي وياج مثل أول.

- بس شالفايدة واحنا صغار؟

- لا، باخلي ذاكرتي معاي (تضحك).. تدرين يا سارة، أبوج وعدني بهدية إذا نجحت السنة في الثانوية.

- واللّه؟، يا بختك.

- انتي تعرفين شللي اتمناه يوعدني به؟

- خل ابوك يكلمه عيل.

- ذكية، ما شاء اللّه عليج.

- قلبي يقرصني من دراستك في امريكا.

- احنا متفقين، سنة وحدة هناك وبارجع علشان اتقدم لج، صبري علي يا عمري

وساعديني علشان أحس ان الأيام الحلوة التي أتمناها وانتي معاي صارت قريبة.

- عيل ما ابغي أعطلك عن المذاكرة، باتصل فيك باكر.

- باترّياج.

لم يبق إلا شهر واحد دون الامتحانات النهائية، كان حسين مصمماً منذ بداية العام على إحراز التفوق كعادته، انقطع عن الذهاب إلى البحر منذ شهور من أجل أن يتفرغ للدراسة، وربما حتى لا يفقد صوت سارة، لم يستطع طويلاً أن يخفي حبه أمام أبيه وأمه، لكنه استطاع أن يخفي اسم من يحب وترك لهما الظن والتخمين على راحتهما، فليس من السهل عليه أن يخفي اتصالاته الهاتفية مدة سنتين، وكم كان فخوراً بأبيه الذي تمنى عليه أن يكون هذا الحب جدياً وشريفاً، فليست بنات الناس لعبة يا ولدي، أحب من شئت لا يهمني، ولكن بقصد شريف.

كان خالد في كل مرة يرى فيها ولده حسيناً مستغرقاً في الكلام على الهاتف ينظر إلى زوجته وهو يبتسم لها، بينما هي لا تصدق نفسها من الفرح الذي يتملكها لسبب لا تدركه تماماً وحسين يهرب منهما بالهاتف إلى حجرة أخرى، لم يكن خالد خائفاً على دراسته، كان يرى بأم عينيه كيف يقطع اليوم في المذاكرة، وخصوصاً في المرحلة الأخيرة، فقد اعتزل في البيت ومنع نفسه من الخروج حتى إلى الشارع.

وعلى العشاء عندما تجتمع العائلة كان حسين كعادته لا يتخلى عن مماحكة جدته أم خالد، ومرة سألها بجدية مفتعلة وهو يعلم الجواب ضمناً:

- يدّتي، يقولون ما في أغلى من الولد غير ولد الولد.

يضحك خالد وهو يهز رأسه وهو يعلم قصد حسين، بينما جدته لا يهمها ذلك، فتجيبه بلا مبالاة:

- يقولون جذي..!

هنا يصل حسين إلى النقطة الحاسمة:

- معناها انتي تحبيني أكثر من أبوي..

وتفاجأ أم خالد، لكنها سيطرت على عواطفها بسرعة وأجابت بهدوء:

- أنا أحبك من محبة أبوك، هذيه خالد راس المال اللي خيره علينا كلنا، ياما تعب وشقى علشانّا، وانت يا وليدي أحبك بعد مثل أبوك.

- عيل ليش المثل يقول إني أغلى من أبوي؟

- بس، كل عيشك..!

ورغم الضحكات إلا أن خالداً يسرح بعيداً في عيني أمه اللتين لم يستطع في حياته أن يفلت منهما، ويرجع حسين مرة أخرى ليسأل جدته عن مسألة في الرياضيات فتجيبه:

- انت ما تيوز عن سوالفك؟، الله يعين قلب اللي هي نصيبك، أكيد بتنبط جبدها من هذرتك.

في اليوم التالي ذهب الجميع للمشاركة في عرس محمد جاسم إكراماً لذكرى المطوع، جاءته الهدايا من كل صوب، وذهبت أم خالد بنفسها لتبارك رغم الغثيان ورغم الألم الذي كانت تشعر به منذ الصباح في جانبها الأيمن، وقد أخفت كل ذلك حتى لا تفسد بهجة ذلك اليوم.

راح الشاب الطيب محمد مشغولاً بنفسه وسط القوم الذين تحلقوا من حوله، وقد لبس البشت الذي قدمه له حمد من بين الهدايا التي قدمها له، وأخذ البعض ينصحه ويسر إليه بالكلمات عن أمور الزواج.

في العرس كادت تحدث مشادة حامية بين حسين الذي أجبره أبوه على المجيء، وسالم ولد محمد، وكان السبب بسيطاً، ولولا أن هناك حساسية قديمة بينهما لتغاضى

حسين عن الأمر، لكنه مع سالم بالتحديد لم يحتمل، وانفجر في وجهه كأنما يريد افتراسه لولا تدخل الناس الذين حولهم، وانصرف حسين من العرس مغضباً وهو يعلم أنه سيواجه أباه الذي سيلومه كثيراً على ذلك التصرف دون أن يعرف أسبابه، لكن أمراً غير متوقع للجميع جعل من قضية حسين هامشية جداً، وهو سقوط الجدة أم خالد من الإعياء بعد أن وصلت إلى البيت.

في المستشفى بعد أن أجريت التحاليل السريعة للمريضة، واجه الدكتور ولدها خالداً الذي ذهبت الدماء من وجهه:

- ما أخفي عليك، والدتك معاها تليف بالكبد، بالإضافة لتصلب شرايين مزمن.

- يعني الحالة خطيرة يا دكتور؟

- للأسف خطيرة جداً، لذلك لازم تبقى في المستشفى، قوي قلبك ولا تيأس وتأكد إن احنا نقوم بالواجب.

لا يعلم غير الله كيف قضى خالد تلك الليلة في البيت وقد غابت عنه أم خالد للمرة الأولى في حياتها، أحس المكان قفراً، وأنه غريب تماماً عن البيت، لم يحتمل، خرج إلى المصطبة التي تطل على البحر، لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً لمواساته، فقد كانوا يتحسبون جميعاً لهذا اليوم المر.

وكأن أمواج البحر في تلك الليلة أخذت تنسكب من عينيه ملحاً حارقاً، بينما راح يجهش بالبكاء كطفل صغير أبعدته أمه الحنون عن حضنها في تلك الليلة.

الوعـد

نجح حسين بتفوق في امتحان الشهادة الثانوية، وذهب من فوره إلى المستشفى ليبشر أباه وجدته بالنتيجة، فخالد لم يفارق المستشفى يوماً واحداً منذ أن دخلته أمه، ترك العمل في الورشة ليديرها مساعدوه بعد أن أصر الأطباء على بقاء أمه بالمستشفى نظراً لحالتها الحرجة، لم تكن أم خالد بقادرة على الكلام نظراً للتعب الذي تعانيه، اقترب حسين منها وقبلها على جبهتها، وجاء الدكتور ليطلب منهم أن يتركوها لترتاح، فأي انفعال قد يسبب لها الأذى. أمسك خالد بيد أمه فأومأت إليه بعينيها أن يذهب مع حسين ليرتاح هو الآخر في البيت، في الطريق سأل خالد ولده حسيناً أن يختار الهدية التي يرغب بها بمناسبة نجاحه، وكان جوابه مفاجأة للأب غير متوقعة:

- يبه، أنا هديتي الوحيدة إنك تروح حق يدي خميس وتييبه بنفسك يتغدى معانا..

- يا حسين يا ولدي افهمني، لا تحسبني حاقد على يدك هالشكل.

- واللي يخليك يبه علشان خاطري، بانشدك بالغالية جدتي أم خالد..

وينظر خالد ملياً إلى ولده الكبير حسين ويهز له رأسه موافقاً بينما كانت الدموع تطفر من عيني حسين، فيذهبان معاً إلى خميس الذي تركته زوجته فاطمة وحيداً في البيت، فقد أُغلقت ورشة النجارة بعد أن حولها حمد إلى بقالة كبيرة وأعطى خميساً مبلغاً من المال تعويضاً له، لم يعد خميس قادراً أصلاً على العمل، كان شعره الأبيض الذي يملأ وجهه وصدره وضحكته النقية الساذجة يزيدانه بهاء وجاذبية، لم يصدق خميس عندما رأى صهره خالداً يدخل إليه في البيت مع حسين، لم يصدق حتى أمسك به وعانقه، دعاه خالد ليركب السيارة معهما، فالغداء اليوم لنا جميعاً بمناسبة نجاح حسين بالثانوية، كان يوماً سعيداً بحق، اختتمه حمد حين مر ببيت خالد وهنأهم عند

الباب لأنه مستعجل، لكنه لم ينسَ ما وعد به كعادته حين قدم لحسين وهو يعانقه الساعة الثمينة هدية نجاحه.

عند العصر ذهب خالد مع زوجته نورة لزيارة أمه في المستشفى، بينما بقي حسين في البيت، كان يعرف أن سارة بانتظاره، فهي الوحيدة التي يتمنى أن تشاركه الفرحة منذ اللحظة الأولى، وعندما رن جرس الهاتف أخيراً شعر حسين أن جدران الحجرة التي كانت تطبق عليه قد ابتعدت إلى ما لا نهاية عنه..

- ألف مبروك يا حسين.

- الفال لج إن شاء الله..!

- تدري؟، أنا فرحانه لك، وزعلانه بنفس الوقت..

- شدعوه يا سارة؟

- لأن نجاحك بيذكرني بقرب موعد سفرك.

- سارة، عيوني، احنا حبنا لازم يساعدنا على النجاح ماهب على الفشل، صدقيني كلها سنة باثبت نفسي في أمريكا وبارجع لج في الاجازة علشان أخطبج ونتزوج ونسافر يميع علشان تكملين دراستج معاي هناك، بس تحملي ما تنجحين!!

- من الناحية هاذي لا تحاتي، بس انت تحمل..

- شفيج سكتّي؟، كملي كلامج.

- مب عارفه، سامحني أنا متلخبطة، بس لازم تعرف إني علشان كلمة منك بانتظر العمر كله.

- يا عمري انتي.

- ما عليه يا حسين، باقطع الاتصال، الأهل وصلوا.

- مع السلامة.

كل الأمور تجري بسرعة عندما تحاول أن لا تنتظرها، وهكذا وجد حسين نفسه حين أبلغته إدارة البعثات بالاستعداد للسفر إلى أمريكا، ورغم توقه للسفر وإكمال دراسته إلا أنه كان يحاول أن يوهم نفسه ببعد ذلك اليوم، يوم السفر، حتى تتاح له الفرصة ليتحدث إلى سارة التي كانت تعيش موعد سفره يوماً بيوم، كان نبض كلماتها يزداد عصبية، وعندما جاء الوقت الذي يبلغها فيه عبر الهاتف أنه سيسافر في صباح الغد لم تستطع أن تكمل وأجهشت بالبكاء، بينما كان هو لا حول له ولا قوة إلا أن يطمئنها بكلماته، كان يود لو يكسر الجدران والحواجز جميعاً ويحجز لها بطاقة سفر لتركب إلى جانبه، لكن كل شيء كان خارج إرادتهما، وليس لهما إلا أن يتمسكا بحبهما، لأنه سترة النجاة الوحيدة التي تنقذهما من الغرق.

لم يحاول خالد أن يستفسر من ابنه حسين ساعة رآه مضطرباً بعد أن ترك سماعة الهاتف، فقد قدر موقفه، وكان واثقاً أن ولده قادر على تجاوز هذه المحنة بنفسه.

أخذ حسين السيارة من أبيه ليودع جدته في المستشفى ويجلب أمه من عندها، وكانت هذه محنة أخرى لحسين، لأنه كان يعلم ضمناً أن هذا سيكون آخر لقاء بجدته المتهالكة التي تعيش أيامها الأخيرة، ولم يشأ الأب أن يذهب معه، لأنه لن يقدر على احتمال الموقف بتاتاً، وهناك دفن حسين وجهه في كف جدته حتى لا يرى وجهها وترى دموعه، وبكلمات متقطعة وصل إليه صوتها:

- الله يحفظك يا ولدي حسين، لكن إذا تعزني خلك مع أبوك واسمع كلامه، وكون عضيده في الشدة والرخا، وانا راضيه عنكم دنيا وآخره، بس لا تنسى وصيتي، أبوك يا حسين!

في الطائرة التي أقلته إلى أمريكا اتكأ إلى الخلف في المقعد المريح ووضع يديه

تحت رأسه وساعدته الغيوم البيضاء التي رآها من النافذة في إبعاد الكآبة التي خلفتها مشاهد الوداع المتلاحقة، وتذكر أمراً غريباً بينما كان صوت جدته يأتيه كالصدى، فقد كانت توصيه بأبيه وكأنها تسلمه الأمانة، إنه طفلها العزيز، كانت خائفة عليه من بعدها أكثر من خوفها على أي شيء آخر، ولم توصِ حسيناً فقط، بل كل من زارها.

لم ينس قائد الطائرة أن ينبه الركاب إلى أنهم يعبرون الآن حاجز الليل والنهار، «سبحان الله»، قالها حسين وهو يرى نفسه في قلب الليل بعد أن كان في قلب النهار، وساعده ذلك العتم في أن يريح جفونه المتعبة بعد أن خُففت أنوار الطائرة، وتمطمط بجسمه المشدود وهو يبعد رأسه للخلف، وراوده النعاس والخدر اللذيذ، بينما كانت الطائرة تعبر المحيط الكبير إلى أمريكا.

الصدمة الثانية

لم يحتج المستشفى إلى إبلاغ خالد للمجيء لوداع أمه الوداع الأخير، لأنه كان ملازماً لها ولا يغادر حجرتها، وعندما دخلت مرحلة الغيبوبة كان المسكين لا يعرف ما الذي عليه أن يفعله كي تصحو أمه من جديد، فهو تارة يقرأ القرآن عند رأسها، وأخرى يدعو اللّه بتوسل، ثم يحاول أن يكلمها دون فائدة، ولم تقنعه كلمات الأطباء المواسية له بأنها في عالم آخر الآن وتلفظ أنفاسها الأخيرة بسكون وليس هناك مجال لأي طبيب بعد الآن.

عندما استسلمت أخيراً وسكن ذلك الجسد، أطبق خالد على وجهها يلثمه وهو يصرخ بلوعة، مما اضطر الأطباء لإعطائه حقنة مهدئة خوفاً عليه من الانهيار التام.

استند إلى الرجال حين شيعوا أمه إلى مثواها الأخير، كان حمد إلى جانبه طوال الوقت يذكره بأنه رجل وعليه أن لا يبكي كالأطفال.. «اصبر يا بو حسين، هذا اليوم علينا كلنا».

في البيت لم تجرؤ زوجته التي كانت تبكي معه أن تواسيه خيفة أن تفلت منها كلمة لا تعجبه فينقلب الأمر عليها، ولم تسمح فاطمة لزوجها خميس بأن يذهب إلى خالد في تلك الفترة وأوصته أن يبقى بعيداً.

بعد مدة وزعت نورة أغراض أم خالد على بعض العجائز حتى لا تبقي أثراً لها في البيت يعيد الحزن إلى قلب خالد، ورغم أن رسالة حسين المواسية خففت عنه بعض الشيء، إلا أنه ظل لا يستطيع النوم في الليل، فرغم جميع الكلمات الطيبة المواسية التي سمعها ممن حوله، ورغم تظاهره بالتفهم، لكن شيئاً في جوفه ظل يحترق على أمه التي ترقد الآن تحت التراب..

- اللّه يرحمج يا يمه، الحياة من عقبج تغيرت، إيه.. الحين قريب يكمل الحول

وانتي تحت التراب، وسع الله في قبرج وطيب الله ثراج.

كل شيء يبدأ في هذه الحياة صغيراً ثم يبدأ بالكبر والتنامي، إلا الموت فإنه يبدأ كبيراً جداً ثم يأخذ مع الأيام بالصغر والتلاشي، انطوى الحزن شيئاً فشيئاً في داخل قلبه وغلفته الأيام بغلالات رقيقة ما تفتأ أن تصبح سميكة لتحجز هذا الحزن وتطفىء لهيبه.

عاد خالد إلى حياته العادية كمن يتعرف إليها من جديد، مثل طفل أطلقته أمه الحنون من حضنها وراح يحاول وحيداً معرفة الأشياء من حوله، لكن ذلك جاء متأخراً، مما سبب له حزناً آخر يشبه الخيبة والانكسار، فقد زادت الكآبة من عزلته ولم يجد مواسياً له في وحشته إلا قراءة القرآن الكريم لساعات حتى يأتيه النوم، وعند الفجر يذهب مبكراً إلى المسجد، وكانت نفسه ترتاح للعتم وهو يستند إلى العمود أمام المحراب يدعو لأمه بالمغفرة والراحة.

• • •

لعبة الكبار

أخذ حمد يفرك عينيه اللتين تحرقانه، بينما جلس إلى جانبه محمد بن أبي حسين شريكه في الفندق السياحي الضخم الذي ينوي إنشاءه، لكن المشكلة كانت تتلخص في إيجاد الأرض المناسبة، وهذا هو الذي جاء بمحمد في هذا اليوم إلى مكتب حمد، بعد أن أصبح حمد لا يثق بالمديرين الذين يديرون أعماله، مما دعاه إلى تركيز جميع الأعمال بين يديه وتحت إشرافه مباشرة، وكان مبرره في ذلك أن الجميع يسرقونه عندما تغفل عينه، وهكذا كان عليه أن يقضي فترات طويلة في العمل، مما زاد من مشكلة السكر لديه، وقد أخبره الأطباء الذين زارهم أكثر من مرة أنه سيعاني من مشكلة خطيرة إذا لم يلتزم بتعليماتهم.

بدا على محمد أنه جاء يحمل خبراً بخصوص المشروع الجديد، فبادره حمد بعد أن شرب كأس الماء البارد:

- ها بو سالم، شصار معاك؟

- تدري يا بو شهاب من هو موقف في ويه مشروعنا الجديد؟

- لا ، من هو؟

- شرايك إنه خميس؟!

- خميس ما غيره..؟

- إي، أرض بيته أنسب مكان حق مشروعنا، ومحد غيرك يقدر يقنعه.

- عيل خميس هاه، هاذي بسيطة، اعتبر خميس في مخباي.

- أدري، بس أبغي أوصيك، ترى لا يسمع نسيبه خالد بالموضوع..

- ما عليك، اترك هالموضوع علي، ها تبي تقول شي؟

- لا خلاص، صحيح ولدي سالم يبلغك السلام.

- الله يسلمه، متى وصل من أوروبا؟

- من يومين، واتفق هناك على وكالتين جداد.

- فيه الخير.

- لا، وناوي بعد يتزوج!

- هاذي الساعة المباركة.

- قال انت واعده من زمان تنقي له العروس.

- زين، وأنا عند وعدي.

في المساء استدعى حمد خميساً إلى بيته، وذهب خميس دون أن يخبر فاطمة، فشوقه كبير إلى حمد الذي لم يره منذ زمن، وحمد لا يبعث إليه إلا وهناك شغل يعتمد عليه فيه، وبعد أن شرب القهوة معه واطمأن حمد على صحته قال له مستغرباً:

- أنا للحين مستغرب يا خميس شلون أنت صابر على بيتك ذيه؟ ليش ما تسكن في بيت يديد بدل هالخرابة؟، حرام عليك، صحتك يا خميس قبل كل شيّ.

- على يدّك، وين هالبيت اليديد؟، وبعدين فلوسي ما تيزّي، تبيني أحطها في بيت وأقعد ما عندي شي؟

- لا، من يقول جذيه؟

- عيل شلون؟

- شرايك لو أنا عطيتك بيت جديد وفوقه خمسين ألف ريال؟

- يه، بيت يديد وفوقه خميس ألف ريال؟

- إي، بدل هالبيت الخرابه اللي انت ساكن فيه.

- واللّه زين.

- ابصم هني على هالورقة وباسلمك مفتاح البيت اليديد وشيك بخمسين ألف ريال.

ينصرف خميس غير مصدق نفسه من الفرح بعد أن استلم مفتاح البيت الجديد ليريه زوجته مفتخراً بما فعل، ليس هذا وحسب، بل وشيك بخمسين ألف ريال، سيذهب إلى البنك في الصباح الباكر مثل كبار رجال الأعمال ليصرفه ويضع المبلغ في حسابه.

كانت غلطة فاطمة أنها انفعلت وذكرت صهره خالداً، لأنه هو الذي يستطيع تقدير هذا الأمر، مما زاد في عناد خميس ومشاكسته، كمن أحس بأن أحداً لا يتمنى له الخير والجميع يريدون أن يسلبوه ما ربحه في صفقة البيت، وأصر خميس على زوجته فاطمة أن تنتقل إلى البيت الجديد في مشروع سكني قريب من الفريج يشبه البيوت الشعبية، ووجد لديه من المال ما يستطيع أن يفرش به البيت بأثاث جديد.

كان خالد يعي منذ البداية أن حمد غشّ خميساً، ذلك الرجل الذي لم يسيء إليه في يوم من الأيام، فقد تبين لخالد أن قيمة الأرض تزيد على مليون ريال، ورغم أن خميساً لم يلجأ إلى خالد، بل توارى عنه وتحاشى رؤيته منشغلاً ببيته الجديد، فقد ذهب خالد إلى حمد وعاتبه عتاباً مراً لأنه استغل سذاجة وطيبة خميس في هذه الصفقة، رغم أن حمد نفى أمامه أن يكون صاحب الصفقة، بل شريكه محمد هو الذي أقنع خميساً، وهو الذي دفع الفلوس، والبيت الجديد الذي أخذه خميس يعود لمشروع محمد السكني وليس لحمد دخل فيه، وأنه حاول منع الصفقة، لكن خميساً بصم وانتهى الأمر، وذهب خالد وهو يدرك أن حمد لن ينسى له كلماته القاسية في حقه.

• • •

السراب

عاد حسين أخيراً إلى البلاد بعد أن تأخر شهرين هناك عن موعد إجازته لإنهاء أحد الفصول المهمة، لاحظ على أبيه منذ البداية أنه تغير كثيراً، فهو لا يلبس العقال فوق الغترة، وذقنه طويلة، ولولا أنه دقق فيه كثيراً لما عرفه وهو يلبس النظارات الطبية، كما أن حديثه أصبح يتكرر فيه كثيراً ذكر الله، ولم يكن حسين بطبيعة الأمر متضايقاً من ذلك، لكنه الآن أمام أب جديد، هكذا أحس منذ الوهلة الأولى، وأخبرته أمه أن أباه يداوم على الذهاب إلى المسجد ولا يقطع فرضاً بعد وفاة أمه.

لم يكن التغيير الذي لاحظه مقتصراً على أبيه، بل فوجئ والسيارة تنعطف إلى البيت بوجود شاحنات ورافعات كبيرة تعمل هدماً في بيت جده خميس، وعلى الغداء أخبروه بكل القصة.

هيأ حسين نفسه مسبقاً للحديث عن دراسة الهندسة في أمريكا، لأنه كان يتوقع أن أباه لديه الكثير ليسأله، لكن لخيبته لم يهتم الوالد بغير السؤال عن صحته والدعاء له بالنجاح والتوفيق وسؤال مختصر جداً عن دراسته بشكل عام.

يا الله كيف تتغير الدنيا!، لكن حسيناً المندفع الذي كان كيانه كله يغلي ليصل أخيراً إلى البلد لم يشغله ذلك كثيراً بقدر ما يشغله أن ينجز ما جاء حقيقة لأجله، إن إجازة الشهر ستكون كافية للخطبة والزواج والسفر مع سارة إلى أمريكا، بعد أن أوصى هناك قبل سفره على شقة تجمعهما، صغيرة لكنها مريحة وعملية، دفع عربوناً لها وودع زملاءه الطلاب الذين كان يشاطرهم السكن لينتقل إلى جناح العائلات.

عندما يعود والدي من صلاة المغرب سأفاتحه بالأمر بصراحة وأبرر له كل شيء، وعمي حمد لن يتأخر عن مساعدتي في ذلك، إنه رجل متفهم وذكي، وسوف يكون الزواج في مصلحة ابنته لتكمل دراستها، ولكن قبل كل شيء لا بد أن أسمع صوتها.

أدار قرص الهاتف وانتظر حتى يسمع الصوت:

- ألو..

وكانت هي، وبعصبية تتابع:

- ألو.. شفيك ما تتكلم.

- سارة..؟

- من.؟ حسين؟

- أنا رديت لج يا عمري.

وتجهش بالبكاء مثل طفلة، فقد عاشت شهرين على أعصابها وهي تنتظر.

ويتابع حسين متأثراً:

- ما عليه يا عمري، حقج علي.

وبلهجة محببة:

- يا ليتك جدامي الحين حتى أضربك..!

(ويضحك حسين):

- عاد جذيه من أولها؟!

- وينك يا ظالم؟، جذي تسوي فيني وأنا على نار أنطر ردتك.

- ما عليه يا عمري، الظروف كانت أقوى مني، بعدين أشرحها لج، لكن يكون في علمج، انا استأجرت شقة صغيرة لنا، وهيه بارزة الحين علشان نسكن فيها.

- ما دام جذيه ما عليه!

- انا أنطر أبوي الحين يرد من المسيد علشان أكلمه في الموضوع، وإن شاء الله باكر بنفاتح أبوج.

- مهب مصدقة إن الأيام اللي تجمعنا قربت هالشكل..

- علشان احنا انتظرنا وايد يا عمري.

- متى عاد بيي باكر..؟

وبهدوء كمن يريد إثارتها:

- أكيد باكر.

- أوف يا أعصابك، من وين خذت هالبرود؟

- من الثلج والزمهرير اللي هناك.

وتأخذهما الاحاديث والأخبار التي لا تنتهي بين العاشقين، كل منهما ودّ لو يرى صاحبه حقيقة لثانية واحدة حتى يبدد الوهم الذي يسكن في حياتهما.

يضطر حسين إلى أن يقطع الاتصال بعد أن شاهد والده الذي تأخر في المسجد وبقي هناك حتى صلى العشاء يدخل البيت، وعلى العشاء فوق المصطبة فاتح حسين أباه بموضوع سارة، فبرقت عينا أمه سروراً، لكن الأب استمع دون دهشة كبيرة إلى ولده يشرح له ظروف مجيئه ونيته في استعجال الزواج لكي يسافر مع سارة إلى أمريكا بعد أن وعده أن ذلك لن يؤثر في دراسته، بل بالعكس، وبصراحة قال له إن الزواج سيمنعه من إقامة أي علاقة غير شريفة، فالمغريات هناك كثيرة، ولعل هذا المبرر الأخير وجد صدى وقبولاً لدى الوالد أكثر من كل المبررات التي ذكرها أولاً، وبعد صمت طويل تكلم أبو حسين:

- إن شاء الله باكر باروح أزور حمد وأتفاهم معاه.

فقفز حسين من فرحته إلى أبيه وقبل رأسه ورأس أمه:

- الله يديمكم لي..

ويستأنف أبو حسين كلامه:

- وابغيك تروح معاي علشان تسلم عليه ويشوفك.

تلك الليلة لم ينم حسين حتى الصباح، وفي اليوم التالي فوجئ حمد بزيارة خالد وحسين له، وكعادته رحب بهما أحسن ترحيب، وراح يسأل حسيناً عن أمريكا ودراسته هناك، وتمنى حسين أن لا تطول أسئلته كثيراً، فكان يجيب بطريقة مختصرة واضحة، بينما كان يرقب أباه كي يبدأ بفتح الموضوع، وأخيراً جاءت اللحظة المناسبة..

- يا بو شهاب، إحنا يايينك اليوم في أمر يخص ولدي حسين..

- آمر يا بو حسين، خير؟

- الله يسلمك حسين يبغي يعرس، وطالب يد بنتك سارة لا خلا منكم، وهم عيالك والقول لك يا بو شهاب..

فوجئ حمد تماماً بالطلب، بينما تعلقت عينا حسين به وابتسم حمد ابتسامة غامضة:

- وكاد حسين حسبة ولدي وماهب غريب، لكن أبغي منك مهلة يا بو حسين، أنت تدري لازم أسأل الأهل وأجوف راي بنتي سارة، وان شاء الله بارد لكم الخبر..

ويهز الأب رأسه موافقاً رغم أنه كان يعلم ضمناً أن حمد يريد أن يقرصه بطريقة ما، لكن حسيناً تدخل بعد أن طلب السماح من أبيه:

- يا عمي أنا ظروفي ضيقة بالنسبة للإجازة، ونيتي طبعاً عقب موافقتك إني أتزوج في هالأسبوع أو الأسبوع الياي وأسافر مع زوجتي أمريكا.

- ما شاء الله حسين مستعجل على الزواج، زين إن شاء الله بارد لكم خبر باكر، باتصل فيك يابو حسين.

يغادران مكتبه بعد أن شعرا أنه منهمك في قضية المشروع الجديد، لم يطرأ في بال حسين أي بادرة شك بالنسبة لموافقة حمد، في الوقت الذي كان الأب لديه إحساس

بأن الأمر لن يتم على ما يشتهي حسين، لكنه لم يشأ أن يزعج ولده المتلهف ويصدمه بالحقيقة القاسية، غير أن الذي كان يشغل الأب هو ذلك المبرر الذي سيرفض حمد على أساسه، لأنه يعلم أن حمد من النوع الذكي الذي لا يتصرف عشوائياً أبداً، بل بطريقة محسوبة، هل سيعتمد على عدم موافقة زوجته ابنة النوخذة أبي محمد لأنها تحقد على خالد للقصة القديمة؟، ربما يظهر حمد وكأنما يتعصب لزوجته ويحامي عن حقدها، لكن ذلك ليس كافياً ولا مبرراً، لماذا يكون حسين ضحية لقصة لا علاقة له بها من قريب أو بعيد؟!، ثم إن حسيناً ليس شاباً من السهل تجاوزه، فهو ابن عائلة معروفة، وله مستقبل علمي، وسمعته نظيفة، ما الذي يريد أكثر من ذلك حمد الذي لم يتزوج ابنة عمه إلا لأنه يريد الالتحاق بمقام العائلة؟!.

حدث ما حدث في بيت حمد ذلك اليوم، وعند ضحى اليوم التالي بر حمد بوعده واتصل بأبي حسين ليبلغه أسفه لعدم الموافقة في البيت على الموضوع، أخبره أنه وعد مسبقاً سالم بن محمد بابنته سارة، لكنه لم يشأ أن يخبرهم بذلك وقتها وانتظر حتى يعرف رأي ابنته سارة الأخير، و«على كل حال ولدك حسين في أول دراسته، والبنات مثل الهم على القلب»، ولم تنفع ظرافة حمد في إقناع خالد فسأله:

- ليش ما تقول لي السبب الحقيقي يا حمد؟ ليش؟

- فيه ظروف تمنعني يا بو حسين، لكن إذا حبيت باقولك إياه..

- شنهو يا حمد؟

- لا تنسى حسين من يكون جده!

يضرب خالد السماعة بالهاتف حنقاً وغيظاً بعد أن عرف حمد كيف يلدغه، وجاء حسين ملهوفاً ليجد أباه يكاد ينفجر من القهر الذي ملأ وجهه المحتقن:

- خير يبه؟

- يا ولدي.. حمد رفض يزوجك بنته سارة!

- شتقول؟

- أقول لك رفض يزوجك بنته، ما هي من نصيبك!!

- مب معقول، ليش يا يبه؟ ليش؟

- شاقول لك يا حسين، من زمان وأنا خايف من هاليوم.

- يبه، شنهي السالفة؟

- علشان خميس ايصير يدّك، شرايك؟

- هو قال لك جذيه؟

- توه الحين قايل لي في التلفون.

يندفع حسين إلى الخارج لا يرى شيئاً بعينيه من الحنق والغيظ، وفشل الأب في إمساك ولده الذي اندفع بكل قوته جرياً إلى حيث يجلس حمد، كان حمد في مكتبه الفخم الذي يطل على المشروع الجديد، وعندما رأى حسيناً يقتحم عليه المكتب صرخ عليه:

- شفيك انت، شفيك؟ ما تشوف ورانا شغل؟

يقف حسين لاهثاً ووجهه يعبر عن تحدٍّ صارخ:

- أنا ييتك علشان اسمعها منك بنفسي وأتأكد انك صج ما تبيني أتزوج بنتك لأن خميس يدي!

وبلا مبالاة لا تخفى فيها السخرية والتعالي:

- إي نعم، لأن خميس يدك ما أزوجك بنتي، شتبغي بعد؟

ورغم أن الدمع كاد يطفر من عيني حسين، إلا أنه تماسك وانسالت الكلمات الصارخة بالألم للمفارقة المرة:

– انت بو شهاب اللي كنت تعزني جني ولدك الحين صرت تعايرني يوم بيت أخطب بنتك؟ شدعوى يا بو شهاب، ليش ما تذكرت يدي أبو خالد اللي أكرمك وتذكرت يدي خميس؟ ليش هديت يدي القوية ومسكت يدي الضعيفة، ليش؟

– انجلع من ويهي.. أقول لك انجلع..

أمسك بعض الموظفين بحسين حتى لا يضرب حمد الذي أصابه الهلع للموقف، فخرج حسين لا يلوي على شيء وتهديدات حمد تطارده دون أن يعبأ بها، حين وصل إلى الساحة والتفت وجد السدرة التي كان يلعب عندها مقصوصة بعد أن داستها إحدى الجرافات التي تعمل في المشروع، كان القهر يملأ كيانه كله، وأحس بالمرارة وهو يرى السدرة على تلك الحال وقد نصبت إلى جانبها لافتة كتب عليها اسم المشروع والشركة التي تبنيه وأصحابه باللغتين العربية والإنجليزية، تلاشت أصوات الرافعات والجرارات من حوله، كان داخله هو الصارخ الأقوى الذي ساد على كل الأصوات التي حوله، وأخذت الرعشة تمسك به من رأسه إلى أخمص قدميه، رعشة من يريد أن يعقل شيئاً، يتجاوز الجميع، ثم بدأت الأصوات تعود إلى مسامعه ثانية كأنما تنذره بالرحيل، لكن يداً حانية أحسها على كتفه ما زالت تنبض بالحياة رغم عروقها الجافة أبعدت ذلك الضجيج، التفت حسين وراءه ليجد جده خميساً يبتسم له بوجهه الطيب وقد ضحك الشيب فيه ليزيده بهاء وروعة، وبسذاجة من لا يدري شيئاً:

– وليدي حسين، قالوا لي تبغي تتزوج؟

أمسك حسين برأس جده وأخذ يقبله وهو يقول له والدموع تطفر من عينيه:

– لا تصدق يا يدّي إذا قالوا لك إن انت السبب، أبداً ما هب صحيح، هم السبب، وأنا جدام كبرياؤهم باعتز فيك وارفع راسي أكثر وأكثر.

لم يعرف خميس ما الذي يتكلم عنه حسين، لكنه جفل عندما رأى الدموع في عينيه، وبتأثر سأله:

- شللي تقوله؟، ما فهمت عليك، وليش تصيح؟

حاول حسين أن يشرح له، لكنه أدرك أن لا فائدة من ذلك، فانهار بالبكاء الحار على صدر جده الذي راح يبكي معه وهو يقول له:

- ليش تصيح؟ ليش..؟؟

رجعت الأصوات الهادرة لتخرس ذلك السؤال وتقطع كل جواب، وانسحبا سوياً بعيداً عن غبار المكان.

م	المحتويـــات	رقم الصفحة
١	تقديم	٥
٢	الانتظار	٩
٣	صباح جديد	٢٨
٤	جبر الخواطر	٥٧
٥	عودة الغائب	٧٥
٦	من جديد	٩٦
٧	الأعجوبة	١١٣
٨	رسالة	١٢٣
٩	الغائب من جديد	١٣٨
١٠	المعرس	١٤٦
١١	بعد الغياب	١٦٢
١٢	الكساد	١٨٠
١٣	الصدمة	١٨٧
١٤	السعيدة	١٩٢
١٥	صاحب الشأن	١٩٥
١٦	المفاجأة	٢٠٤
١٧	الأمل	٢٢٢
١٨	سلمى أخيراً	٢٢٧
١٩	العهد الجديد	٢٢٩
٢٠	تحت الرماد	٢٤٢
٢١	البحر من جديد	٢٤٥
٢٢	دولاب الأيام	٢٥٠
٢٣	الغريمان	٢٥٧
٢٤	بعيداً عن الأحلام	٢٦٨
٢٥	أيام دافئة	٢٧٣
٢٦	الوعـد	٣٠٣
٢٧	الصدمة الثانية	٣٠٧
٢٨	لعبة الكبار	٣٠٩
٢٩	السراب	٣١٢

إصدارات وزارة الثقافة والفنون والتراث

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١	البدء من جديد	حصة العوضي	٢٠٠٠
٢	بداية أخرى	فاطمة الكواري	٢٠٠٠
٣	أصوات من القصة القصيرة في قطر	د. حسن رشيد	٢٠٠٠
٤	دنيانا... مهرجان الأيام والليالي	دلال خليفة	٢٠٠٠
٥	قالت ستأتي	جاسم صفر	٢٠٠٠
٦	غنج الأميرة النائمة	فاروق يوسف	٢٠٠١
٧	وريثة الصحراء	سعاد الكواري	٢٠٠١
٨	ويخضر غصن الأمل	أحمد الصديقي	٢٠٠١
٩	بستان الشعر	حمد محسن النعيمي	٢٠٠١
١٠	رومانوف وجوليت	ترجمة/ النور عثمان	٢٠٠١
١١	الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة	د. حسام الخطيب	٢٠٠١
١٢	الحضن البارد	د. حسن رشيد	٢٠٠١
١٣	سحابة صيف شتوية	خالد عبيدان	٢٠٠١
١٤	سيرة الوجع	أمير تاج السر	٢٠٠١
١٥	وجوه خلف أشرعة الزمن	حصة العوضي	٢٠٠١
١٦	حاف الموسيقى	غازي الذيبة	٢٠٠١
١٧	قصص أطفال	د. هيا الكواري	٢٠٠١
١٨	أوراق نسائية	د. أحمد عبدالملك	٢٠٠١
١٩	الفريج	إسماعيل ثامر	٢٠٠١
٢٠	الأعمال الشعرية الكاملة ج١ - ج٢	د. أحمد الدوسري	٢٠٠٢
٢١	علمني كيف أحبك	معروف رفيق	٢٠٠٢
٢٢	قصص وحكايات شعبية	خليفة السيد	٢٠٠٢
٢٣	رحلة أيامي	صدى الحرمان	٢٠٠٢
٢٤	جرح وملح	عبد الرحيم الصديقي	٢٠٠٢
٢٥	خلف كل طلاق حكاية	وداد الكواري	٢٠٠٢
٢٦	دراسات في الإعلام والثقافة والتربية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٢
٢٧	النثر العربي القديم	د. عبدالله إبراهيم	٢٠٠٢
٢٨	كل الأشياء لم تكن	جاسم صفر	٢٠٠٢
٢٩	نعاس المغني	عبدالسلام جاد الله	٢٠٠٢
٣٠	مدى	د. زكية مال الله	٢٠٠٢

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٣١	قال المعنى	خليل الفزيع	٢٠٠٢
٣٢	المسرح الألماني المعاصر	د. عوني كرومي	٢٠٠٢
٣٣	المسرح في بريطانيا	محمد رياض عصمت	٢٠٠٢
٣٤	إبراهيم ناجي - الأعمال الشعرية المختارة	حسن توفيق	٢٠٠٢
٣٥	مسرح الصورة بين النظرية والتطبيق	د. صلاح القصب	٢٠٠٢
٣٦	النوافذ السبع	صيتة العذبة	٢٠٠٣
٣٧	الرحيل والميلاد	جمال فايز	٢٠٠٣
٣٨	أوراق ثقافية	د. كلثم جبر	٢٠٠٣
٣٩	بدائع الشعر الشعبي القطري	علي الفياض/ علي المناعي	٢٠٠٣
٤٠	شبابيك المدينة	ظافر الهاجري	٢٠٠٣
٤١	حضارة العصر الحديث	د. شعاع اليوسف	٢٠٠٣
٤٢	المتراشقون «مسرحية»	غانم السليطي	٢٠٠٣
٤٣	معاناة الداء والعذاب في أشعار السياب	د. حجر أحمد حجر	٢٠٠٣
٤٤	سحائب الروح	سنان المسلماني	٢٠٠٣
٤٥	أصوات قطرية في القصة القصيرة	د. عبدالله إبراهيم	٢٠٠٣
٤٦	ذاكرة الإنسان والمكان	خالد البغدادي	٢٠٠٣
٤٧	إبراهيم العريض شاعراً	د. عبدالله فرح المرزوقي	٢٠٠٣
٤٨	الصحافة العربية في قطر	إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٤
٤٩	أم الفواجع	علي ميرزا	٢٠٠٤
٥٠	صباح الخير أيها الحب	وداد عبداللطيف الكواري	٢٠٠٤
٥١	الصحافة العربية في قطر «مترجم إلى الإنجليزية»	إبراهيم إسماعيل ترجمة/ النور عثمان	٢٠٠٤
٥٢	لآلئ قطرية	علي عبدالله فياض	٢٠٠٥
٥٣	الأعمال الشعرية الكاملة	مبارك بن سيف آل ثاني	٢٠٠٥
٥٤	التفاحة تصرخ.. الخبز يتعرى	دلال خليفة	٢٠٠٥
٥٥	إدارة التغيير	عبدالعزيز العسيري	٢٠٠٥
٥٦	الشعر الحديث في قطر	د. عبدالله فرح المرزوقي	٢٠٠٥
٥٧	الشرح المختصر في أمثال قطر	خليفة السيد	٢٠٠٥
٥٨	لؤلؤ الخليج ذاكرة القرن العشرين	خالد زيارة	٢٠٠٥
٥٩	على رمل الخليج	محمد إبراهيم السادة	٢٠٠٥
٦٠	إبداعات خليجية	(مسابقة القصة القصيرة لدول مجلس التعاون)	٢٠٠٥

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٦١	الأدب المقارن وصبوة العالمية	د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٦٢	مهارات الإرشاد النفسي وتطبيقاته	د. موزة المالكي	٢٠٠٥
٦٣	تجريبية عبدالرحمن منيف في مدح الملح	نورة محمد آل سعد	٢٠٠٥
٦٤	المعري يعود بصيراً	د.أحمد عبدالملك	٢٠٠٥
٦٥	وردة الإشراق	حسن توفيق	٢٠٠٥
٦٦	مجاديفي	حصة العوضي	٢٠٠٥
٦٧	الأعمال الشعرية الكاملة ج١	د. زكية مال الله	٢٠٠٥
٦٨	أسباب للانتماء	رانجيت هوسكوتي ترجمة: ظبية خميس	٢٠٠٥
٦٩	تباريح النوارس	بشرى ناصر	٢٠٠٥
٧٠	المرأة في المسرح الخليجي	د. حسن رشيد	٢٠٠٥
٧١	أبو حيان.. ورقة حب منسية	حمد الرميحي	٢٠٠٥
٧٢	تطور التأليف في علمي العروض والقوافي	د.أنور أبو سويلم، د. مريم النعيمي	٢٠٠٥
٧٣	أحزان كبيرة	أمير تاج السر	٢٠٠٥
٧٤	الديوان الشعبي	عيد بن صلهام الكبيسي	٢٠٠٥
٧٥	ذاكرة الذخيرة	علي بن خميس المهندي	٢٠٠٦
٧٦	تجليات القص «مع دراسة تطبيقية في القصة القطرية»	باسم عبود الياسري	٢٠٠٦
٧٧	سمط الدهر «قراءة في ضوء نظرية النظم»	د. أحمد سعد	٢٠٠٦
٧٨	كان يا ما كان	خولة المناعي	٢٠٠٦
٧٩	الظل والهجير «نصوص مسرحية»	د. حسن رشيد	٢٠٠٦
٨٠	الرواية والتاريخ	مجموعة مؤلفين	٢٠٠٦
٨١	وجوه متشابهة «قصص قصيرة»	خليفة عبدالله الهزاع	٢٠٠٦
٨٢	المسرح المدينة	د. يونس لوليدي	٢٠٠٦
٨٣	الأعمال الشعرية الكاملة ج٢	د. زكية مال الله	٢٠٠٦
٨٤	الدفتر الملون الأوراق	حصة العوضي	٢٠٠٦
٨٥	الظل وأنا	نسرين قفة	٢٠٠٦
٨٦	حقيبة سفر		٢٠٠٦
٨٧	مسرحيات قطرية (أمجال يا عرب - هلو Gulf)	غانم السليطي	٢٠٠٦
٨٨	العالم وتحولاته (التاريخ - الهوية - العلومة)	د. إسماعيل الربيعي	٢٠٠٦

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٨٩	موال الفرح والحزن والفيلة «نضال مسرحيان»	حمد الرميحي	٢٠٠٦
٩٠	حكاية جدتي	مريم النعيمي	٢٠٠٦
٩١	صورة المرأة في مسرح عبدالرحمن المناعي	إمام مصطفى	٢٠٠٦
٩٢	ديوان ابن فرحان	حمد حسن الفرحان	٢٠٠٧
٩٣	موال الفرح والحزن والفيلة «مترجم إلى الفرنسية»	حمد الرميحي	٢٠٠٧
٩٤	الفن التشكيلي القطري.. تتابع الأجيال	خالد البغدادي	٢٠٠٧
٩٥	دراسة في الشعر النبطي	حمد الفرحان النعيمي	٢٠٠٧
٩٦	بداية أخرى «مترجم إلى الإنجليزية»	فاطمة الكواري	٢٠٠٧
٩٧	وجع امرأة عربية «مترجم إلى الإنجليزية»	د. كلثم جبر	٢٠٠٧
٩٨	الخيل.. رياة الآباء والأجداد	صلاح الجيدة	٢٠٠٧
٩٩	النقد بين الفن والأخلاق، حتى نهاية القرن الرابع الهجري	د. مريم النعيمي	٢٠٠٨
١٠٠	وداع العشاق	حسين أبو بكر المحضار	٢٠٠٨
١٠١	الوزة الكسولة	د. لطيفة السليطي	٢٠٠٨
١٠٢	المهن والحرف والصناعات الشعبية في قطر	خليفة السيد محمد المالكي	٢٠٠٨
١٠٣	العشر الأوائل.. رائدات الفن التشكيلي في قطر	خولة المناعي	٢٠٠٨
١٠٤	الرواية العربية.. رحلت بحث عن المعنى	عماد البليك	٢٠٠٨
١٠٥	دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر	د. عبدالقادر حمود القحطاني	٢٠٠٨
١٠٦	السلاحف البحرية في دولة قطر	د. جاسم عبدالله الخياط د. محسن عبدالله العنسي	٢٠٠٨
١٠٧	تجليات اللون في الشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين	د. ماجد فارس قاروط	٢٠٠٨
١٠٨	الموسوعة الصيدلانية	د. زكية مال الله	٢٠٠٩
١٠٩	المدارس المسرحية منذ عصر الإغريق حتى العصر الحاضر	أ.د. جمعة أحمد قاجة	٢٠٠٩
١١٠	من أفواه الرواة	علي عبدالله الفياض	٢٠٠٩
١١١	صورة الأسرة العربية في الدراما التلفزيونية	د. إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٩
١١٢	دور الدراما القطرية في معالجة مشكلات المجتمع	د. ربيعة الكواري د. سمية متولي عرفات	٢٠٠٩
١١٣	ديوان الغربة	إسماعيل تامر	٢٠٠٩

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١١٤	الحب والعبودية في مسرح حمد الرميحي	خالد سالم الكلباني	٢٠٠٩
١١٥	قصة حب طبل وطارة «مترجم إلى الإنجليزية»	حمد الرميحي	٢٠١٠
١١٦	التراث والسرد	د. حسن المخلف	٢٠١٠
١١٧	ديوان الأعشى (جزآن)	تحقيق: د. محمود الرضواني	٢٠١٠
١١٨	توظيف التراث في شعر سميح القاسم	لولوة حسن العبدالله	٢٠١٠
١١٩	إساءة الوالدين إلى الأبناء وفاعلية برنامج إرشادي لعلاجها	أمل المسلماني	٢٠١٠
١٢٠	شحنات المكان	ياسين النصير	٢٠١٠
١٢١	من أدب الزنوج الأمريكان	عبدالكريم قاسم حرب	٢٠١٠
١٢٢	أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب	حسن توفيق	٢٠١٠
١٢٣	وضاح اليمن دراسة في موروثه الشعري	د. باسم عبود الياسري	٢٠١٠
١٢٤	قطر الندى	ندى لطفي الحاج حسين	٢٠١١
١٢٥	الوحي الثائر	فضل الحاج علي	٢٠١١
١٢٦	شيء من التقوى	الجيلي صلاح الدين	٢٠١١
١٢٧	في مرايا الحقول	محمد عثمان كجراي	٢٠١١
١٢٨	المغاني	مصطفى طيب الأسماء	٢٠١١
١٢٩	على شاطئ السراب	أبو القاسم عثمان	٢٠١١
١٣٠	في ميزان قيم الرجال	محمد عثمان عبدالرحيم	٢٠١١
١٣١	أم القرى	الشيخ عثمان محمد أونسة	٢٠١١
١٣٢	من التراب	د. محيي الدين صابر	٢٠١١
١٣٣	غارة وغروب	محمد المهدي المجذوب	٢٠١١
١٣٤	المجموعة الشعرية الكاملة	محمد محمد علي	٢٠١١
١٣٥	شبّابتي	حسين محمد حمدنا الله	٢٠١١
١٣٦	من وادي عبقر	الدكتور سعد الدين فوزي	٢٠١١

تمت الطباعة في
مطابع علي بن علي